عمر سعيد

لم تكن
إيمّوزار، لكنها كانت!



رواية



لم تكن إيمّوزار، لكنها كانت!
عمر سعيد / روائي لبناني
الطبعة الأولى عام ٢٠١٣

دار العودة للتوزيع والنشر

لبنان – بيروت – ريفييرا سنتر – كورنيش المزرعة – الطابق الخامس
هاتف: ٨١٨٤٠٤-٠١
Email: daralawda@hotmail.com
omar.chebli@yahoo.com

الإهـــداء

إلــى الأحــرار الذيــن قضــوا فــي سـجـون الظـالميـن.

كان لتلك الليلة هدوء الضمائر الميتة، حيث كانت ظلمتها ترتصف كأبدية سوداء، حتى الريح الشتوية العنيفة بدت حينها أليفة وديعة، كعيون قطط شباط المتعلقة على حبال الشهوة. لقد بدا كل شيء غريبا، وكأن المدينة الصغيرة المنطمرة في كومة الظلام الكالح تنتظر حدثا ما.

كان منبه الوقت نادراً آنذاك، خاصة في ضواحي الفقراء، غير المبالين بحركته، لذا لم يستطع المنتظر خلف الأبواب تحديد الوقت الذي مر منه جزء لا بأس به على هذا الهدوء المظلم. فجأة يفر الضوء من خلف بعض ستائر النوافذ، كلما حاول أحد اختلاس النظر من ورائها نحو الخارج. وزاد الأمر غرابة أن الكلاب التي اعتادت الأذان تشتت نباحها في شتى أطراف المدينة، بدت وكأنها أخلت المكان.

ملامح المدخرين خلف الأبواب وفي ظلمة المدينة، وسكنة القبور كلها تلاقت في نزق الشوارع المكتوم. لم يكن الصيد ضروريا في تلك الليلة إلا بالنسبة لصائد الأرواح البشرية. كان من حسنات الهدوء إتاحته الفرصة لسماع صوت أية حركة في الخارج.

أبو سهيل وهو عجوز في منتصف السبعينات، يعب دخان سيجارته كأسفنجة جافة، ملامح وجهه تزداد قدما تحت تأثير الحزن وشحة الضوء، فكأن خطوط جبينه - لو دققت النظر والتحديق - مجاهل نائية معتمة، فحاجباه ينتشران انتشار غابات القصب في المستنقعات المحيطة بالمدينة، حول بريق عينيه الجاحظتين المحمرتين دائما، واللتين ترشحان الدموع طالما رفت أجفانها، فيتكلس زبد التعب أصفر كقطنة متسخة، عند ملتقى الجفن والرمش، فتثيران حكة بين الفترة والأخرى، مما يدفعه لمسحها بإبهامه الأيسر، فتصدر صوت ورقة أثناء طيها. وينحدر أنفه مستقيما عالي الذؤابة. ويبدو حجم أرنبتيه في الظلام مضاعفا، لما أحاط بهما من ظلال.

رغم السبعين التي مرت، اعتاد المواظبة على حلق لحيته كل صباح، فراح يتحسس نمو شعرها، مع تشتت تركيزه بحثا في غرابة ذلك الهدوء الليلي. وضع يده فوق شفته العليا متسائلا: "كيف يستطيع بعض الناس تحمل الشارب؟!". فجأة يستقيم من تكوره، وقد شد مفاصله حين سمع قرع الباب، الذي رسم على وجوه الكل علامات التساؤل المرعبة، فأشد ما يعذب المنتظر هي اللحظة التي تسبق الإجابة عن كل التساؤلات. نهضت سمية كنته، وقد لفت غطاء رأسها حول عنقها من الأمام، ونفضت تنورتها من الخلف، وضغطت على أصابعها تريد فرقعتها، لتخفيف الضغط وبعض التوتر، ومسحت بنظرها وجوه الجميع، ثم توقفت عند وجه أبي سهيل، تنتظر إشارته. أمسكت رتاج الباب، ولما لم تكن ثقة الطارق بحاجة لإعادة الطرق ثانية، أحست بالإحراج، مما اضطرها سحب الرتاج، والتراجع إلى الخلف خطوتين مرتبكتين، وقد اعترتها اضطرابات الهلع. وتعلقت عيون المحشورين على جزمة هذا المتوقف في الباب، الذي سده بجسده الضخم، ينساب فوقه معطف صوفي طويل، ويعتمر فوق رأسه قبعة صوفية سوداء، أزالها عن رأسه الأشيب بعدما انزلق إلى الداخل وأردف الباب.

بدأ حضوره بزفرة، اختصرت ثلثي حديثه، ثم نزع المعطف المبلل بالمطر والجزمة المطاطية، ومسح جبينه بردني قميصه، وخطا باتجاه الموقد، الذي بدأ لهيب ناره يتحول إلى جمر، يلائم جمار القلق في صدور الصامتين. تكور بجانب الموقد، والصمت لازال يزمجر في الآذان دون أن تجبر الألسن على الحديث، ثم تناول علبة السجائر من جيب قميصه، ونقر أسفلها على ركبته اليمنى بعنف محدود وفتحها، تناول آخر سيجارة كانت فيها، قتل استقامة أضلعها بضغطة من يده وقذفها إلى داخل الموقد، ظل يراقب تسرب النيران إليها لتحيل ألوانها إلى رمادية قاتمة قبل أن تتهدم أجزاؤها، أشعل سيجارته وتنفس بصمت، وأسند رأسه إلى الجدار. مما استفز فضول الجدة نعمت، التي قلما تستطيع التركيز

بسبب ضعف الذاكرة الذي أصابها مع تقدم سنها، ففتحت فاها الذي بدا كأنه مدخل مغارة تحت قمة يغطيها الثلج؛ لشدة بياض شعرها المبعثر كريشة تنظيف الغبار، وسألته: ها، ماذا فعلت؟

ودون أن يحرك رأسه المسند فتح عينيه ونظر إليها بطرفه نظرة هادئة ثم أطبق جفنيه وقال:

ـ لا شيء.

وثارت ثائرة أبي سهيل: ـ ماذا تقول؟ همسها بعنف وقد قبض على ركبتيه مستعدا للنهوض.

ـ لا شيء.

ـ تأخرت أربعة أيام بلياليها، وتأتي لتقول لي لا شيء؟

ـ أجل يا عم أبو سهيل لا شيء. واغرورقت عيناه بالدموع، مع لفظه كلمة "يا عم" التي يحب أن يداعب أباه بها. وأرخى أنفاسه، وبصق في كفه اليمنى، ومسحها باليسرى، فأصدرت صوتا كحفيف الورق، وفتح كيس الدخان وبدأ يلف سيجارة وهو يتمتم لاعنا وشاتما.

همست سمية بحنان: راجي أتأكل الآن أم بعد قليل؟

ـ لست جائعا. وتمدد على جنبه الأيمن، وقد توسد كفيه المنبسطتين فوق بعضهما، واستسلم للنوم أمام دفء الموقد وهو يسعل سعلة مكتومة، بسبب ما تبقى من السيجارة عند حافة فمه. ثم أطفأها ورماها في الموقد، وقال: غطيني في مكاني فأنا متعب جدا.

نهضت سمية كئيبة حزينة وقد اختنقت في حنجرتها غصة، وتناولت الغطاء وفردته فوق راجي، وجلست عند قدميه متكئة على

يدها اليسرى تربت على ظهر راجي الذي اعتراه السعال مرددة:
ـ اسم الله عليك.

أشعل أبو سهيل سيجارته واتكأ على جانبه وراح يخطط بعود ثقاب فوق البساط ويردد:

ـ أربعة أيام من أجل لا شيء. واغرورقت عيناه بالدمع، وأكمل: يعني مزيداً من الصبر ومزيداً من الانتظار، إنه أمر مؤلم. وتف بعصبية لاعناً هذا الحال.

استفاقت الجدة نعمت من غطتها التي اعتادتها منذ وقت طويل، فما تكاد تطرح سؤالاً، أو تبدأ حديثاً حتى تسترسل في غفوتها، لتعيد الكرة ثانية. وهنا أعادت سؤالها: ـ ماذا فعل راجي؟ لماذا هذا الولد يعاندني؟ أسأله فلا يجيب. أكلمه فإما يتركني ويمشي، أو يصمت وينام.

وهز أبو سهيل رأسه ساخراً، ونظر إلى سمية التي تبسمت عندما سمعت حديث الجدة، ونظرت إلى الموقد مجدداً.

التفت أبو سهيل إلى الجدة نعمت، وهي إمرأة مقطوعة لا قريب لها. كانت قد تزوجت، ومات زوجها دون أن تنجب، ورحل أخواها إلى المهجر، ومذ رحلا انقطعا عن الاتصال بها، ما اضطرها اللجوء إلى ابنة أختها أم سهيل لإيوائها. وبعد وفاة أم سهيل تكفلها أبو سهيل وفاء لزوجته، وهم ليجيبها فوجدها قد عادت إلى غفوتها، فردد: ـ خير ما فعلت. والتفت إلى سمية التي كانت تجاهد النعاس الذي ألح عليها، فتهوي برأسها، وتستفيق، فتفتح عينيها، ثم تعاود الكرة من جديد. وقال لها: ـ سمية تسهلي ونامي جيداً.

كل ما فعلته سمية أنها قلبت على جنبها الأيسر، وقد أدارت ظهرها لراجي. شدت الغطاء قليلاً فوقها، واستسلمت للنوم. تمدد أبو سهيل على ظهره، وراح ينظر إلى سقف البيت حيث يتراقص

ضوء القنديل بتراخ وترك لوسواسه العنان: ـ أيعقل أن تمر أربعة أيام دون أن نعرف أي خبر؟ ربما راجي يعرف ولا يريد البوح. سأوقظه وأسأله، ولكن لا، لا، لو أنه يعرف شيئاً لما كتمه عني. ثم إنه تعب، دعه ينام يا رجل، اتركه يرتاح، ولكن كيف لي أن أرتاح من هذا الصراخ المكتوم في صدري؟ لو تحدثت لهم عما في داخلي بصوت مسموع لما توانوا عن لومي وزجري، إذا لا حيلة لي إلا الصمت... لا بل يجب... لا إنها فكرة رديئة... ماذا، ماذا يمكن أن أفعل؟ لن أترك ما يحدث يجري على هواه دون أن أحاول منعه، لو حدث أن... لا مستحيل. أعوذ بالله من هذه الأفكار المرعبة.

ثم هدأ قليلا، واستوى من تمدده رافعاً جذعه باحثاً عن أحد مستيقظ، فالكل نيام. قذف بسيجارته إلى الموقد ونفض رمادها عن صدره ومن فوق الفراش؛ حيث اعتاد عدم نفض سيجارته بل تركها تحترق على هواها. استند على كوعيه ورأسه يتدلى نحو الأسفل وعيناه تحملقان في السقف، وهمس: ـ حسن سأنهض في الصباح وأذهب بنفسي، فالأمر أجدى، وأهون من الصبر والانتظار. واستسلم للنوم.

* * *

استيقظت المدينة على صحو النهار، وشجاعة شمسه، التي راحت تبعثر الغيوم الداكنة والمتبقية منذ ليلة الأمس الماطرة، وخرجت الفئران من جحورها بحثا عن الطعام، وعن قليل من المرح، وتصاعد البخار من سطح الأرض، ورافقت حركة الناس حركة الهواء القارس، رغم دفء هذا النهار. وبدا المارة كأنهم يرقصون البالية أثناء تخطيهم برك الماء المتجمعة في الشوارع المتوحلة هنا وهناك، وخرج بعض الأطفال لاختلاس فرصة اللعب خارج البيوت، ضاربين عرض الحائط تحذيرات الأهل. وتكور بعض المسنين عند المصطبات المصطفة على جانب الشارع، بمحاذاة بعض الدور، حيث راحوا ينعمون بالدفء الطبيعي النادر في شتاء هذه المدينة، وهم ينمون، وينقبون في ركام ذكرياتهم عن نوادر الماضي، فلا يسلم من شرهم مار ولا مارة، ما دام للشتاء ميزة التآلف أكثر من غيره من الفصول، لما يحمل من ثقل مهدد. وجلس بعض النسوة عند مداخل بيوتهن المطلة على الشوارع، يزاولن أعمالا عديدة: فهذه تحيك، وتلك تفتش في رأس طفلها عن القمل والصيبان، فلكم مات في هذه المدينة أطفال بسبب جهل طرق استعمال السم المكافح لهذه المخلوقات، وأخرى تعد ما تيسر من طعام، وأخرى جلست تكشف عن ساقيها اللتين وضعت بينهما "طشتا" تغسل. وخرج الباعة منتشرين، وفتحت محلات التجارة الكبرى أبوابها التي ابتلعت نصيب دكاكين الحي الشعبية الصغيرة، تاركة لها بيع السجائر، والسكاكر، والشاي، والمطاط، والصابون، والكبريت، دينا إلى أجل مجهول، وتحركت البسطات السيارة، وراحت تتوغل في الأزقة بحثا عن ما يسد الجوع.

جلس أبو رباح كبقجة الثياب إلى جانب أبي جبران، عند زاوية دكان خليل المنشغل بترتيب رفوفها الخالية إلا من بعض ما لا ينفع. وزهر الطاولة يرتطم بحافاتها، ولا ارادة له في تسجيل الرقم الذي تشتهيه رغبات اللاعبين، وعلا صوت أبي رباح ممازحا:

ـ هذا دشش، وهيك بكون زربتك بالحمام وقطعت المي عنك.

فيثور أبو جبران مهددا بترك اللعب إن لم يكف أبو رباح عن التنقير والإهانة، فيضحك الخصم مرددا:

ـ طيب يا سيدي بسنا التوبة، إلعب.

ويرمي أبو جبران زهره وتكون النتيجة (دو ويك)، فيظهر عليه الانزعاج ويلعن حظه لهذا النهار، فيقهقه أبو رباح مرددا:

ـ رح تموت قهر، وإن شاء الله اليوم، كي نتمكن من دفنك.

ويرمي زهره فتكون النتيجة "درجي"، فيغتاظ أبو جبران ويقول:

ـ ألا يكفي أني ابن سبعة؟ حتى حظي بالزهر زفت.

وفجأة يتعالى على مسافة منهما صياح، فيلتفت الجميع فيرون حشدا من الناس، وقد تحلقوا وراحت تزداد الحركة الانفعالية، فيترك اللاعبان مكانهما ويسرعان إلى مكان الحشد، ويحاول أبو جبران زج نفسه لاختراق المحتشدين دافعا بكوعه هذا ومزيحا بكتفه ذاك، وقد أخذ يتطاول برأسه ليرى ما يحدث، فيرى عثمان ممددا على الأرض، وقد جحظت عيناه، وأزبد فمه بكثرة، وراح يصدر شخيرا يوحي بمقدار الضيق الذي يعانيه.

وأخذ أبو جبران يبعد الناس من حوله وهو يصيح:

ـ ابتعدوا، افسحوا، دعوه يتمكن من التنفس.

فتراجع الناس، وتفرقوا كل إلى عمله، فقد اعتادوا أن يروا عثمان وقد وقع أرضا، ليغيب عن وعيه لساعة أو أكثر أو أقل، ثم يستفيق متعبا وقد خارت قواه، فينهض ويمشي باتجاه بيته القديم حيث يعيش وحيدا بعد موت أمه ونقل أبيه إلى مأوى العجزة، وانقطاعه عن أي اتصال بولده الذي نما جسده أكثر من عقله، دون

أن يؤذي أحدا أثناء تجواله في الأزقة والشوارع، ليلا، نهارا، وفي كل فصل، حافي القدمين، معتمرا قبعة صوفية رثة، ومعطفا تنتشر رائحته النتنة عدة أمتار، واضعا يديه في جيبي سرواله العسكري.

جلس أبو رباح يرتل القرآن فوق رأسه وإلى جانبه أبو جبران صامتا متأثرا بهذا المشهد المؤلم، وهو يفك أزرار القميص عن صدره، ليسهل عملية تنفسه، فيما أبو خليل يسد أنفه بيده، ويشير باليد الأخرى إلى تراكم الأوساخ حول عنقه، الذي لم يمر به الماء، وربما منذ وفاة والدته، حين كان طفلا.

بدأ عثمان يستعيد وعيه تدريجيا، فأخذت أنفاسه تهدأ، وراحت عيناه تتحركان، ولم يمض وقت، حتى عاد إلى طبيعته. تمتم ببضع كلمات، خرجت من فمه مجرد أصوات لا تعبر سوى عن حزن يأتي من أصقاع روحه التي تعاني عزلة دهرية، فأسرع إليه أبو رباح بكوب ماء، وربت على ظهره، فترقرقت الدموع في عيني عثمان التي اختصرتا أسمى ملامح الامتنان.

كان أبو رباح - رغم شدة صلابة بنيته جراء العمل في مقلع - واضح الانفعالات، صادق الرأفة بالمستضعفين. نهض عثمان من مبركه، ووقف على قدميه، وراح يتأتىء مدندنا لحن أغنية فيروز "يا مركب الريح"، ومضى في صخب الشارع. سار دابا الرأفة في قلوب البعض، والخوف في صدور الصغار، والسخرية في عقول الآخرين، وأخذ يبتعد عن مكان سقوطه متجها نحو الطريق المؤدية إلى بيت أبي سهيل.

منزل أبي سهيل عند الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة، مدفون بين تطاول شجر السرو، على انحدار سفح جبل "الدربونة"، ورغم قدم عهد هذا البيت المبني من الحجارة والطين، إلا أنه كان متجدد الحنان، والحب للحياة. لاح المنزل لعثمان من بعيد، وكأنه هجر منذ زمن بعيد، فتوقف قليلا مفكرا بالعدول عن فكرة قصده،

لكن فضول الإنسان الفطري دفعه إلى المضي في طريقه. كان الباب الخشبي للحديقة ـ المختل وقوفه بفعل الرياح وانجراف التربة والوقت ـ قد انطمرت إحدى زواياه بالوحول، أما كومة الحطب المستخدم لنار الشتاء، فلم يبق منها إلا ما يكفي لأيام قليلة، فيما تمزقت قطعة النايلون المثبتة فوق إطار النافذة لمنع تسرب المياه، وصارت مصدر ضجيج كلما حركها الهواء، إلا أن الضجيج الذي كانت تعج به نفوس سكان الدار، كان أقوى، وأشد تأثيرا.

كل ما وقعت عليه عين عثمان دفعه إلى تساؤلات، قد لا يدركها العاقل، إلا أنه بدا غير مبال بما رآه، فعبر إلى الحديقة، التي تكاد تشبه "مراح الماعز" فهي مجرد فسحة، سيجت بالحجارة، فوقها الأشواك اليابسة وأغصان الزعرور الإبرية.

تجول فيها، وحاول استراق النظر من النافذة، ثم اقترب من الباب، وهم بقرعه، لكنه فتح فجأة، وأطلت سمية التي تلعثم لسانها، واضطربت أعصابها، فلم تكن تتوقع وجود عثمان، فصفعت الباب بقوة كاتمة صيحة الرعب في صدرها، وكيف لا تخاف؟ وقد سمعت من الناس الكثير عن هذا الرجل، الذي وصل تصويره عند البعض إلى أنه مصدر كل رعب وشر وجنون وعدوانية. وفهم عثمان من خلال ما حدث، ما أصاب سمية. فأدار ظهره، وخطا في طريق العودة، إلا أن سمية التي شقت الباب، لتسترق النظر إليه، خالجها شعور بالندم والفضول للتعرف عليه، لذا نادته:

ـ عثمان. ثم فتحت الباب ورفعت الصوت: عثمان.

توقف الجسد الضخم بمعطفه الملامس كاحلي قدميه الحافيتين اللتين ضاعت ملامحهما الطبيعية لكثرة السير فوق أي شيء دون مبالاة، أحادًا كان أو ناعمًا، حارًا أو باردًا، صلبًا أو ليناً، استدار ببطء ونظر إلى سمية التي ابتسمت له. وطالما قطع مسافات طويلة دون أن يلمح مثل هذه الابتسامة. عاد وتوقف أمامها يتأمل وجهها حتى

تملكته عفة الحياء، فاستدار وجلس على حافة معبرا بإشارة من يده عن جوعه، فدخلت لتجلب له ما يؤكل، ولمحته الجدة نعمت من مجلسها في الداخل أمام الموقد، فسألت سمية: ـ لماذا يجلس راجي في الخارج؟

ـ إنه ليس راجي، إنه عثمان.

ـ تعبان؟ لماذا لا يرتاح هنا؟ وراحت تنادي راجي.

فرفعت سمية صوتها مكررة أنه عثمان، حتى كفت الجدة عن الكلام. وعادت لتقدم له الطعام وظلت تراقبه وهو يأكل.

وضع عثمان اللقمة في فمه وراح يتأتئ سائلا: ـ أ... ب... سه... سه... فسارعت لتخفف عنه عناء المحاولة وردت: أبو سهيل؟ فهز رأسه بالإيجاب، فتنهدت ودمعت عيناها، وراحت تمسحها بطرف ثوبها الأسود. فتوقف عثمان عن الطعام، وأخرج لسانه من فمه مبتسما ابتسامة حزينة تعاطفاً معها، إلا أنها أكملت مسح دموعها، وقالت:

ـ لا بأس عليك كل.

لكنه أومأ لا. ففهمت أنه يريد تفسيراً لدموعها، تنفست بعمق، وسرحت بصرها بين خيالات وظلال شجر السرو في السهل البسيط الممتد أمام منزل أبي سهيل، وقالت بشرود:

ـ لا تخف إنه بخير، لكنه بعد أن خرج راجي في المرة الماضية، ولمدة أربعة أيام وعاد بلا شيء، قرر الذهاب معه ليبحث بنفسه بعد أن مل الانتظار والصبر، وقد مضى على خروجهما خمسة أيام دون أي خبر عن الثلاثة.

كانت سمية بحاجة إلى مثل هذا اللقاء مع عثمان، فهو الوحيد الذي يسمع دون أن يبوح، لأنه لا يستطيع الكلام.

ولا شعوريا، راحت تبثه تداعياتها قائلة:

ـ أترى يا عثمان كم أنا تعيسة؟ بعد أن بلغت العاشرة من عمري، رماني والدي للعمل كخادمة عند أحد الأثرياء، وكنت أقوم بما يعجز عنه عشرة عاملين، وكان والدي يحضر كل آخر شهر، ليتسلم الراتب من السيد، دون أن ينسى التوصيات بأن أكون خادمة مطيعة لبقة تحفظ اسم أبيها من الشتم والسب، وتحملت وصبرت حتى تعرفت براجي، الذي أحببته، وتزوجته، وحمدت الله أني سأرتاح بعد طول عناء، لكن حظي كان كوعاء مثقوب القعر لا يحفظ ما يحوي، فهذا راجي ومنذ أن تزوجنا قبل خمسة أشهر، يخرج ليغيب عدة أيام، ويعود ليخبرنا "أنه لم يجد شيئا"، ثم يعاود البحث من جديد، وكلما عاد أحاول أن أخبره أني حامل، إلا أن الوقت لا يسمح لي، فهو يحضر متأخرا ومتعبا وينام بملابسه، وأستيقظ في الصباح لأجده قد تزود لعدة أيام أخرى، وخرج دون أن يلقي السلام. ليتني مت قبل أن تلدني أمي يا عثمان.

ونظرت إليه لتجده يواصل التهام الطعام. ويقطع نداء الجدة عليها خلوتها، فتجيبها واعدة بالقدوم ثم تواصل حديثها:

ـ ألست كباقي الزوجات؟ لماذا كتب علي كل هذا الشقاء؟ لماذا؟ وفي كل مرة أقول ربما كانت الأخيرة، ويخيب ظني، بالأمس فكرت أن أترك المنزل وأرحل، ولكن آلمني حال الجدة نعمت، فهي مثلي مقطوعة من شجرة. أتصدق؟ أمس رغم كل المطر الذي انهمر إلا أني ذهبت لزيارة قبري والدي حين شعرت بشوق إليهما، وبكيت هناك، وأحسست أني أحسدهما على راحتهما، شكوت لهما أخي سمير الذي رحل إلى المدينة، ولم يزرني منذ حوالي سنة، بعد أن حضر عندما كان بحاجة إلى المال، وهددني حينها إذا لم أعطه المال فسيقتل نفسه، لذا سرقت له من جيب سترة السيد الذي كنت أعمل عنده مئة ألف ليرة، وأعطيته إياها. تصور لو مات الآخر فمن يبقى لي؟ أعلم أنه لن ينفعني البتة، ولكنني أحتاجه ولو عن بعد

لأحس بحنين الأخت لأخيها. صدّق يا عثمان أني منذ رحل عني وأنا أحلم به من مرة لأخرى، وأستيقظ في الليل حزينة، وأمضي نهاري أذرف الدموع، وأرقب الطريق دون أن يأتي اليوم الذي يفكر فيه بزيارتي، أو حتى بمراسلتي. لدي إحساس أنه بخير لكنها العاصمة بما فيها من نساء ومغريات. لقد زرتها مرات مع السيد وتعرفت إلى حياة الناس فيها. يمضون النهار بجمع المال لينفقوه في الليل على الحسناوات والخمرة. لست أدري لماذا يتناولونها؟ فلقد تذوقتها خلسة ذات يوم، فوجدتها مقرفة.

والتفتت إلى عثمان الذي أكمل طعامه، وراح يحدق بساقيها اللذين بانا من تحت التنورة، وفي عينيه رغبة افتراسها، مما دفعها لقطع الحديث والعودة إلى الداخل. اقتربت من الموقد وأمسكت بالملقط ونكشت الجمار وجمعتها أمام العجوز، وعادت لتجلس أمام الباب، فيما عثمان يغمض عينيه ويفتحهما ظنا منه أنه يثيرها. ودفعها المكر لاستغلاله، فطلبت منه أن يأخذ الفأس ويجمع لها قليلا من الحطب، وتملك عثمان شعور التباهي، كيف لا وهو يملك من القوة ما لا يملكه سواه. حمل الفأس وسار بين الأشجار بخطوات أكثر اتساعا، مخلفا آثار قدميه الحافيتين فوق الوحول كأنها قدما حيوان أسطوري، وراح يتوغل صعودا بين الأشجار على السفح، ملتفتا إلى الخلف، ويبتسم لسمية وفي روحه أمنية أن تتبعه.

لم يكن أمام سمية حل آخر، لذا نهضت تلحق به بعد أن تناولت من الداخل سترة راجي العسكرية اللون، وراحت توزع ذراعيها في كميها، مخبرة الجدة أنها ذاهبة لجمع الحطب، ثم انتعلت الجزمة المطاطية، وأغلقت الباب، وأسرعت تتبع عثمان الذي ضاع شبحه في تنائي المسافة وتكاثف الأشجار تحت أشعة الشمس الشاحبة.

كانت الجزمة تلتصق في الطين أثناء سيرها، فتوشك على السقوط، أو على خلعها، لولا أنها كانت تستند إلى الأشجار المبللة. وبالرغم من ضجيج الألم المثرثر ليل نهار في سريرتها، إلا أنها

بدأت تتنفس بعض الحيوية في طريقها، فالإنسان لا يحتاج في هذه الحياة لأكثر من رفيق.

وبدت لها العصافير من موقعها وكأنها تراقبها بحنان يعوضها عما حرمتها الأيام، وارتعشت روحها للشحرور الذي تقلص جسده فوق غصن تحت أشعة الشمس، وبدا يقاوم النعاس، فتبسمت له وهي ترفع قدمها لتخطو، فتخرج القدم وتبقى الجزمة ملتصقة بالطين، ثم تهوي أرضا، فيجفل الشحرور، وينفر من مرقده، وتحاول استعادة استقامتها وهي تضحك وتمسح الطين عن راحتيها بأوراق وأغصان الأشجار.

بدأت سمية تحدد مكان عثمان من خلال صوت ضربات الفأس، فأخذت تسلك ممرا باتجاهه، حتى بان لها وقد بدأ يسحب جذع شجرة هالها غلظه، ودفعها إلى الاختباء ومراقبة ما يفعله. كان الجذع شجرة كاملة الأغصان والفروع بحيث يعجز عن تحريكها عدة رجال مجتمعين، إلا أن عثمان تأبطها كأنه مصارع ثيران وشدها بكل قوته والعرق يتصبب منه والشجرة تنسل ببطء. وما إن لمح عثمان سمية حتى امتلأ جسده نخوة وفرحا ونشاطا، فغرز قدمه اليسرى في الطين وشد ساقه، وسحب بكل ما يملك من قوة، فجحظت عيناه، وامتقع وجهه، وسمية لا تكاد تستوعب ما تراه، مما دفعها للصراخ: عثمان كفى، كفى. وازدادت حماسة عثمان فراح يعاندها تحببا وأزبد فمه، وسقطت قبعته الصوفية في الوحل، لكنه واصل السحب مصرا، عاضًا على لسانه كاظمًا إرهاقه، وأحست سمية أن لحظة الانهيار توشك فصاحت معنفة عثمان: كفى، كفى يا عثمان. وأجهشت بالبكاء. فلاحظ عثمان دموعها، وقد سمع نحيبها، فتوقف. وكره أن يراها حزينة تبكي. وأنزل الجذع بصعوبة ثم جلس فوقه وفحيح لهاثه كأنه محرك قطار عند التوقف، وراح يهدأ شيئاً فشيئاً، ثم رفع رأسه المتهاوي بين كتفيه ونظر إليها وهي تنزلق من استنادها إلى جذع إحدى الأشجار، وهم بالنهوض باتجاهها حين

حاولت أن تمسح دموعها بيدها اليسرى وأنفها بردنها الأيمن مبتسمة له، فسكن في مكانه وقد بدا لها ولأول مرة حزينا يحمل في ملامحه مئات القصص المؤلمة التي عاشها في كل يوم. وتملكها فضول تأمل وجهه، فلاحظت أن لعينيه الجاحظتين بريقا ليس لباقي العيون، وكادت تضحك حين تأملت أنفه الأفطس المنتفخ وسط وجهه كأنه عجز أتان لحظة تبولها. وهزت رأسها عند تأملها لحيته التي طالت لأنها لا تحلق إلا إذا أشفق عليه أحدهم.

لا شي جميل في وجه عثمان، هذا ما توصلت إليه، لكنه يشع حنانا ورحمة جعلاها تطيل قراءته. وهو صامت صمت حبيب عرف مقامه فتدلل، وأحس بالرغبة تسري في عروقه، لكنه حافظ على هدوئه.

قطعت سمية دقائق الصمت قائلة:

- سأعلمك كيف نستطيع نقلها.

وتقدمت من الجذع بالفأس وراحت تضرب محدثة:

- نقطع الأغصان كلها، فيبقى الجذع، وهكذا يسهل نقلها، هيا أنت تقطع وأنا أجمع ما تخلفه وراءك.

واستمرت بضرب الفأس دون أن تتنبه لعثمان الذي وقف وراءها يشتهي تكور عجزها أثناء انحنائها، واللعاب يسيل من فمه، حتى انتفضت رعبا حين أحست بيده تلامسها، فنفرت منه بعيدا مرعوبة تحاول التقاط أنفاسها شاهرة الفأس في وجهه، فتقدم منها وتناول الفأس وراح ينفذ ما طلبته، سارقا بين الفينة والأخرى نظرة إليها.

"إذا لابد من الحيطة والحذر" استنتجت سمية ذلك أثناء صراعها النفسي مع عدة تساؤلات حول ما حصل فتوصلت إلى نتيجة واحدة مفادها أنه مخلوق بائس، حرم من أبسط ما تنعم به الحيوانات.

تركته يعمل وانصرفت تتجول بين الأشجار قليلا، ثم عادت تجمع الحطب الذي خلفه قطعا. ولفت انتباهها اختفاء صوت الفأس فنظرت إلى ناحيته، فوجدته يجلس مطرقا، وظنت أنه ربما نادم على فعلته، ولكم سمعت من الناس عن حفظه الجميل، وشعوره بالخجل أمام الإحسان. لكنها سمعته ينتحب فاقتربت منه محاولة تهدئته، إلا أنه حشر رأسه بين ذراعيه المتشابكين فوق ركبتيه، غير راغب بالنظر إليها، فجلست إلى جانبه تربت على ظهره، وتسأله: ألن تساعدني؟ فنهض من مجلسه يتم ما بدأ.

جمعت سمية كومة كبيرة من الحطب، وحاولت أن تنهض بها لكنها فشلت، فتقدم عثمان ليضع ما جمعته فوق ما جمعه ورفعها وسار بها بين الأشجار. لكنه استدار حين مس رأسه الحاسر غصن، وأخذ يتمتم لسمية أنه نسي القبعة، فلوحت له بها من بعيد، فأكمل سيره غير عابئ بالوحول التي تتراكم حول قدميه.

سارت سمية وراءه وهي تنزع الطين الذي علق بالقبعة التي صارت رطبة، وقد تغلغل الماء الموحل في خيوطها الصوفية، فقررت منحه سواها من قبعات أبي سهيل.

مر الوقت بسرعة ومن غير أن تشعر بمروره، لأنها كانت منشغلة بالتجول في خراب صراخها الداخلي، وقد سحقتها الحياة أكثر مما توقعت، فهي لم تتعلم ولم تنعم بالراحة يوما، سواء في عزوبيتها أو خلال زواجها. وكلما نظرت إلى المرآة تحسرت على جمالها الذي سلب كل الفرص، لكنها أدمنت لغة الصمت ما دام لا أحد يفهمها أو يهتم بها. ولكم عذبتها حدة ذكائها وفراستها في قراءة الفنجان لصديقاتها، واكتشاف أسرارهن من خلال ملامح الوجوه

دون أن يعدل هذا حظها التعس، لذا بالغت في تثمين تصرفات عثمان الذي رغم كل مابه من نواقص إلا أنه أرق الجميع في معاملتها. وتبتسم هامسة لنفسها: لا بد أني جننت حتى فكرت بعثمان.

عاد عثمان ليحمل ما تبقى من الحطب، وقد ازدادت برودة الطقس بعد أن آوت الشمس إلى مغيبها، بعد يوم طويل قضته في مطاردة الغيوم. وراح الظلام يتكثف مكثفا معه الحزن في صدر سمية التي وقفت تراقب عثمان وهو يمد الحبل ويضع الحطب فوقه ثم يحزمه دون أن يخلف وراءه.

ركع أمام حزمة الحطب وشد الحبل، فيما دفعتها سمية إلى فوق ظهره، وطلبت منه النهوض بها، وما أن استقامت رجلاه حت نفضها إلى أعلى، لتستقر الحزمة فوق متنه عند الكتفين. وسار خلف سمية التي أدركت بعد مسافة أن حمل عثمان ثقيل، فقد اشتد لهاثه وتثاقلت خطاه، وما عاد أمامها إلا حوائياتها لتحمله على السير بما حمل، فنظرت إليه وغمزته، وخطت أمامه مفتعلة حراكات في ردفيها، فأحسنت مخاطبة ضعفه، فراح يغدق على حمله بكل ما أوتي من همة وعزيمة، ويسابق التعب للاحتكاك بها أثناء انحناءها أمامه لتحمل بعض قطع الحطب.

المسافة المتبقية إلى بيت أبي سهيل لا زالت طويلة، وعثمان تكاد تنفد قواه وعندها المصيبة، وقد يسقط الثلج ليلا ولا حطب في المنزل، وما العمل لو تركها عثمان ورحل؟ إذا لا حل سوى المبالغة في إغراء عثمان، لذا راحت تتأخر في سيرها حتى شعرت أن عثمان يلمسها، فتضاحكت بغنج ورمقته بطرف عينها كاتمة قسوة الحذر فيها، فأحست به وكأنه يريد أن يطوي المسافة المتبقية، ليتخلص من حمله وينال نصيبه منها. فواصلت خطتها وراحت تدانيه مرة وتباعده أخرى حتى صارا على مقربة من الدار، حيث

بانت الجدة نعمت تتكوم ككيس فحم في مدخل المنزل، ترقب عودة سمية.

بدأ يهدأ روع سمية، ولم يتنبه عثمان الذي ألصق بصره على مؤخرة سمية لوجود الجدة. ومشيا خطوات وإذ بهما في باحة الدار، استدار عثمان وترك الحطب يسقط، ثم سقط هو فوقه، واللهاث يبحث عن مساحة أكبر في رئتيه، أسند رأسه على كومة الحطب ومد رجليه أمامه وقد باعد بين ساقيه، فيما دخلت سمية تجلب له الماء والطعام.

بدأت ثرثرة الجدة تنسجم مع لهاث عثمان، وراحت تسأله عن أبي سهيل حيناً وعن راجي أخرى، وتحدثه عن ميراثها الذي لن تمنح منه سمية شيئا، لأنها لا تستحقه. وعثمان يكاد لا يسمع ولا يأبه إلا بما كان في مخيلته منذ قليل. عادت سمية ساخرة عند سماعها تهديدات العجوز نعمت، فوضعت الطعام أمام عثمان متمتمة: "عثمان يملك أكثر مما تملكين".

تناول عثمان الطعام من يد سمية وراح يلتهمه، وقد تراجعت فيه رغباته الغريزية أمام حدة الجوع، ثم شرب كوب الماء كله، ومسح بردنيه فمه. وعاد ليراقب سمية المحشورة في قرفصائها إلى جانب الجدة نعمت، فأعطته إشارة مفادها طلب عودته في الغد، لذا نهض وسلك طريق العودة باتجاه المدينة، حيث غرفته المليئة بكومة من الحاجيات والملابس، التي تفوح منها الروائح النتنة، وإلى جانبها قطع من اللحم الفاسد، التي تصدق عليه بها أحدهم أو أنه اقتنصها من فم قط ومسحها فعادت نظيفة كما يظن.

نهضت سمية تساعد الجدة في العودة إلى الفراش قرب الموقد، ثم رجعت تحضر الحطب وتشعله، وأوصدت الباب بالرتاج، ثم جلست تشعل النار وتنفخ فيها، وظلت تغالب عسيس الحطب الرطب والدخان المتصاعد من الموقد، فتسعل وتنفخ وتمسح

دموعها، وتلعن وتسب النار والجدة نعمت التي بالرغم من كثافة الدخان لم تختنق وتمت ولم تكف عن الثرثرة.

جلست سمية وقد انتفخ عالمها الجواني كبالون، نفخ أكثر مما يتسع، واضعة قبضتها في فمها تجنبا للانفجار، وراحت تستعيد ما حصل معها. فيما بدأت الجدة رحلتها بين الغفوة والهذيان. وسمية تجري مقارنة بين ما لوجهها وما لوجه عثمان من قواسم مشتركة في الحرمان والبؤس، ثم راحت تشرد مع ألوان اللهب المتصاعد من نار الموقد، وقد عاودتها تلك الرغبة المزمنة في السفر، ثم تبسمت لهذيان الجدة التي كانت تردد من غفوتها:

- لم أعطيت ملابسي لعثمان؟

وهزت رأسها ساخرة حين هددتها بمروان. ومروان هذا هو ابن أخت نعمت، قتل منذ زمن بعيد، عندما انهار عليه جبل الرمل في احدى المرامل، وطمره، إلى أن وصل أهل القرية القادمين سيرا على الأقدام، يحملون المعاول والرفوش.

وظلوا يعملون من غروب ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالي، دون أن يعثروا على جثته، مما دفعهم إلى الاستعانة بجرافة للجيش، استقدموها من مركز يبعد عن مكان الحادث حوالي خمسة عشر كلم، وعملت الجرافة عدة ساعات، حتى وجدت جثته، التي اصطبغت باللون الأزرق الداكن، وامتقع وجهه بسبب الاختناق. وضعوا الجثة في كف الجرافة، وساروا خلفها إلى قطعة الأرض التي ورثها عن والده شرقي القرية، حيث بنى فيها بيتا لم يكمله، ودفنوه تحت شجرة اللوز التي طالما تمدد في ظلها.

أما أمه فقد جنت وظلت فترة تلازم قبر وحيدها الذي عرف يتم الأب بعد ولادته بشهرين، وكلما تعرت شجرة اللوز علقت في أغصانها خرقا ممزقة من ثيابه أملا منها بأن ترد عنه المطر في

الشتاء، حتى نهشها حزنها عليه وكوتها حرقتها على فراقه، فماتت، ودفنت بجانب قبره علها تستريح.

وعادت إلى ذاكرة نعمت أختها، وولدها مروان فراحت تسرد القصص التي تتراء لها حتى توقف شريط الأحداث عند الذي حصل لمروان فراحت تجهش البكاء وتنتحب، مما هال سمية وراحت تربت عليها وتهدئها حتى ارتاحت، فطلبت منها البقاء مستيقظة لتتناولا طعام العشاء معا. وبعدها أخلدتا للنوم في فراش واحد.

للشتاء قلق السجون، ووطأة الحروب المفجعة في هذه المنطقة. اشتدت ظلمة الساعات الأولى من تلك الليلة وراح البرد القارس يتسلل إلى ما تحت أغطية النوم، وأخذ النوّم يتكورون، بحثا عن الدفء الذي طارده سقوط الثلج ليلتها إلى حيث لا يمكن أن يدركه البؤساء.

أحست سمية أن أطرافها تكاد تتجمد، فحاولت حشر نفسها داخل جسدها دون جدوى. ففتحت عينيها تبحث عن الغطاء الذي سحبته نعمت عنها، فاكتشفت أن النور قد عم المكان، وخالت في بداية الأمر أنها تحلم، لكنها فركت عينيها واستوت من مجلسها ونظرت إلى النافذة، فإذا بالثلج يغطي كل شيء، ورقع الثلج المتساقط بغزارة كأنها قطن تقرضه فئران السماء. أسرعت تشعل الموقد، وبعد لحظات راحت الغرفة تنعم بالدفء، وبدأت الجدة تتمدد من تكورها في الفراش، فيما ظلت هي جالسة قبالة الموقد وقد حملت الغطاء فوق كتفيها، وقد فارقها النوم أثناء مراقبتها النار التي طالما أحبت اشتعالها، لما توفره لها من مساحات تتجاوز حدود المكان والزمان نحو خيال مطلق.

كانت حيث لم تعد تتذكر حين صعقت طمأنينتها طرقات فوق الباب، كانت ثلاث طرقات عنيفة زاد عنفها سكون الليل وصمت المكان. انتفضت كل أجزائها وتسمر وجهها ونظرها نحو الباب عندما عاد الطرق من جديد وأحست برغبة الموت تجنبا لشدة الرعب، وتمنت الصراخ لكن حنجرتها خذلتها، راحت ترتجف، أخذت تزحف للوراء ممسكة بالملقط، وبدأت توقظ الجدة نعمت وتنكزها بالملقط دون أن تحيد ببصرها لحظة عن الباب والرتاج الذي بدأ يهتز كلما ازداد الطرق، وراحت تبالغ في وخز الجدة حتى أيقظتها. نظرت الجدة إلى سمية التي راحت تشير بإصبعها نحو الباب، وعاد صوت الطرق مجددا، وتنبهت الجدة لذلك وأدركت رعب سمية التي أخذت تتساءل تراه من يكون في هذا الوقت المتأخر؟ في هذا الليل المثلج؟ وظلت سمية متسمرة.

بينما راحت الجدة تزحف نحو عصاها المسندة قرب الجدار، تناولتها وزحفت نحو الباب حتى أصبحت أمامه، فاستدارت وأسندته ظهرها، وحشرت طرف العصاة في بطنها وثبتت الطرف الآخر في حفرة في أرض الغرفة، لتمنع فتح الباب بالقوة، وصاحت: من الطارق؟ وانتظرت، فكان الجواب عواء ذئاب قريبة من المنزل، تبسمت بداية، ظنا منها أن كل ما في الأمر مجرد حيوانات ليالي الشتاء، إلى أن عاد الطرق على الباب مجددا، فتملكها الرعب، وارتعدت فرائصها هلعا. نظرت إلى سمية التي اختفى صوتها، وكاد أن يغمى عليها، لذلك استجمت نعمت شجاعتها وقالت: لن أفتح لك قبل أن أعرف من أنت؟ وصمتت لتسمع اقتراب عواء الذئاب. وتداخله المنبعث من فوضوية الاستفزاز الغريزي عند رغبة الافتراس، فبدا الأمر كأنه سمفونية رعب حية في دار أوبرا بؤس هؤلاء، وراح العواء يتداخل ويتدانى، وإلحاح الطارق وقرعه الباب بعنف يسابق لهاثه وتقطع أنفاسه التي لفتت انتباه سمية، فكأنها

تخيلت ما يحصل في الخارج، لكن هذا الكابوس الذي نفرت منه حتى غفوة الجدة المعتادة لا يسمح بالتحليل خاصة عندما بدأت عملية زحزحة الباب بالقوة، وظهر الضعف والوهن على الجدة التي كانت تهتز أمام صدم الباب كقصبة يابسة لحظة نفور الطير عنها. وأخذت نعمت تعض على أسنانها، وتشد على العصاة، مما اضطر سمية الاقتراب منها وراحت تسند كتفيها إلى الباب مقلدة صوت أبي سهيل:

- من الطارق يا نعمت؟

فتجيب الجدة: إنه أبكم لا يجيب.

وتعيد الكرة جاهدة في تقليد صوت عمها:

- من الطارق؟ من الطارق؟ ثم تسعل كسعاله.

هدأ الأمر قليلا، فظنت أنها نجحت في خطتها مما دفعها على المبالغة في التقليد. ولا تدري كيف اخترق النافذة ظل جسد ما إلى داخل الغرفة، ولمحته على الحائط، فخشيت النظر صوب النافذة في البدء، ولا تعلم ما الذي دفعها للالتفات بسرعة نحوها، فرأت رأسا ملثما، لا يبان منه إلا عينان تعبران عن شراسة الشر في الخارج، وكانت يد صاحب الرأس الملثم تنقر زجاج النافذة، وتهز حديد الحماية بهدف اقتلاعه.

نظرت إلى الجدة التي رأت ما يجري وتملكها الرعب، فشعرت برغبة التقيء، وأحست أن في معدتها تقلصات تدفعها إلى الشعور بالاسهال، ودارت في رأسها تساؤلات: ألا يكفي أيها المرعب ما زرعت فينا من رعب ووساوس وقلق وجنوح الخيال؟ ألا يكفينا

رعب التعب اليومي جراء الانتظار ومجادلة الصبر؟ ألا يكفي رعب الليل وثقل الثلج والبرد؟ ألا يكفي رعب المجهول القادم في يوميات كل منا؟ ألا يكفي كل هذا حتى أتيتنا لترعبنا ملثما بأشد البشاعة والتخويف؟ وقفز إلى ذهنها حقيقة اهتزاز النافذة، وماذا لو تمكن من خلعها والدخول عبرها؟ ولضرورة محاولاتها، لذا غامرت دون تفكير بالوسيلة أو بالنتائج، ونهضت إلى الموقد وتناولت منه قطعة حطب مشتعلة، ورشتها ببعض الكاز فوق الموقد، وتقدمت بها من النافذة تقدم اليائس المفتقر للحيلة، تصيح مرعوبة: إن طرقت ثانية سأحرقك وأحرق المكان، هيا انصرف أيها الوغد، ارحل، سأحرقك وأحرق كل شيء. وكشرت عن أسنانها، وانتشر شعرها فوق وجهها جراء تحريكها رأسها بعنف، وتقدمت بالنار التي تحملها نحو النافذة، فكأنها تريد تحطيم الزجاج لتهاجم من في الخارج. فظهرت عليه الخشية حين تراجع عن النافذة.

فزادت من حدة صراخها، وصارت تبالغ في تقبيح ملامح غضبها لتظهر بمظهر الراغب في الإجرام، فواصل تراجعه، واستدار ليحدد مكان الذئاب التي دنا صوتها، فوجدها تحيط بالمكان مزمجرة تلتمع الشهوة في عينيها ويسيل اللعاب عن جانبي فكيها.

وعاد ليقترب من النافذة، راجيا أن يفتح له، مبديا خوفه بعد أن أيقن أنه إن لم يدخل سيلاقي حتفه لا محالة. لكن سمية التي فقدت السيطرة، تلامس رعبها مع جنون الموقف، ظلت تصرخ:

- إلى الجحيم، إلى الجحيم، إرحل هيا.

وراح يشطر نفسه بين الاستجداء وطلب النجاة وبين المحاولات الأخيرة للحيطة والحذر، والذئاب تقترب منه شبرا فشبرا، فأيقن

بدنو الخطر لذا أسند ظهره إلى الجدار وراح يزحف بجانبه، مراقبا الذئاب التي تستعد لوثبتها الأخيرة نحوه، واستمر يختلس الحركة، حتى لامس الزاوية وانزلق إلى الجهة الثانية واختفى. فعوت الذئاب وزمجرت، جرت خلفه تطارده وراح ينأى عن المنزل. راقبت سمية اختفاءه لبعض الوقت، ومع ابتعاد العواء عن المنزل، عادت لترمي قطعة الحطب في النار، ونظرت إلى الجدة نعمت، وأجهشت بالبكاء، وارتمت في حضنها، فضمتها العجوز بذراعيها باكية وراحت تداعب شعرها وتربت على ظهرها.

عادت سمية لتحمد الله؛ لأن الجدة كانت هذه المرة في كامل وعيها. ثم ساعدتها على الإيواء إلى فراشها، وتأكدت من احكام رتاج الباب، وعززته بعصا الجدة، ثم عادت إلى الفراش، والوساوس تشاطر التعب والحزن تشتيت طمأنينتها. وبعد أن أرهقها التفكير بما حدث، عادت تستسلم للنوم مرهفة السمع خشية عودة الملثم.

* * *

تعويذة اللسان الصمت، وتعويذة الصمت قول الحقيقة، وتعويذة الغريزة فقدان الصبر، وتعويذة الصبر العفة، وتعويذة العفة نقاء البصيرة.

لماذا يفقد المرء دفأه أحيانا، وإلى الأبد؟ هذا ما علمته لكنة الفصول لأمين أثناء تساؤلاته في أيام الدراسة. ومثلما يسيطر على بقاع في هذا الكوكب فصلان فقط، وزمانان كشتاء بليل، وصيف بنهار، أقر أمين أنه ربما كان حاله حال تلك البقاع القطبية.

يفصل دار أمين عن دار عثمان شارع واحد فقط، لكن لدار أمين موقعها الأعلى المطل على الكثير مما يحيطه من المنازل. وكان له قبل الإصابة فضاء المتفائلين الحالمين، الطامحين، بالرغم من أنه وجد نفسه وحيدا في هذه الدنيا. فعندما كان في العاشرة من عمره، أثناء الحرب التي رضع حزنها من ثدي أمه، اقتلعت الحرب أبويه ذات ليلة بشظية تتطايرت من قذيفة سقطت على الحي. عندها أدرك معنى الموت، وتكلفته، وما يترتب عليه. وكفلته الجارة حمدية التي كانت على علاقة بأمه منذ أيام ما قبل الزواج، فقد كانت أم أمين شبه مقطوعة بعد موت والديها، لأنها كانت وحيدتهما، وكذلك أمين الذي لم يحظى بصلة الرحم الذي استأصله الأطباء لأمه بعد أن ظهر فيه السرطان.

كان من حسن حظ أمين أنه ورث عن والديه أملاكا لا بأس بها، فتوجهت حمدية بعد أن هدأت النفوس إلى بيت المختار وطلبت منه أن يدير أملاك أمين بما يخدم مستقبله، وتوكل المختار هذه المهمة بأمانة، وصار يؤجرها لمزارع، ويدخر ما يتقاضاه لأمين ضمن سجلات بعد أن يقدم لحمدية ما يحتاجه الصبي من مصاريف.

وراحت تظهر على الصغير ملامح الذكاء الذي ورثه عن والدته، والوسامة التي ظهرت في تقاطيع وجهه الذي كان لأبيه. وراحت حمدية توفر لهذا اليتيم الجديد كل ما يجنبه الشعور بالحزن

والوحدة، حتى بادر لمناداتها "أمي" وكانت تحس كلما سمعت هذه الكلمة بما لم تحسه عند سماعها من أبنائه . وصار كلما عاد من المدرسة يرتمي في حضنها دون أية منافسة من أصحاب هذا الحضن الأصليين (زيد، هشام، نوال) أولاد حمدية، فيثورون عليه، ويثور عليهم، ويشكو كلا الطرفين خصمه للأم، ويكون الحق دائما إلى جانب أمين.

لم يكن أمين يفقه من الموت أكثر من أن والديه ماتا، إلى حين عاد عصر يوم من مدرسته الثانوية، ليجد دار حمدية يحتشد فيها جمع غفير من الناس، ودفعته حركتهم الضوضائية لحث قدميه على الإسراع كي يعرف أسباب تجمعهم. عندما وصل، أقبلت عليه نوال باكية، شاكية بوداعة الطفولة: أمين لقد ماتت أمي، ماتت يا أمين. وقف أمين مندهشا غير مستوعب ما سمعه من نوال، ففي الصباح ودعته وقبلته، وضحكت له وأوصته الانتباه لشرح المدرسين. وراح يدفع الناس ذات اليمين، وذات اليسار، ويندفع متقدما بقوة نحو باحة الدار، التي يتوسطها عامود خشب يلتف حوله الناس. تقدم بهدوء وقد تسمرت تقاسيم وجهه وازداد اتساع فتحتي عينيه، وفي مسمعه خليط البكاء والعويل وصراخ الأطفال، فالكل يبكي نفسه، أجل نفسه فقط.

وضع أمين يمينه فوق كتف إحداهن، دون أن ينظر في وجهها، وأبعدها قليلا ثم اقترب، ومد عنقه ليرى. إنه وجه الأم حمدية، المسجاة عند أسفل العامود، مبعثرة الأطراف، وبلا غطاء. انحنى، وجمع قدميها، وضمهما إلى بعضهما، وأمسك بيسراها ووضعها تحت يمناها فوق صدرها، ثم همس طالبا غطاء، فغطاها حتى عنقها، ومرر يده فوق عينيها ليحكم اطباقهما، فاستوقفته ابتسامتها فوق وجهها الذي كسته صفرة اللون، ثم انحنى ليقبلها، وما إن دنا من خدها حتى انفجر بالبكاء، وأرتمى بوجهه فوق صدرها ينحب

بشدة، ويئن هامسا: أماه، أماه. فازداد نحيب الملتفين خاصة أولئك الذين عايشوا قصة أمين وحمدية.

تدخل المختار ليخفف حدة الانفعال التي أصابت أمين، فأمسكه من كتفه وأنهضه، وتراجع به، وانسحب معه إلى إحدى الغرف، حيث جلسا، وقد تبعهما عدد من الحضور، وانهال على أمين سيل مألوف - في مثل هذه الظروف - من العظات والنصائح، ثم بدأ الحديث معه حول ضرورة الانضباط للقيام بمتطلبات الدفن.

مر الوقت، وشارفت الشمس على المغيب، فأشار أحدهم إلى ضرورة السير بالجثة إلى المقبرة قبل حلول الظلام، وكالعادة حصل مد وجزر من الآراء حول هذا الأمر، حتى حسم المختار الأمر، وخرج أمام الجلوس، مستفسرا عن غسول الجثة؟

احتضنت احداهن نوال البالغة اثنتي عشرة عاما، وأجلستها بجانبها، ووقف زيد وهشام متكئين على الجدار يبكيان بصمت، فيما راحت تفد إلى الباحة الدلاء الممتلئة بالماء الساخن، ثم أدخل النعش، فرفع بعضهم الجثة ومددوها فوقه، وعزل عن الناس بشرشف ثم غادر الرجال المكان، لتدخل بسيطة ومعها اثنتان لغسل الجثة. بعد الباسها الكفن، انزل الستار، وحمل النعش إلى وسط الباحة، ثم غطته احداهن بشرشف سجادي الإحاكة، ورشت أخرى العطر الذي ما عرفته حمدية طوال حياتها على الجثمان، وارتفع النعش على الأكتاف فارتفع معه البكاء والصراخ، وتعلقت نوال بالنعش، فيما تقدم أخواها يحملان عند جهة الرأس، بينما التفت أمين إلى الجثة فوق النعش وهمس: بلغي سلامي لوالدي، خاصة أمي زاهدة.

تأخر الوقت، هذا ما صرح به أحدهم وطلب افساح الطريق أمام حاملي النعش. سار الموكب، بدأ الخيرون يتداورون على حمل النعش، فأمسك أمين زيدا بيد، وهشام باليد الأخرى، وسار بين الحشود مؤمنا أنه صار رب هذه العائلة.

اخترق الموكب الزقاق الصغير، مرورا بدار أمين القديمة، وعبر الشارع الذي شق حديثا، ولم يفرش بالاسفلت، واتجه نحو المقبرة، في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة. عبر موكب الرجال بوابة المقبرة، مخلفا النسوة خارج السور الحجري، وكانت ظلمة الليل قد بدأت تلامس ظلمة القبر الذي ستدلف إليه حمدية، وصارت الرؤية صعبة عندما وقف المصلون لصلاة الجنازة، فراحت تتوافد إلى المكان الفوانيس المضاءة، ورفعت فوق القبر للتمكن من إنزال الجثة إلى القبر وإتمام مراسم الدفن، نزل أحد أقاربها إلى القبر وراح يجمع العظام التي لا زالت تتمدد على هيكلية الجسد الذي كان لها في الأمس، ووضعها في زاوية، ثم تناول الجثة، وأدخلها، ومددها، ثم كشف لها عن وجهها، وقد أسند الرأس إلى حجر تحسس ملمسه قبل ذلك، وتناول حفنة تراب، ورشها فوق الصدر مرددا: "من التراب وإلى التراب"، وخرج، ليتوكل آخرون مهمة إغلاق القبر، وفرش التراب فوقه ثم رصف الحجارة فوق التراب، بعدها نصب آخرون حجرا طويلا عند جهة الرأس وآخر أقصر منه عند القدمين، وبعد أن أتم الشيخ تلاوة القرآن والأدعية، غادر الحضور معزين وانصرف كل إلى داره.

مناسبات الموت فرصة ذهبية للعجائز اللاتي يحضرنها لسرد القصص، وتذكر ما خلا، والتعرف على الجيل الجديد من الصبايا، وتسجيل مواقفهن من سلوكهن وتصنيف المحتشم منه وقليله. لم يقصد أمين المدرسة لثلاثة أيام قضاها في البيت مع إخوته الصغار، إلا أنه قصد مصور المدينة ومعه صورة لحمدية بغية تكبيرها لتعلق إلى الجدار في المنزل، فطلب المصور منه أن يعرج لاستلامها بعد أسبوع. وهذا ما حصل، في الموعد المحدد، وبعد مغادرته المدرسة مر وحمل الصورة وقد نقد المصور أتعابه، ولفها بذراعيه وسار في الطريق والدموع على خديه لا تتوقف عن السيلان، وكان يلقي بين الفترة والأخرى نظرة عليها، ثم يعود ليدخل في غابة الذكريات معها فيحس أنها تنتظره عند المدخل كعادتها.

دخل الدار، وتوجه مباشرة إلى الغرفة التي علقت فيها صورة العم عيسى والد نوال وزيد وهشام الذي مات قبل زوجته أثناء عمله في سكة القطار في قريته الأصلية، وعلى أثر الحادث قبضت حمدية التعويض عن وفاته أثناء العمل، وغادرت إلى المدينة، واشترت هذه الدار، وماتت فيها، وعلق الصورة إلى جانب الصورة، وهذا ما تبقى من اثنين وقفا إلى جانب بعضيهما ذات يوم عريسين وهاهما إلى جانبي بعضيهما مجرد ذكرى ليس أكثر.

بعد أيام يكمل أمين الثامنة عشر، وبهذا يسترد حق التصرف بأملاكه التي كانت تدار بوصاية من قبل المختار وبعض كبار المحلة، وراح ينتظر بفارغ الصبر مرور ما تبقى من وقت، وما كان صباح اليوم الثاني لبلوغه السن القانونية، حتى توجه إلى بيت المختار طالبا منه الذهاب معه إلى دائرة تنظيم الأملاك العقارية، ليتسلم أمانته، وليشهد معه على أنه منح أخوته أبناء حمدية قطعة الأرض المطلة على الشارع الرئيسي، وللثلاثة بالتساوي، فاستغرب المختار رغبة أمين وأخذ يحاوره، ظنا منه أنه قد يكون متسرعا في اتخاذ هذا القرار، فرد أمين بهدوء وحزم:

ـ الأمر يفرض علي رد ما أخذت بالأمس من حمدية لأبنائها، وإن كانت الأخوة للرحم والنطفة، فأنا وأبناءها أخوة سنين العمر التي قضيناها نقتات فيها معا من الصحن نفسه، والمبيت في الفراش نفسه، والاستحمام في حوض واحد وبيد واحدة ترغو الصابون فوق رؤوسنا إنها يد حمدية. ومن لهم غيري؟ ومن لي سواهم؟ ودمعت عيناه وغصت الكلمات في فمه وهو يتمتم: أرجوك لقد حزمت أمري.

تبسم المختار ورفع حاجبيه الكثيفين، ومط شفتيه إعجابا، ونهض ليحضر ورقة ليدون فيها بعض المعلومات التي يجب توفيرها لمهمة غد.

عاد أمين بعد ظهر اليوم التالي إلى المنزل، يحمل في قلبه فرحا مبك، وفي يده الأوراق التي تثبت ملكية أخوته للأرض التي خصهم بها. دخل باحة الدار، ليجدهم يجلسون حول صحن فيه بعض الزيت، وهذا كل ما توفر لهم، في هذه الدار التي قد تهدمها البلدية لتوسيع الشارع، فجلس يأكل مما يأكلون، وراح يتأمل نوال التي بدت شاحبة نحيلة، ثم نظر إلى هشام الذي بدا متكدرا، عاجزا عن مواجهة الحياة، ثم دمعت عيناه حين تأمل زيدا الذي بان أنه الأكثر افتقادا لأمه، فقد عششت في عينيه دمعة الحزن والحرمان. فغالب آلامه، وتنحنح ليقول:

ـ هشام، نوال، زيد، هل أنا أخوكم أم لا؟

فاستغرب هشام السؤال ورد: من قال غير هذا؟

ثم التفت إلى زيد وقال: وأنت يا زيد ماذا تقول؟

فأجاب والدمعة تجول في محجريه: وأحبك أيضا.

واستدار إلى ناحية نوال وقال: وماذا تقول سيدة الدار؟

فغصت بالبكاء، وارتمت في حضن أمين تبكي، وتردد:

ـ إياك أن تقول أنك ستتركنا وتغادر إلى دارك.

واستثار كلام نوال حفيظة الأخوين فبادرا السؤال معا:

ـ هل ستقول لنا أنك راحل عنا؟

فسارع هو لطمأنتهم:

ـ لا، لا، ليس هذا ما أردت قوله، فقط اسمعوني.

التزم الجميع الصمت منتظرين ما سيخبرهم، وأكمل قائلا:

- ما دمتم إخوتي كما قلتم، إذن اقبلوا مني هذه الهدية لكل واحد منكم.

واستغرب الجميع أمر الهدية التي لم يروه يدخل فيها، والتي تخيلوها كتلك التي كانت تظهر في صور كتاب القراءة، لكن أمين تناول الأوراق وقال:

- كان لي قطعة أرض مساحتها ثلاثة دونمات عند الشارع المتجه صوب العاصمة، وأخرى بالقرب منها مساحتها دونمان، وقبل أيام بلغت السن التي مكنتني من التنازل عن القطعة التي مساحتها ثلاثة دونمات إلى كل من زيد وهشام ونوال، لنظل جيران العمر إن شاء الله.

وراح يقرأ الأسماء، ثم أعاد الوراق إلى المغلف الخاص بها وسلمه لهشام وهو يوصيه بالحرص عليها، ثم جمع كفيه واستند بكوعيه على ركبتيه، وراح يتأمل بفرح وجوه إخوته أثناء تأملهم الأوراق غير مصدقين ما يحصل. وطفق هشام يبكي ثم ارتمى زيد في حضن أمين وراح ينتحب، وطوقت نوال عنقه بذراعيها وراحت تجهش بالبكاء، وردد هشام:

- أنت أخونا بهدية أو بدونها.

وسألته نوال: لن تفارقنا أبدا أليس كذلك؟

ورد امين بالموافقة. وساد صمت يخالطه دمع ومشاعر الافتقاد للأم حمدية. ثم اعتدل أمين من جلوسه وقال:

- يجب أن نهدأ ونفكر كيف سنواجه الحياة بنجاح. على الأقل كي نسعد أمنا حمدية في قبرها.

فمسح الأولاد دموعهم، وجلسوا ينصتون. وأكمل أمين كلامه:

- المصاريف سنتدبر أمرها من ضمان الأراضي الزراعية، أما ما قصدت التفكير به فهو مستقبلنا جميعا. ومن الصباح سنخرج للبحث عن عمل لزيد وهشام تتعلمان من خلاله صنعة، فقد لا يخدمنا في هذا الزمن العلم خاصة إن كنا قد نواجه التأخر في اتمام الدراسة.

فقاطعه هشام قائلا: - لقد سبقتك، وقصدت العم خليل وسألته ان كان يشغلني معه في الدكان؟

فكر أمين قليلا ثم قال: - جميل أنك بدأت لكني أريد لك صنعة تغنيك عن العمل لدى الآخرين بل يعمل الأخرون عندك. لا أن تعمل بشكل متقطع يوم هنا وأخر هناك، وتفقد الاستقرار.

وسأل هشام: كماذا؟

- لقد اتفقت لك مع الميكانيكي رضا كي يعلمك المهنة في أيام العطل، وبعد عودتك كل يوم من المدرسة، وسيعطيك أجرا معقولا.

فرح هشام، وأحس بالنشوة، فقد صار بامكانه تحمل المسؤولية، وهز رأسه بالرضى. ثم انتقل أمين إلى زيد، الذي بادر قائلا:

- أما أنا فإني أريد أن أتعلم الصياغة، لأني أحب النقش على المعادن والحلي.

أعجب أمين برغبة زيد الواعية، وأثنى عليها، ووعده بالبحث عن محل كي يعمل فيه، ثم التفت إلى نوال، التي راحت تتلهف لتعرف دورها. فقال لها:

- من الغد ستكونين سيدة المنزل، المسؤولة عن إعداد الطعام فقط، أما الجلي والتنظيف، فهو مهمة جماعية.

وخشيت نوال أن تفشل في الطبخ، فقد بان على وجهها قلق وحيرة.

فتدارك أمين الموقف قائلا:

- لا تخافي سأعلمك كيف تصنعين ذلك، وفي كل يوم سأحضر لك معي مجلة تقرأينها للتسلية، والتثقف، وفي الشتاء تتعلمين حياكة الصوف.

صفقت نوال فرحا لما سمعت، وطبعت على خد أخيها قبلة أشبه برذاذ الندى في صباحيات الربيع المزهرة.

سارت الأمور كما خطط لها أمين، فلقد صار هشام مسؤولا في ورشة ميكانيك في وسط المدينة الصناعية، وأحواله المالية في تحسن مستمر نوعا ما. وساعدت زيد رغبته وفطنته كثيرا في التقدم في تعلم صناعة صب الذهب، والنقش، وها هو يدخر بعضا من المال الذي يتقاضاه أسبوعيا.

أما نوال فقد تفتحت براعم أنوثتها، وبدأت تتنكر لبراءة الطفولة، لتتبنى مكانها حركات الاغراء والدلع. كيف لا وهي تمتلك وجها ينطق جاذبية، وطول قامة، يزينه اكتناز ردفيها، حيث تستقر ذؤابة شعر جديلتها التي تنساب بين كتفيها كنهر من ظلام.

وتوطدت العلاقة الأسرية جيدا بين جميع أفرادها، حتى مساء ذلك اليوم الذي عاد فيه أمين فرحا يرقص، ويغني، فهو الآن رجل كامل الأوصاف كما قال المختار، يملك المال والأرض، والشهادة الثانوية، وثقافة في الفلسفة والفكر، ووظيفة كاتب في السرايا، فلما لا يوافق المختار على تزويجه لابنته وجدان، التي سلبت عقل أمين الذي ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات.

عاد إلى البيت وفي اعتقاده أنه يحمل معه أجمل البشائر. كانت نوال في المنزل عند عودته، وقد دخل راكضا فتقدم منها واحتضنها وراح يقبلها ويدور بها وقد حملها بين ذراعيه، مرددا:

- باركي لي، باركي لي.

وشعرت نوال أنها حل لأمين رغم كل الأخوة التي تربطهما، فالأنوثة فعلت فعلها وتمنت لو أنها تنال أكثر مما يمنحها، فاستسلمت لأمين الذي لا زالت تجهل دوافع فرحه حتى اللحظة، وهو يصر على مطلبه بالمباركة. أما هي فقد طوقته بذراعين تبحثان عن الرغبة، واحتدت أنفاسها، وتوتر جسدها، ابتعد أمين عنها دون أن يلحظ شيئا، لأنه كان مأخوذا في أحلامه، فاستند إلى عامود الباحة، ووقف ينظر إلى نوال التي أخذت تعيد ترتيب نفسها، ومسحت وجنتيها، وقالت:

- لن أبارك قبل ان تقول لي ماذا حصل؟

- حسن. وطوق العامود بذراعيه، وبدأ يتأرجح يمينا ويسارا، ويقول: لقد كلمت المختار اليوم، ووافق.

وأسرعت الحروف تتدحرج على لسان نوال مباركة له، ظنا منها أن المختار تكلم مع المحافظ بأمر التوصية التي سيصدر بموجبها مرسوم الترقية التي استحقها أمين ولم ينلها حتى اليوم. وسألته: ومتى ستذهبان؟

- قال لي المختار سأرد عليك الخبر قريبا.

وعادت نوال تصارع رغبتها التي عادت لتتأجج أمام حيوية أمين البريئة من كل ما يدور في خلدها فقد ضحك ومر بجانبها، ودفعها برقة بحركة من كتفها الأيسر، مما دفعها لتجره من ذراعه، وتحتضنه، وتنهال عليه تقبيلا حول عنقه، وعلى وجنتيه، وتغرز أناملها في شعره، متقطعة الأنفاس التي راحت ترسل إشارات الرغبة هامسة: ألف مبروك، ألف مبروك.

وتسللت إلى أنف أمين الذي كان مركزا في مصدرها رائحة الطبيخ الذي قارب على الاحتراق، أتراها تنبعث من منزلهم أم من منزل الجيران؟ حتى تأكد فصاح ضاحكا:

ـ طبيخك في خبر كان. سيتحول خلال ثوان إلى غيمة مقرفة تسبح في فضاء الغرفة، لتمطرنا الليلة طعاما يمضغ فوق الأغطية لا في الأفواه.

وتنبهت نوال إلى نسيانها القدر فوق النار، فركضت إلى حيث تطبخ.

بدأ أمين يخلع قميصه، وقد أدار ظهره للباب غير متنبها لما يجري خلفه، فقد تسللت نوال على رؤوس أصابع قدميها حتى دنت من شق الباب وراحت تنظر متلذذة برؤوية جسد أمين الذي تعرى ليرتدي بيجامته، وكادت تسقط مغميا عليها حين استدار ماشيا نحو الباب، لكنه عاد متذكرا علبة السجائر والكبريت في جيب قميصه المعلق، وفي هذا الوقت دخل زيد، ثم هشام.

انتعل زيد نعاله وحمل المنشفة، وتوجه ليغسل قدميه ويديه عند البرميل المرفوع فوق الحجارة في إحدى زوايا الدار، فيما وقف هشام عند باب الغرفة وقد تهيأ للقيام بالمثل، وراح يلح في طلب النعال والمنشفة من زيد، حتى مل فتقدم حافيا، غير عابئ بتأنيب نوال له.

حمل زيد علبة السمنة المعدة لغرف الماء، وملأها من البرميل، وراح يسكب على قدميه ويفركهما، ثم غسل يديه ووجهه، وهم بالانصراف لولا أن رجاه هشام ليسكب له الماء، فلبى طلبه متأففا، راح هشام يبذر الماء بقصد استثارة حنق زيد، فما كان من الآخر إلا أن ترك الوعاء بحدة وانصرف.

وضع الطعام، وتربع الجميع حوله، وقد خيم الظلام على المكان، فنهض أمين وأشعل المصباح وعاد إلى مكانه، يتلو البسملة بصوت مسموع كما علمته الأم حمدية وساد جو من الصمت لا يسمع فيه سوى مضغ الأفواه للطعام. وقطعت نوال هذا الصمت بإعلانها طلب المباركة لأمين. فسألها هشام عن سبب المباركة؟

فاغتال أمين الكلمات في فمها حين نطق: لقد خطبت.

طغت على الوجوه ملامح الاستغراب، وأرخى الموقف بثقله على المكان، وأمالت نوال التي تجمدت ملامحها، رأسها كي يتسنى لها النظر إلى وجه أمين الجالس بجانبها، وسأل زيد مباركا:

- ألف مبروك ومن هي كنتنا المستقبلية؟

فأجاب أمين: إنها وجدان ابنة المختار. واستطرد في الحديث عن الموقف المحرج أمام المختار، وكيف راح يشعر بضيق المكان عند الدخول في الموضوع، ويفرط في الضحك عندما يتذكر بعض التفاصيل، ممعنا في وصف الاحراج الذي تملكه.

كانت نوال تمتص كل إحراجات الشعور بالخيبة، وتعصرها في داخلها، إحباطا، وغباء بما ظنته، مصارعة في ذلك جحيم الأحقية الجنوني، ونزعة الغيرة الحوائية، بعد أن نفرت من لا أباليته، واستمراره في الحديث، فتركت المائدة، وخرجت صافعة الباب، مجفلة بحركتها الجميع الذين راحو ينظرون في وجوه بعضهم البعض بعيون تتساءل عن السبب. ثم دخلت غرفتها راحت تنتحب، محاولة كظم غيظها. وتشظت اتجاهات الانفعال في الدواخل الثلاثة، فنظر زيد بحذر وحدّة إلى أمين، ووضع هشام قطعة الخبز التي كانت في يده فوق مائدة الطعام، وراح ينقر بسبابته فوق حافة صحنه، ثم نهض ليدخل غرفة نوال.

إنها المرة الأولى التي يحس فيها أمين أنه لا ينتمي لهذا المنزل، لا بل شعر أنه غريب حقا، فقد اتضح كل شيء، وهالته الصدمة بأن يصل الأمر إلى هذا الحد، وبهذه السرعة. لذا تراجع إلى الخلف وأسند ظهره إلى الحائط، ملتزما الصمت، مطرقا.

عاد هشام صامتا وجلس بجانب الباب، ثم دخلت نوال وبدأت ترفع الطعام، فيما ظل هشام يخفي إحساسه بالخيبة، من خلال

الحديث عن عمله، وسرد تفاصيل لا محل لها في مثل هذا الموقف، وهو يصهر في أعماق مخزونه الوجداني، ما دار منذ قليل، ويحوله بين سندان العقل ومطرقة الضمير، إلى مناصرة أمين، الذي طافت جمجمته بفيض من الذهول، والتساؤل، وحاول أن يتخيل ولو للحظات نوال كزوجة له، لكنه شعر أن الأمر يشبه الحمى التي تسكن العظام، وكأن دخان يملأ أمعاءه، ويدفعه للتقيؤ، فيما لو عاد لمثل هذا التفكير، فنوال أخته بالإقامة، والهم، ولم يشعر طوال السنوات التي خلت بغير هذه الأخوة، ثم إن حبه لوجدان لا ذنب له فيه، إنه قدر، وحاول أن يلوم نفسه تارة، وأخرى يسعى إلى اتهام نوال، رغم حرصه عليها حتى في وجدانه، لكنه حسم الموقف، وقرر النوم، تجنبا لأي نقاش.

هدأت نوال وعادت للتراجع عن سوداويتها، فناولته وسادة وغطاء، وسألته عن الوقت الذي يريد أن يستيقظ فيه؟ وأخواها يراقبان ما يجري بصمت.

لم يكن أمام زيد مساحة إلا مساحة الفراش، فتمدد في مكانه وطلب من نوال أن تغطيه، ثم غادرت لتجلي أواني الطعام، ومكث هشام مطرقا، يتنازعه النعاس، وخليط أفكار تتوارد دون تحذير مسبق إلى مخيلته، لذا نهض، وتناول وسادة وغطاء ونام، واضعا رأسه قرب رأس أمين عله يدرك فيما كان يفكر. وفعلت نوال ما فعله الجميع، تاركة الأمر للأيام.

* * *

ما جدوى مئات الأطنان من الهراء المرصوف أحرفا؟ ما دامت الغريزة هي الغريزة، والحرمان هو الحرمان؟

لماذا نرتكب كل يوم ملايين المسببات للتأنيب وجلد الذات؟ ما دام الضوء لا يكشف إلا ظواهر الأجسام لا ما هيتها؟ كيف نتجرأ على مواصلة السير ثانية، ونحن نعلم أن أكمل الحركات هي الحركة الدائرية؟

فكأنها خصصت لمثل هذا السفر الضوضائي بين القرف وضبط الانفعال، تلك اللحظات الصباحية عندما فتح أمين عينيه، وظل ملقيا رأسه على الوسادة، يقاوم طوفانا من الاستفسارات أثناء الكسل المحبب إلى نفسه والمعزز للممانعة في ترك الفراش، لكنه تصنع النشاط ونهض مقررا طلب إجازة لأيام معدودة. وتجنبا لهدر الوقت، خرج مسرعا، يوزع خطواته الصباحية، التي ألفت الطريق المؤدية إلى عمله ذهابا وإيابا، فحفظت كل ارتفاعة، وانخفاضة، فكأنها كانت تنزل كل مرة في المكان ذاته.

لم يكن الانفعال المقهور يسمح له بتوسيع مساحة التبختر في سيره، لذا كان يخطو بعبثية الملل، واضعا يده في جيبه، مصفرا لحن فيروز "مثل السهم الراجع من سفر الزمان، قطعت المسافة ما ضحك لي انسان، كل صحابي كبروا، وتغير المكان، صاروا العمر الماضي صاروا ذهب النسيان" ولفتاته تتطاير فوق أسطح المنازل أحيانا، وتزحف مع التقاء الجدران بالأرصفة أخرى، مراقبة حركة الهواء الذي يدفع الأوراق، ويركنها في تلك الزاوية، أو في هاتيك الركن، وتخيله كشرطة الحماية، التي تواكب الوفود، فتعنف الحشود، كما يفعل المنجد بالقطن أثناء صفعه.

ويقذف برأس حذائه بعض الحصى التي يلمحها، وقد أحس بكآبة مضنية، وبرغبة للبكاء، فظهرت له المساحات الممتدة أمام بصره، وعن جانبيه، أضيق بكثير، من تلك التي تركها خلفه، في الأيام التي

سبقت ليلة الأمس. وتدلت خصلة الشعر الشقراء الناعمة فوق جبينه، فرفعها بحركة سريعة، من رأسه، ومضى، عازما على ترك المنزل الأخوي، والعودة إلى بيته الأبوي.

كانت نوال تعاني أكثر مما يعاني أمين، في ذلك الصباح، فهي ممزقة المواقف، تائهة، نادمة تارة، وحاقدة أخرى، على ابنة المختار، شاعرة بتقلص دواخلها، كلما تذكرت، كيف سمحت لنفسها أن تقوم باحتضان أمين، متمنية لو أنها تبتعد عن هذا المكان وللأبد.

سقط صحن من يدها، وتحطم، أثناء نقلها الجلي من الباحة إلى الداخل، هذا ما جعل أمين، الذي وصل عائدا لتو يتوقف صامتا عند الباب قبل أن تلمحه نوال، والدموع تجول في مقلتيه، متأملا أخته الحزينة، ويتحسس لوعتها، متناسيا كل ما يضايقه، معزيا نفسه بأنه أقوى من سواه في ضبط السلوك العاطفي المتهور، وتسربت إلى ذهنه رغبة غير مسؤولة، عابرة، تمنى فيها لو يبلغ نوال عن حبه لوجدان، وكاد يفعل، لولا أن تدارك نفسه، وظل صامتا، يتأملها، ويجري مقارنة بينها، وبين وجدان، فتبدو له أشد فتنة، من الأخرى، بجسدها الذي بدأ يتغير يوما بعد يوم وينمو، أثناء قرفصائها لالتقاط حطام الصحن، لكنه عاد ليفهم نفسه، أن الحب غير متوفر في ذاته، نحو نوال، كما هو صوب وجدان. وكان يقف كالنسيان، عندما استدارت نوال أثناء وقوفها، لتراه أمامها يرقبها. اضطربت، وفقدت اتزانها، وأحنت رأسها، واستمرت في عملها.

وتهشم برزخ الأخوة بين نوال، وأمين، بفعل تفتح دوافع البلوغ في كل منهما، وكان من اشارات هذا التهشم، وقوع بصر أمين على ما بدا من ساقها، وتحديقه في لونها الوردي، وفي اكتنازها، فوق الركب، مثيرة لسعة الرغبة، و صراع الأخوة القائم بالقوة لا بالفعل، وسرت غبطة متخفية في جسده، جعلته يشعر بالاشمئزاز من الدناءة التي احتلت عمق تكوينه الإنساني الرذيل، واندفع نحو

الغرفة، حيث راح يجمع أوراقه، وكتبه، وأغراضه، التي سيحتاجها في إقامته الجديدة.

انتهى من جمع حاجياته، ووقف يفكر كيف سينقلها، فظهر له أنه لن يستطيع حملها دفعة واحدة، لذا حمل منها ما استطاع، وخطا خارجا، وما إن لمحته نوال في باحة الدار، حتى ارتفع لا شعوريا حاجباها، مستغربة ما يحصل، فهذا ما لم يخطر لها ببال، ولم يكن بالحسبان، فأحست بالذل والمهانة وانفجرت باكية، فوضع ما بين يديه، وتقدم نحوها، إلى حيث استندت على الجدار، وأخذ شهيقا عميقا، ثم زفره دفعة واحدة، وبشدة، ورفع يده ممررا أصابعه في شعره المنساب فوق جبينه، كي يتسنى له رؤيتها وقال:

- لست راحلا إلى بلد آخر، بل إلى دار أبي، وأمي، وهي بجواركم، وقريبة منكم، وسأمر بكم كل يوم، ثم إن هذا الأمر أفضل لي ولكم، كما أني بحاجة لأن أستقل بنفسي لفترة.

وحاولت نوال تبرير ما بدر منها في الأيام الماضية، لكنه قاطعها قائلا:

- سأزورك دوما، وربما لن أتحمل العيش وحيدا، وبعيدا عنكم، فأعود.

وتمنى لو بامكانه احتضانها، ولكنه فضل المقاومة، حتى اقتربت منه نوال، وألقت رأسها على صدره، وشرعت تذرف الدموع، لأنها كانت تملك إحساسا، يؤكد لها تغير كل شيء، ويعزز قناعتها، بعدم عودته لهذا المنزل نهائيا.

تماسكت، ومسحت دموعها، وظلت تقف صامتة، فيما استدار ليرحل بحاجاته، فنادته، ولم تنتظر التفاتته نحوها وقالت: أمين، مبروك الخطبة. وغصت، تكتم حرقتها.

أحس أمين بكراهية نفسه في تلك اللحظة، وتوقف دون أن يستدير نحوها، وحرك رأسه بعنف ذات اليمين، وذات اليسار، ثم صفع قبضته اليمنى براحة اليسرى، وانحنى يحمل الأكياس، وانطلق.

دار والديه قريبة من دار حمدية، لذا وصل بسرعة، والتقى في طريقه عثمان، فناداه وطلب منه الوقوف إلى جانب الأغراض، أمام مدخل بيت والديه، وعاد ليحضر ما تبقى من أغراض، وأثناء ذلك، لفت انتباهه جلوس نوال في غرفتها، وهي تنتحب، لكنه فضل عدم السماح للضعف بالتمكن منه، فحملها، وانطلق.

وقف أمام باب المنزل القديم، بدأ يفتش عن المفتاح في أحد الأكياس حتى وجده. فتح الباب، الذي لم يدخل قفله مفتاح منذ مقتل والديه، ووقف يتأمل. كان الغبار قد ساوى بين مظهر الموجودات، بقايا شظاي القذيفة التي سقطت على االمنزل، البؤرة الضوئية، التي مصدرها فتحة أحدثتها القذيفة في سقف المنزل، ركام، وأحجار لم تزعجها يد منذ تلك الليلة. عن يمين الباب الكرسي القديم الذي أحبه في طفولته، حين كانت تطارده أمه زاهدة ويختبئ خلفه، لكنه محطم الأرجل، ممزق الفرش، بنت عليه العناكب بيوتها، وعلقت فيها عدة حشرات لا زالت بقاياها موجودة.

كومة من الفرشات، أغطية سقطت عن (الليوك) خزانة الفرشات، وسائد مبعثرة، تآلفت ألوانها تحت تراكم الغبار. إلى الجدار صورة الوالدين، مكسورة الإطار، محطمة الزجاج، تتدلى بشكل مائل، سرايالية مفعمة بالتوتر، أرخت ذيولها على المكان الستارة القماشية، التي تفصل موزع المدخل عن غرفة داخلية، تمزقت، وسقطت إحدى زواياها، فبدت الغرفة بعمقها، كأنها غرفة عزرائيل، التي سمع بوجودها في المستشفيات عن ألسنة الناس، ألقى نظرة شاملة، دافئة، حزينة على كل جزء فيها، فتنبه إلى سترة والده المعلقة إلى الجدار، وفوقها علقت سبحته السوداء بشرابتها

الفضية، التي كان يطيب له مداعبتها بين أصابعه أثناء الحديث، وإلى أسفل الجدار سقط قميص لم يستطع تمييز لونه، لكنه اشتم فيه رائحة الأب، التي عصفت بدموعه أوساخ، وبعض أدران، وأشياء مختلفة التزمت الهدوء حدادا إلى هذه اللحظة على أصحاب الدار.

تشجع أمين، الذي تشابكت في صدره أغصان الذكريات القديمة، وأزهرت، وأثمرت، حبيبات من الدمع، وخطا، فوق الذي اختلطت أصوات احتكاكه تحت قدميه، بصوت خفقان قلبه نحو هذا المكان الذي راح يضخم الأصوات حينها، فكأنه مشتاق لمثل هذه الأصوات بعد طول صمت.

اقترب من مدخل الغرفة الداخلية، حيث تناول عود ثقاب من جيبه، وأشعله، ليساعده على وضوح الرؤية في المكان، فوجد فوق أرض الغرفة الأواني الفارغة، و(لكن) الغسيل، وبابور الكاز، الذي انقلب وسال محتواه، فامتصته أرض الغرفة.

ارتجفت يد أمين، وانتفضت لا شعوريا عندما لامست النار المشتعلة في الثقاب اصبعيه، فتركه ليغرق في ظلام مكثف، وعاد ليشعل عودا آخر، ثم بحث عن القنديل الزيتي، فوجده، لا زال معلقا إلى زاوية الغرفة الداخلية، حيث لم تطله الأذية، تناوله، ونظر داخل زجاجته، التي لا زالت تحوي القليل من الكاز، وحرك بكرة الفتيل، فارتفعت قليلا، وأشعلها، فأنارت المكان، فعلقه في مكانه، وعاد ليتأمل المكان عن كثب، فلفتت انتباهه بقعة داكنة اللون، تيبست مع مرور الوقت، دنا منها، وأشعل عود ثقاب فوقها مباشرة، فتبين له أنها بقايا دماء والديه، يوم أصيبا.

اكتفى بهذا لقدر من العذاب الاجتراري، وانصرف إلى ترتيب المكان. أمضى نهاره كاملا في ترتيب المنزل، يساعده عثمان، الذي سهر معه حتى ساعة متأخرة من الليل، ولو سمح له أمين لبات عنده تلك الليلة.

عندما عاد هشام وزيد في المساء، وأخبرتهما نوال عن رحيل أمين، أمضى زيد تلك الأمسية صامتا، منطويا على نفسه، بينما اكفهر وجه هشام، وأحس بالضيق من نوال، التي تلمست ذلك من خلال معاملته الجافة لها. ومضت تلك الليلة بين غضب مجلبب بالهدوء، وبين رغبات تصارعت حول الذهاب إلى بيت أمين، أو تجاهل الموقف لمعاقبة نوال.

انشغل أمين في اليوم التالي باصلاح الفتحة التي أحدثتها القذيفة في الدار، متذكرا، أيام الحرب، وكيف كان يقضي الناس ليلهم ونهارهم بحثا عن الأماكن الأكثر بعدا عن اختراق القذائف، فمنهم من قصد الجبال، و سكن الكهوف، ومنهم من احتمى في غرفة محصنة من كافة الجهات في منزل أحدهم. وتذكر أنه وفي الساعات الأخيرة من الحرب وبعد إعلان وقف إطلاق النار بدقائق، سقطت القذيفة التي حملت والديه إلى عربدة الحساب، وظلمة القبور.

وتذكر أنهم كانوا متجمعين حول المذياع، في ذلك الصباح، بعد انتشار خبر القبول بوقف اطلاق النار من قبل الأطراف المتنازعة، فعلت الفرحة الوجوه، وسرت الحياة في المدينة من خلال تجرؤ البعض على تمزيق أوصال الكآبة، بالخروج إلى السطوح منادين بعضهم البعض، وأخذ الناس ينتشرون في اتجاهات مختلفة، وبدوافع واحدة ألا وهي الرغبة في السلام، والعيش بأمان، بدأ يلحظ انخفاضاً تدريجياً في عدد القذائف المتساقطة، وتوقف فجأة أمام قدره، وحظه التعيس، حين جاءت تلك القذيفة، وبعد كل ذلك الأمل، والفرحة الفقيرة في هذا الحي، لتمزق الأسمال البالية، التي كانت تستر جسد والدته، طوال فترة القتال، لتشق طريقها إلى الحياة في ذلك الجسد، وتحيله سكونا وتحللا أبديا، وتمزق أبويه في لحظة واحدة، وينجو هو لأنه خرج إلى الشارع بعد طول حبس، وتمنى لو أنه ما خرج ليلعب حينها، وشاركهما تلك الاحتفالية المميتة في ذلك اليوم الذي ولد فيه السلام على جثتي والديه. وظلت تلك الصورة

المبعثرة، تنظم أجزاءها في مخيلة أمين لعدة أيام، رغم أنه كان يمضي نهاره في العمل وليله في القراءة، وحيدا، إلا من زيارات عثمان. ولقد ظهر أنه من الحكمة تجنب زيارته، من قبل اخوته، لأنه كان بحاجة لهذه العزلة، والوحدة.

أسابيع مرت على فراق الأخوة، ومع رحيل الصيف، وحلول الخريف الذي ينسجم وطبيعة أمين، الذي يرى فيه فصل الحياة، والتهيؤ، وتوفير الإمكانيات لإقامة الاحتفال السنوي في الربيع، كانت الطيور وبشتى أنواعها تمر مع كل غروب نحو الجنوب، والأشكال الهندسية التي تشكلها كل مساء أسراب البجع، من مثلثات، إلى أنصاف دوائر، وغيرها، جميعها كانت مركز تأشير بأصابع الأطفال الذين راحوا يراقبونها فرحين، صائحين، مغنين، أو قافزين خلفها، ويتناول البعض سلاحه ويطلق النار باتجاهها، مشتتا انتظامها فقط دون اصابات في صفوفها، لأنها تمر على مسافات بعيدة، يكاد البصر لا يطالها، فتزيد من ارتفاعها كلما زادت غزارة اطلاق النار صوبها. كانت تمر في سفرها عبر الغيوم أحيانا، تلك الغيوم التي تفاوتت درجات دكانتها من رمادية، إلى سوداء، كلما تفاوتت كثافتها، وتبعثر بعضها إلى غيمات صغيرة، تترابط فيما بينها بخلل، جعلها تبدو كوجه شمطاء خطت فيه السنون آلاف الأثلام انتقاصا من زوالها.

بدأت الأجساد البشرية ترتاح لارتداء الملابس السميكة، والصوفية، خاصة مع هبوب الرياح التشرينية الغربية الجنوبية الباردة.

كان شحوب النهار يحمل أمين على الشعور بالاستقرار والاتزان، فينتابه فرح عشوائي، بين فترة وأخرى، حين يقرأ الكتب الخاصة التي اعتاد شراءها لهذا الفصل، من كل عام، فيقلع عن قراءة الكتب العلمية، والفلسفية التي ألف قراءتها في الصيف، ليتجه إلى قراءة الروايات العالمية.

كان أثناء عودته، يتراقص في مشيته، داخل معطفه، الكاكي اللون، واضعا فوق رأسه قبعة صوفية مخروطية الشكل، في رأس هرمها خيوط من الصوف قطعت بطريقة ما لتشكل كرة صغيرة تتمايل أثناء السير متأبطا جريدة، حشر في داخلها رواية زوربا التي فتنته فيها شخصية البطل.

وصل المنزل، وأشعل النور وارتمى بحذائه، فوق السرير الخشبي، الذي صنعه بنفسه، شابكا عشره تحت رأسه، وراح يفكر في موعد إعلان خطوبته، الذي باتت تفصله عنه أيام معدودة، ليتمكن بعدها من رؤية وجدان كلما غلبه الشوق. وراوده فضوله بإجراء مقارنة بينها، وبين نوال، لكنه تجنب تشويه نشوة الإحساس بالحبيبة، وتناول الجريدة، وراح يتفحصها، فوقع نظره على أغرب عنوان فقهقه له عاليا:"شركة سيارت رولز رايس تتجول في شوارع اليابان لجمع التبرعات الخيرية"، سخرية فاقعة أن تغدو الرولز رايس مظهرا من مظاهر الشحادة، كثري يلتقط صورة مع فقراء إحدى نواحي البؤس في أفريقيا، ثم يذهب ليعقم يديه بعدها. قذف بالجريدة بعيدا عنه، باصقا على هذا التناقض، فقد تذكر مبدأ كسر المألوف أو التغريب الذي ظهر في المسرح الألماني، وأخذ يفكر "أتراهم يعملون وفق هذه النظرية في أغنى وأغلى شركات السيارات في العالم"، ثم تذكر إعلانا شعبيا، رآه على واجهة إحدى المحلات في السوق القديم في المدينة، حيث رسمت صورة (حنظلة) ناجي العلي الشهيرة، وكتب تحتها: "كل المعثرين أقاربي" بتوقيع شلة التعتير.

حقا إن هذا الزمن أشبه بحالة كتاب أصدره موظف أميّ يعمل في إحدى دور النشر، بعد أن دخل قسم الأعمال المعدة للطباعة، وتناول من كل جهة ورقة، وأصدر كتابا يتحدث عن أزمنة ومواضيع، وحالات مختلفة، متناقضة، إنه مزيج من الثرثرات في العالم، لتراه ما عليك إلا أن تجمع في قاعة ممثلا عن الشحاذين،

وواحدا عن النشالين، وآخر عن المجرمين، وغيره من الكتاب، ومولعا من المحبين، تافها من السياسيين، وعفويا من الأطفال، وعبقريا من العلماء، ومقهورة من النساء، ورؤوفا من جمعية الرفق بالحيوان، ومحبا من أنصار البيئة، ومتبجحا من الأثرياء، وصعلوكا من المتمردين، وسواهم، وتجلس لتستمع إلى مطالبهم، وآرائهم.

تبا له من زمن يشبه ممارسة الدعارة في دور العبادة، لا متعة فيه ولا خشوع. هذا ما صدر عن تفكير أمين الذي قرر أن يجهز لنفسه عشاء.

أشعل بابور الكاز، ووضع فوقه المقلاة، وملأه بالزيت، وراح يقشر البطاطا، ويشرحها، وبعد أن غسلها، انحنى فوق المقلاة، يسقطها في الزيت، عندما فاجأه مواء عنيف لقط، لم يدري من أين وصل، ولم يره، انتفض، واضطرب، وكان الوقت أضيق بكثير من أخذ الحيطة، والحذر، فقد نفر هر أسود، التمعت عيناه، كشرارتين، أثناء مروره بين قدميه، انحنى أمين يريد التقاط شيء ما كالنعال ليقذف به القط، فارتطمت، يده بالمقلاة، فانقلب وتطاير منه الزيت المغلي راشقا وجهه الذي كان بمحاذاته، وصرخ أمين: كأنه ثور حز بسكين من أسفل عنقه، وطال الزيت يده، وقدميه، وبسبب ردود فعله المؤلمة وقع بابور الكاز، وشبت النار في المكان، فتراجع إلى الخلف صارخا بشدة، ثم ارتمى مغميا عليه.

كان بعض من الشباب يمر أمام المنزل، عندما سمعوا صراخا، ولفت انتباههم، لهب النار المتعالي في المنزل، فأخذوا يصيحون طالبين المساعدة، وهرع إلى المكان من شتى الأعمار ومن الجنسين، ووصل هشام وزيد، وأخذ يطفئان النار، ثم لحقتهما نوال، وراحت تبحث عن أمين الذي طارت على الألسن إشاعة أنه ما زال في الداخل، وتمنت أن تكذب هذه الإشاعة، ولكن متى تمنى الفقراء، وتحققت أمنياتهم، حتى الموت لو تمنوه، لغادر ساخرا، وتركهم للمعاناة.

أخرج أمين من الداخل، وغطي ببطانية تجنبا لإفجاع الأبصار بمنظره المأساوي، وراح التخمين يتنامى بين أنه ميت، وآخر قدّر أنه مشوه لدرجة أنه يصعب التعرف على جثته، وارتفعت الأصوات مطالبة بضرورة نقله إلى المستوصف، وآخر رد بأن لا جدوى من ذلك فالرجل ميت، إلى أن وصل إلى الحجرة الوحيدة في المستوصف، ومدد فيها فوق سرير المعاينة، وإلى جانبه وقف أخواه، يرافقهم خالد وعماد وبعض من أبناء المحلة، الذين أنقذوه، بينما بقي العديد من الناس أمام منزله، يؤلفون القصص عن كيفية حصول الحادث، ويلونونها بشتى المواقف من محض الخيال، وراحت إحداهن تترحم على البطن الذي أنجب صافي، الذي ادعى أنه أنقذه، وراح يؤلف لنوال ما يناسب من إجابات على استفساراتها، ويختلق الأكاذيب، التي جعلته يصدق نفسه، وهو الذي لم يكن موجودا في الحي كله ساعة وقوع الحريق.

عندما رفع الطبيب المناوب وجيه الغطاء عن أمين، بدا الأمر من أقسى مواقف التحدي للناظرين، فقد كشطت الطبقة الدهنية عن وجنتيه، وذقنه، وجبينه، وبانت الطبقة العضلية الأشد احمرارا من اللحم الذي يكسو عظام الوجه، ووصل التآكل في الجلد الخارجي إلى منتصف فروة الرأس، حيث اختفى حاجباه، ونصف شعره كانت لحظة فقط، تلك التي طبعت كل هذه الصورة، في ذاكرة الذين أشاحوا بوجوههم متوترين حد الانهيار والتقيؤ، وإصدار أصوات، أو عبارات مبهمة لم تسترعي انتباه أحد، لوقوع الكل تحت تأثيرها.

وأعلن الطبيب عجزه، عن السيطرة على الحالة التي أمامه، وطالب بنقله إلى مستشفى في العاصمة، لأنه بحاجة إلى العناية الفائقة، غير المتوفرة في مركزه.

وصلت نوال إلى مدخل المركز في اللحظة التي أُدخل أمين السيارة وقد صعد إلى جانبه عماد وهشام فقط، وارتمت على نافذة بابها الايسر وهي تصرخ، وتولول، متوسلة، راجية، أن تصعد

السيارة، وزيد ومشهور يجرانها بعيدا عن مسار السيارة، فيما هشام يحث السائق على الإسراع في الانطلاق، وسارت السيارة مخلفة وراءها زعيق زمورها، وفجيعة الأطفال والحاضرين، الباكين والصارخين خوفا، وحزنا، وعمت الفوضى إثر جري نوال خلفها تشد شعرها وتلطم خديها،وفخذيها، وبح صوتها، وسقطت أرضا، لشدة انفعالها، والسيارة تبتعد ويصغر حجمها، لتكبر في صدر نوال الحرقة، وزحفت خلفها عدة مرات، ولكن أنى لما يؤلمها أن يهدأ، قبل معرفة أحوال الأخ الحبيب؟ فيما وقف زيد يبكي بصمت ووقار الأخ المفجوع بأخيه.

أدخل أمين المستشفى، وعاد هشام وعماد بعد يومين، يحملان خبرا، مفاده أنه كتبت له الحياة، ولكن أي حياة؟ هذا ما لم يستطع أحد الإجابة عنه. وكان عماد ذا طيبة ريفية نقية، كخبز التنور الذي يعتبره الفقراء أمنية السلاطين، لذا ظل مناوبا على زيارة أمين، كلما قام هشام بذلك.

بقي أمين في المستشفى حتى شفي تماما، ووافق الطبيب على خروجه. والسؤال الذي حير هشام طوال الطريق يومها هو: لماذا أصر المختار على الذهاب معه إلى المستشفى يوم إخراجه منها؟ فالمختار لم يزره بتاتا، طوال فترة إقامته فيها، ولم يظهر أي اكتراث لما حصل. وما إن دخل المستشفى والتقى الطبيب المسؤول عن حالته ، حتى غادر بعدها، ولم يعد.

عاد أمين، ومن ذهب لهذا الغرض إلى البيت، واستقرأ هشام، أن المختار قرر إزالة فكرة ارتباط ابنته بأمين، من ذهن كل من علم، أو سمع بالخبر، بعد أن عرف صورة أمين الجديد، التي تجاوزت كل التشبيهات، والأوصاف، لما أصابها من تشويه، وكما ردد على مسمع عماد لو أن الحامل رأته لرمت حملها من لحظتها، ثم دعى له كأي داع سمع قصته ولم يعرفه: "كان الله في عونه".

دخل هشام قبل الجميع إلى دارهم - دار الأم حمدية - لتهيئة زيد ونوال، من أجل مواجهة الموقف بهدوء دون إظهار أية ردات فعل، تعكس ما يوحي لأمين ما طرأ من تغيرات على شكله، حتى تتحسن حالته النفسية، ويتقبل مصيره بثبات.

كان عماد على قدر من الذكاء، والحكمة، عندما اتفق مع الطبيب، على أن يتم اخراجه، من المستشفى في وقت متأخر، ليصل البيت ليلا، وهذا أستر له ولسواه.

خشيت نول أن تفشل في عمل ما حذرها منه هشام، لذا دخلت إلى الغرفة المجاورة، ووقفت خلف الباب تنظر من الشق القائم بين الباب وإطاره. وفعلا أصابت في حذرها، فقد أطل أمين من الباب، معصوب العينين، حليق الرأس، وقد قصر أنفه، وتقلصت عضلات جلد وجهه، مما سمح بظهور أسفل اللثتين، وتقلصت بشرة الوجنتين، وضاعت كل ملامح أمين القديمة، وانتست، لا بل أمين هذا راح يسبب التوتر الحاد في نفس الناظرين إليه، وتآكل عنقه، ويداه، فقد بانتا عندما أمسك بذراعيه كل من هشام وعماد، وتقدموا به نحو الداخل، فاختل توازن نوال وراحت تردد: أعوذ بالله! أستغفر الله!

وبحثت عن الدموع والبكاء، وأنى لها بعدما رأته، إنها تحمل في جوفها صراخ المجانين، الذي ينتج عن رعب وخوف، لا يعلم دوافعه سواهم.

أما زيد فقد وقف منهذهلا صامتا، مشفقا إشفاق من لا حول له ولا قوة على ما يراه. عمل هشام ما بوسعه لتلافي الزيارات لأمين، وساعده في ذلك عماد، وظل يحذر نوال وزيد باستمرار من أي رد فعل، ويعود ويؤكد على نوال، التي بدأ يتسلل إلى بقايا استيعابها الإحساس بمسؤوليتها عن كل ما حدث، فلو لم تتصرف بعاطفة دون

عقل، لما رحل أمين، ولما حدث ما حدث. لكن ما تهدم بلحظة، لن تصلحه عبارات الندم، ولا العيش طوال العمر إقرارا بالذنب.

بعد أيام، يقترب أشد المواعيد صعوبة وقسوة، فبعد الغد سيزال الضماد عن عيني أمين. وما العمل حينها؟ إنها حقا كارثة. وأنى لمجموعة مثل هؤلاء الشباب الصغار خبرة التصرف في هكذا لحظات، لقد صقلتهم الأيام على تحمل الخسارات، والحرمان، ولكن لم تصقلهم على معايشة مثل هذه الأحداث.

أبعد هشام ـ تحسبا لتلك اللحظة ـ كل ما يمكن أن يرى، أو يلمح فيه أمين صورته. وكان أثناء ضياع تفكيره، وهذيان تصرفه، يتصور ويحدث نفسه بصمت: لكنه سيرى يديه، لا، يداه أهون، وسيتحمل منظرهما، ويغطيهما، ولكن... حقا إنني حائر.

وراح هشام يدعو الله، أن يفقد أمين بصره؛ كي لا يرى ما يراه، وتعلق أمله بهذا الدعاء، وفيما كان يتخبط كالذبيح، قدمت له نوال كوبا من الشاي، فقذفه بقدمه صارخا: أغربي عن وجهي. وانفجر باكيا بينما اندفعت نوال إلى الغرفة الثانية. وتفهم عماد أحاسيس هشام، لذا تركه يبكي، وذهب يلبي نداء أمين، الذي بادر مستفسرا عما يجري؟ وطمأنه عماد، أنه مجرد شجار أخوي بين نوال وهشام.

صمت أمين متفهما بعضًا من دوافع هشام، وتظاهر باللا أبالية، وطفق يحدث عماد في أمور عادية،، سائلا عن صدفة تعارفهما، فبالرغم من أنهما جاران، لكنه لم يكن يعرفه من قبل، واعترف له أنه كان يشمئز كلما تقابلا ظناً منه أن عماد شاب فارغ متسكع، لما يظهر على وجهه من ادعاء، وعلا ضحك الاثنين.

استأذن عماد وانصرف، على أمل المرور غدا. وجلس هشام قرب أمين، يتأمله متحسرا، ناقما على القسمة و النصيب، والآخر يحدثه موصيا بنوال:

- ثق أنها فتاة رائعة، وعظيمة، وهي وحيدتنا، لذا لا ينبغي أن نلقي على كاهلها مسؤولية كل ما يحدث، فهي ليست سببا بما حدث معي أبدا.

وواصل حديثه، وقد تلاشى صوته في مسمع هشام، الذي بدأ رحلته في وجه أمين، باحثا عن وسامة الأمس، والدموع تنهر بحرارة الدم المغادر للتو عروق الجسد، ولم يستعد وعيه إلا عندما ناداه أمين قائلا:

- عدني، عدني ياهشام، ولم يسمع إجابته، لذا رفع صوته: هشام، هشام هل انت معي؟

فتنبه الأخير وأجابه مطمئنا أنه ما زال إلى جانبه. فأكمل:

- إذن عدني أن تكون حنونا مع أخويك، خاصة نوال.

- حاضر، أمرك يا أخي الكبير.

وأفرحته هذه العبارة، التي اشتاق إليها كثيرا، بعد هذا الانقطاع. واستغرب هشام مثل هذه الوصية، وتساءل في كتمانه: أتراه يحس بغده؟ ونادى أمين على نوال، وجاءت، وطلب من هشام الاعتذار لها، ونفذ هشام مرددا:

وبكل حب أنفذ أوامرك، لكن اسمح لي أن أشرح لها موقفي على انفراد.

نام من استطاع، وظل هشام قلقا، حائرا، طوال ليله، وتقلب في فراشه مئات المرات ثم خرج إلى الباحة، وأشعل سيجارة، وفكر أن يقصد عماد، ويوقظه، ليسهرا معا بضع ساعات، لكنه أهمل هذه الفكرة، لأن الوقت متأخر.

* * *

ليل المتعبين القلقين أطول من عمر السعداء بكثير، فظلمته مليئة بأكوام من الذكريات، وأكداس من التخيلات، والصور المتواردة في رحلة السرحان. هدوؤه أميل إلى الرهبة المرعبة منها إلى الطمأنينة، والاسترخاء، ولقد فكر هشام كثيرا بسبب الحادث الذي رواه أمين، وظل يسكنه وسواس الحذر من القطط كلها، والسوداء خاصة، والأهم ليلا، فأجفل من حركة الباب غير المحكم غلقه، حين صدر صوته بفعل الرياح، وانتفض لسقوط الابريق البلاستيكي أرضا من فوق حافة الحائط في باحة الدار، وتقلص جسده، وخشي النظر إلى مصدر الصوت، الذي راح يصدر عن تصادم الرياح بالأسلاك الكهربائية فوق منزلهم. فدخل فراشه وسكن سكون من يتوقع، أن يبلغه الرعب أينما فر. وأخيرا أغمض جفنيه تعبا من الحيرة والخوف والتفكير.

انطلق النهار بضوضائه، وحيويته، ونشاطه، وأسراره، وتناقضاته. ففي مكان ما من العالم، تتوج اليوم ملكة جمال، ويحتفل بأكثر الرجال وسامة، وتصمم أروع النظارات لأجمل العيون، وتبتكر أحدث أساليب التزيين، وفي مكان آخر أسلم أحدهم وديعته وغادر بلا عودة، وفي الجهة الثانية حيث تشرق الشمس، كل يوم على ملايين الأجساد العارية، الذاوية جوعا، وهزلا، ومرضا، بسبب توزيع أبينا للأملاك والثروات والأرزاق على شائيته، وقد يولد في هذه اللحظات آلاف الأطفال، الذين لا يسمح لهم بقراءة قدرهم، إلا ثانية بثانية، ودقيقة بدقيقة، وساعة بساعة، ويوما بيوم، وسنة بسنة، ليتسنى لهم نسيان ما فات، وربما لكراهية ما هو آت.

وعلى ضفة أخرى يستيقظ ألوف، فيأكلون ويخرجون في نزهات، ويمارسون رغباتهم من جنس، ورفاهية، ورحلات وسواها، ثم يعودون للقيام بذلك من جديد في دورة لا نهائية للآلة الجسدية، وآخرون ينتظرون تحرك عقارب الساعة وبالثواني لإطلاق حداثة جديدة في عالم التطور، ومنهم من يرزخ تحت

مطرقة الرتابة اليومية، وهناك من قرر وضع حد نهائي لحياته للانطلاق بحثا عن جديد، فلقد مل كل شيء باستثناء الموت، فلم لا يلجه؟

لكل زاويته التي يتعرى فيها أمام نفسه، ويحلم منها كما يشاء، فيقرر الانطلاق أو المكوث.

لكن هذا المسكين، الذي بقيت لحظات على موعد لقائه مع وجهه. بماذا سيحلم؟ و بم سيفكر؟ وأنى له أن يحتمل وطأة رحيله، مع وجهه الجديد، لا إنها حياة مصابة بالزكام الأبدي، حيث تختلط فيها المذاقات، ويصبح قضم أي طعام سيان، أكان مرا، أو حلوا.

تقوم الثورات، وتصاغ الأفكار، ويظهر جديد النظريات، ويبقى الحظ، هو الحظ، نمجد اللات،وهبل، وعزى فينا، كل على طريقته، ويظل القدر هو القدر. تتلوى ألفاظنا كالأفاعي برّاقة تحت ضوء الشمس، وتظل متيقظة للدغ عند أقرب فرصة.

وحده هذا الحطام من أنقاض أمين باق مع شبح أمسه في ذاكرة محيطه، لقد ظلم أشد الظلم، أتراه من صلب إبليس؟ أم أنه بؤرة الصراع الأهم بين الإله والشيطان؟

لقد حان موعد اماطة الساتر الممل بين أمين، وأمين، ولقد مل الأول من الانتظار، واشتاق إلى النور، وإلى وجوه الناس، وتفاوت الأشكال، والمكونات، ولامتداد الأجسام، والمنازل، والأشجار، والجبال،والسهول، ولتجوف الوديان، اشتاقت عيناه لكل شيء، وأشدها رؤية وجه وجدان، تلك الحبيبة التي تأخر التزامه بموعد خطوبتها كثيرا بسبب ما حصل، لذا راح ينادي أخوته، ويطلب عماد لإزالة الضماد عن وجهه، فيما هم يتدافعون مسؤولية نزعه. ولكنهم مهما تأخروا مضطرون لمواجهة الموقف، وأين المفر؟

دخل الجميع، وأحضرت نوال وعاء مليئا بالماء، ومنشفة، كي تغسل عيناه، بعد إزالة الضماد، كما أوصى الطبيب كي لا تتأذيا بعد انقطاعها الطويل عن الرؤية.

جلس عماد عن يمينه، وهشام عن يساره، فيما كان أمين يداعبهما مشجعا على التعجل بما أوكل إليهما.

أزيل الضماد، وتنفس الجميع بعمق وخلسة، وكتم أمين خوفه على نظره، ثم توقف هشام قليلا قبل أن يزيل قطعتي القطن عن عينيه، ورفع يده إلى السماء طالبا المساعدة، وفرك يديه، ثم أمسك برأسي إصبعيه القطعة الأولى، وهم بإزالتها، طالبا من أمين الابقاء على عينيه مغمضتين، ثم انتقل إلى الأخرى وقد طلب الصمت بإشارة من إصبعه فوق شفتيه، ثم بلل طرف المنشفة، بالماء وراح يمسح بهدوء مطيلا، راجيا أن يحصل شيء ما، قبل توقفه عما يفعل، وعاد ليطلب بإشارات من يده وشفتيه ضبط النفس. انتهى هشام من عمله، وردد في نفسه ليكن ما أراده الله، وطلب من أمين محاولة فتح عينيه. فلاقى أمين صعوبة في ذلك، فاستراح قليلا، ثم عاد للمحاولة فطلب منه عماد القيام بذلك، بأكبر قدر من التمهل، فلقد بات الجميع كفرقة موسيقية تعمل بانسجام دقيق. ثم كرر أمين محاولته، فشق جفنيه عن بعضيهما، فلمع النور فيهما، فعاد ليغلقهما بسرعة، ثم فتحهما باتساع، تجاوز المحاولة الأولى،وظهر لمن يراه، كيف يرتجف جفناه، وتتحرك عيناه داخلهما بحركة اهتزازية حادة، ثم بدأت تهدآن شيئا فشيئا، حتى استقرتا، وراح أمين يرمش متفحصا آلية عمل جفنيه، ثم فتحهما ليستقبل تداخل الصور، وتمازج الألوان، التي بدت ضبابية، والكل صامت قاطع الأنفاس، معلق البصر على عيني أمين، الذي أحس بدوار في رأسه، وقليل من الصداع، فعاد ليغمض عينيه، ويلقي برأسه على الوسادة.

ارتاح أمين قليلا ثم عاد ليستقيم من تمدده، وفتح عينيه، فظهر له أن الرؤية تتضح أكثر، فها هي نوال تبتسم له، فيقول لها أنت

ترتدين قميصا أسود،وتربطين حول عنقك شيئا أبيض، وانت يا زيد ترتدي سترة بنية اللون، وهذا هشام بكنزته، الصوفية، الرمادية، وأنت يا عماد المكروه، بكنزتك العنابية، وضحك مصفقا فصفق له الجميع، ثم بدأ ينظر إلى يديه، ويهز رأسه، فسارعت نوال لتدارك ما يجري وقالت: الغداء جاهز.

وأثنى عماد على مشورتها وصرح بأنه سيمالح أمين، مسامحة منه على اتهامه بالتسكع والتفاهة.

رفع الطعام وتناول المتآنسون أنس الجمار تحت الرماد، كوب الشاي، وما كان متوقعا حدوثه، أوشك على الحدوث، فقد بدأ أمين يتحسس بشرة وجهه، الذي لم يعد يحمل أية ملامح، تعكس احساسه الداخلي، سواء حزن أو فرح، أو غضب، فوجهه الجديد كفيل، بأن يبقى على ما يظهر عليه من ملامح، ثابتا بتشوهاته ألاف الأيام دون أي انعكاس لأدنى تعبير.

كانت مشاعر أمين أشبه بعداد الأيام في منبه الوقت الذي اشتراه، قبل الحادثة من السوق، فكلما لمست، أنامله جزءا من وجهه، سجلت أحاسيسه ارتفاعا في مؤشر القلق والتوتر،الذي لن يراه عماد وأخوته، إلا من خلال عينيه، لكنه أغمضها أثناء رحلة أصابعه فوق بشرة وجهه، التي ترابطت كعقد صلبة في أماكن، وعادت لتنساب في أخرى، مما يعزز تفاجؤه المخفي، خلف هذا القناع الذي شعر ببشاعته ولم يره بعد.

بكل هدوء صرح أمين أنه يشعر بتغير كامل، طرأ على وجهه. وكان لهشام وعماد سرعة البديهة، التي جعلتهما يعزوان ذلك، إلى احتراق أصابعه، أما وجهه فطبيعي، وراحا يصران على أنه واهم. وكي لا يصدقهما، ويكذب إحساسه، طلب من نوال إحضار المرآة. فتشكلت على الفور دورات بصرية، في حدقات العيون، التي راحت

تتنقل بين الوجوه، بحثا عن انقاذ، وكان لزياد سرعة الحجة، فصرح معترفا أنه كسر المرآة، وخجل أن يعترف لأخته بذلك.

وافتعلت نوال غضبا تقصد به صرف انتباه أمين عن مطلبه، لكن أمين ورغبة منه في حل النزاع، وتحقيق مراده، طلب من زيد التوجه إلى الدكان لشراء واحدة جديدة وعلى حسابه.

تلكأ زيد قليلا، لكنه عاد، ليخرج على الفور، وقد جهز ما سيقوله حين يعود، فيما واصل أمين تلمس وجهه، وتأمل يديه، ثم تنبه إلى منبت الشعر الحليق في رأسه، الذي بدا له وكأنه بات أصلعا.

وجلس عماد وهشام ونوال، يراقبونه متمنين، أن يكف عن تلمس الحروق، راجين أن ينسى أمر المرآة. لكنه زاد إلحاحا عندما رجع زيد قائلا أنه لم يجد في الدكان مرآة، فسأله أمين:

- أذهبت إلى دكان يوسف؟

- أجل، ولم أجد.

- وإلى دكان ظريفة ؟

- كذلك.

- وسألت عند غنوم؟

- وعند غنوم لم أجد.

- هل قصدت دكان دعيبس؟

- حتى دكان دعيبس، قال لي تعال في الغد.

- أمررت على فندة؟

- لقد سألت كل دكاكين المحلة، وعرجت على محلات أطراف المدينة، ولكن دون جدوى.

- أيعقل حصول هذا؟! أم تراها أزمة مرايا عالمية؟!

ثم ساد الصمت، وقد أطرق أمين مفكرا، إلى أن رفع رأسه سائلا:

- عماد ألا يوجد لديك مرآة في الدار؟

- بلى، لكنها كبيرة ومثبتة في الحائط بمسامير منذ سنين.

قالها عماد بلباقة تدخل أمين إلى زاوية الإحراج التي فر منها، فحرك رأسه متعجبا مما يحصل. والآخرون في حذر المترقب خوفا من المباغتة، وفعلها أمين، الذي نهض قائلا: لقد تذكرت، أنا لي واحدة في الدار، سأذهب لأحضرها.

وكيف يمكن في هذه الحال ردعه؟ وفكرت العقول المضطربة، ولكن دون جدوى، وباشر هشام محاولة منعه بحجة تعليمات الطبيب،التي توصي بعدم تعريض الحروق للهواء، ونحن في الخريف، والكل يعرف هواء الخريف وبرده. وعزز عماد كلام هشام، لكن أمين عجلهم بالقول:

- إذا ليذهب أحدكم ويحضرها. وإلا سأخرج بنفسي مهما كلف الأمر.

وظهرت في عيونه إمارات عدم الجدوى من المماطلة.

طلب هشام من نوال إحضار المفتاح الذي تسلمته يوم وقوع الحادثة، وطلب من أمين الهدوء والجلوس، وخرج، ولفتت انتباه أمين مراوغة الأخوة ومعهم عماد، لذلك ردد هامسا:

- أرجو أن لا تسقط من يده وتتكسر.

نظر عماد إلى زيد وقد أدرك الجميع أن لا مفر من مواجهة الأمر.

في الطريق فكر هشام في التباطؤ، وبدرت له فكرة الاستمرار في السير إلى مالا نهاية، والابتعاد عن هذه المدينة وإلى الأبد، لكنه تساءل: ماذا لو أن أمين استأخره، وقرر الخروج إلى الشارع؟ لذلك قرر إحضار المرآة، وليكن ما أراده الله.

عاد هشام وبيده المرآة، وجلس صامتا، فمد أمين يده ليأخذ المرآة، إلا أن هشام أبعدها عن يده، وقد حزم أمره على التحدث إليه، وصاح أمين بعنف طالبا المرآة، فقد قرأ في حركة هشام الكثير مما هو مكتوم عنه.

قال هشام بصوت مليء بالحب تاركا عيناه تصرحان بالدمع، فيما أحس الآخرون باختناق اللوعة الملتهبة في الحناجر والصدور:

- أمين، لقد حدث ما حدث، ولا يمكننا مهما حاولنا تغيير شيء، سأعطيك المرآة، لكن عليك أن تتحلى بصبر الرجال.

وبدأ أمين يتهيأ لمواجهة ما وثق أنه مرعب، وظهر عليه التوتر حين رد بسرعة:

- حسن، حسن، سأصبر، المهم أعطني المرآة. ووثب على يد هشام يريد ما بها، لكن هشام أعطاه المرآة متوسلا منه الهدوء، والصبر.

أمسك أمين المرآة، ووضعها أمام عينيه دفعة واحدة، ونظر، وظل صامتا، لدهر ربما، لثقل وطأة انتظار رد فعله، ثم شهق غير مصدق، مستغربا، وقد تأجج بالانفعال. فأبعد المرآة وهمس:

- غير معقول! أهذا أنا؟!

وأعاد المرآة إلى أمام وجهه، وراح يتلمس، متابعا بنظره، انتقال يده في المرآة.

ـ إذا هو أنا، رددها بحزن جواني، وكأنه بريء يقف تحت حبل المشنقة، ولا حول له.

نظر إلى عنقه، فظهر له كورقة جريدة علكتها فوضوية القرّاء، وراح يعد الطيات فيها، فهذه واحدة هنا، قرب الوريد، وتلك أخرى عند آخر الفك، وهناك واحدة حيث التصقت الذقن بالعنق، مما سحب الشفة السفلى إلى الأسفل، أما الأذنين، فلا وجود لهما. "يا إلهي، أيعقل أن أكون أنا؟!" ثم نظر إلى رأسه الذي خلت منه مساحة واسعة، وصارت ناعمة الملمس، وتغير لونها إلى أصفر ممزوج بالاحمرار.

وعاد ليرى حاجبيه، لقد اختفيا! وحل عند طرفي عينيه، طيات عدة! رمى المرآة جانبا، ثم عاد ليلتقطها بسرعة، وألقى مجددا نظرة سريعة على كل ما رآه، ثم أعاد ذلك ثانية، وثالثة، ورابعة، حتى صدق ذلك، فوضع المرآة الدائرية فوق فخذه، وقد أحكم أصابعه الخمسة فوقها، ثم أحنى رأسه متحدثا:

ـ أقدر لكم محاولاتكم، لكنني غدوت لوحة فنية، من أروع لوحات البشاعة والرعب، بعد كل تلك الوسامة والوداعة، التي كنت أتحسسها من رغبة الآخرين في التحدث، والتودد إليَ، أليس كذلك؟ لن أرثي لنفسي، لكني أعترف بالحقيقة التي جاهدتم حرصا منكم في كتمانها عني.

وظنت نوال، أن الغباء العاطفي قد ينفع أحيانا، لذا تقدمت منه قائلة:

سأخدمك طوال عمري، وأعيش عبدة تحت قدميك.

وظل يواصل حديثه:

ـ لهذا لم يزرني المختار منذ خروجي من المستشفى. تبا لها من حياة كتبت علي.

وجاهرت نوال منفعلة بمشاعرها:

- لكني لا زلت أحبك، وأحتاجك.

- لماذا؟ لتعذبيني طوال حياتي، بمنة لا أستحقها؟

- لا بل لأتزوجك، وننجب أولادا.

وصمتت ولم يعلق أحد على هذا الحوار، فالمهم أن تستقر حالة أمين النفسية، وبأي ثمن.

ثم عاد أمين ليقول:

- أشكر لك إحساسك يا نوال، لكني لن أصحبك معي إلى قبر قبحي، وظلمة بشاعتي إلى الأبد.

وردت نوال:

- لا، لا تقل هذا أرجوك، فلا زلت أراك أمين الذي لم يغادر بيتنا مطلقا، فأنت...

وقاطعها: ماذا أنا؟ أنا ماذا؟ الشخص نفسه الذي كانت النساء بالأمس تتمناه؟ الحالم، والطامح، والمشرق وجهه بابتسامة كما يظهر في تلك الصورة؟ وأشار إلى الصورة المعلقة إلى الجدار، مقابل صورة الأم حمدية والعم عيسى. ورفع صوته يصيح: أهذا أنا؟ قولي، أجيبوا، حدقوا فيّ مليا، أيمكنكم احتمال النظر إلى هذا الوجه البشع؟ أترون، إنكم لا تحتملون الالتفات إليه ولو للحظات، ومشى ببطء إلى حيث توقف أمام صورة الأم حمدية، ونظر إليها ناحباً، باكياً هادراً كالجمل إذا فقد صبره، ثم قال: أماه، أترين ابنك أمين، بت لا أشبهه مطلقاً، هل رأيت جهنم أثناء موتك وأبصرت قبحا كهذا؟ ثم صرخ بأحدّ ما أوتي من صوت مزلزلاً المكان: أماه، ألم يبق سواي؟ سلي الإله، ألم يجد اختباراً للصبر سوى هذا

الاختبار، سلي إبليس، ألم يلق من هو أشد مني في محولات تحديه لخالقه؟ لماذا علي أن أكون أقوى من أيوب؟ أما زال هناك متسع في صدري، لتسكب فيّ مثل هذه النائبات؟ متعي ناظريك، وتأملي، واقرأي ملحمة البشاعة، والقبح، لقد عاش ابن الرومي هلوسة الجنون جراء قبحه، لكنه لم يحي هلوسة العدائية، التي سأحياها في سجن قبحي الذي أحكم إغلاقه، إنها ظلمة أحكم إطفاء نورها بيدي، لماذا علي أن أغمس دقائق حياتي بديامس العزلة، والظلام؟ لم فرض علي تساوي الليل والنهار، وباتت كل الفصول سيان، أوديب فقأ عينيه، كرها لدنسه، فما إثمي لأفعلها، سيزيف حمل صخرته صعودا إلى الجبل، وهو يعلم ما يحمل، لكني أصعد جبل الحزن ولا أعلم أني أحمل سوى هذا الوجه المرعب، بالأمس كنت أمنية الحوامل، فماذا عساهم يتمنون اليوم إذا ما رأوني، أماه سلي الإله هل قتل النفس التي يحتويها جسد يحمل وجه كوجهي حرام؟ يتلف ثوب، فيرمى، يهترئ كرسي فيكسر، تستفحل الحشرات في جسد شجرة فتقطع، لكن ما هو مصير بشر تلفت قدرته على تحمل الآلام، واهترأت وسامة وجهه وروحه؟ ونخرته سوسة القلق، والتشاؤم، وسكون العدم، وتصدع كيانه، وتهدم آلاف المرات، - لا صاحها بأعلى صوته الذي بح من اللوعة - لا جنون هاملت، ولا حقد الليدي ماكبث، ولا غيرة عطيل، ولا ضعف لير، ولا مكر شايلوك، يتسعون مجتمعين لما فيّ، لقد تطهر قراء أنتجونا، وأفيجينيا، لكن من سيشعر بالتطهر لو قرأ ملامحي؟ إي رباه، إن لك العبادة، ولي التشاؤم، والشفقة. إيه إبليس، إن لك الشماتة، ولي احتضان زمهرير البشاعة التي أبليتني. سأعلق جنوني على أغصان شجر الخريف، وإلى الأبد، سأنشر صراخي في ساعات اليل الشتوي، ما دمت حيا، سأدفع المتشفين بحالي ثمن كل قبح الإنسانية، وأضيف إلى حساباتهم ثمن قبحي.

وثار وضرب الحائط بيديه، وضرب المرآة بالحائط، فتحطمت، وتناثرت أجزاؤها، ثم رفس الباب بقوة، واندفع خارجا بقوة، وراح

يركض في الشارع صارخا، تعالوا، هلموا لتروا ما وسوست نفوسكم، وما اشتاق فضولكم لرؤيته طوال فترة غيابي، تعالوا، متعوا أبصاركم، بما لن تنسوه، وراح يمزق ثيابه، ويجري حافيا، قافزا محاولا الاطلالة على سوح الدور من خلف أسوارها، وأخذت تصدر ولولات من هنا، ومفاجآت من هناك، وفر الأطفال الذين قابلوه إلى بيوتهم مرعوبين.

خرج عماد وهشام وزيد يلحقان به، فيما جلست نوال عند الباب تبكي، وترثي لحاله، وهو يخترق الأزقة، والممرات الضيقة، كالسهم، مواصلا صراخه، وقفزه، وقد اعتراه مس من الجنون، وراح يفر من نفسه إلى حيث لا يدري، ولن يدري أحد طريقا له.

عاد عماد وهشام وزيد في وقت متأخر من الليل منهكين، خائري القوى، فقد يئسوا من العثور عليه، و مضت أيام على غياب أمين، الذي راحت تؤلف في حالته أغرب القصص، وأحدثها كان تعليلا حول حريق داره مفاده أنها مبنية على قبر ولي صالح، وقال أحدهم مدعما هذه الخرافة أن هذا الولي كان يحذر أم أمين – زاهدة - حين يأتيها، في أحلامها دوما من مغبة استمرار إقامتهم في هذه الدار، التي يملكها، لكن أبو أمين لم يصدقها، وكان ينعتها بالجنون. وانتشرت قصة تروج أنها مسكونة بالأرواح الشريرة، فقد قتل فيها أبواه، واحترق هو مؤخرا، وراح البعض يدعي زاعما، أنه سمع من أحد المسنين، أنه وقبل بنائها كان الناس يتجنبون المرور بهذا المكان، ومهما كانت الأسباب فإن أمين اليوم صار بغنى عن معرفة بها، ولقد بدأ يظهر في الأحياء القريبة، التي لم تسمع بقصته، بل فوجئت بهذا المجنون القبيح، يعبث بالنفايات بحثا عن طعام، ويطارد القطط شر مطاردة، حتى يلتقطها، فيمسكها من عنقها بيد، ويمسك باليد الأخرى حجرا، ويسحق رأسها حتى الموت، مخلفا وراءه صوت موائها في آذان الذين باتوا يتوقعون قدومه كلما

سمعوا مواءً. وصار مخوفة للجميع، بمن فيهم كبار السن، الذين بدأوا يتجنبون مرآه في ليالي الخريف.

كان يسير ليلا في الأزقة، ويجلس هنا، وهناك، ثم يختبئ فجأة وراء أحد الأعمدة مراقبا القطط، التي كانت تُرى في الصباح جثثا ملقاة على الرصيف، أو في وسط الطريق، مما يؤكد أنه مر من هنا. ووصلت أخبار هذا المجنون إلى مسامع زيد، الذي عاد مساء ليحدث أخاه هشام بأمره، فأرسلا بطلب عماد، واجتمع الثلاثة، ليقرروا الخروج للبحث عنه في تلك الليلة.

حمل هشام مصباحا في جيبه، وقد تأكد من أنه يعمل، وسار أمام رفيقيه، وراح الثلاثة يتشاورون في طريقة الامساك به. الريح شديدة هذه الليلة، والمطر غزير، والبرد يزداد قسوة كلما تقدم الوقت، وأوغل في عمق الليل. هذا ما أحسه الثلاثة، المفتشون عن ضائع، يبحث عن غده المتوفى بين لحظة الحلم بالأمس والحريق.

أحس زيد أثناء سيره كأنه لمح أحدا له قامة أمين يقطع الزقاق راكضاً، لذا تفرق الثلاثة، ليذهب كل منهم باتجاه، كان المشتبه به يسير بسرعة دفعت عماد للاعتقاد أنه أمين، فراح يركض بحذر متجنبا أي حركة، تجعله، يلحظ وجوده، حتى وصل إلى مفترق، يؤدي من خلال زقاق صغير، إلى الجهة الثانية من الشارع، حيث يعبر أمين في هذه اللحظة.

وصل عماد إلى نهاية الزقاق، وكمن بجانب الحائط، ترقبا لوصول أمين. وما إن وصل حتى قفز عماد، وأمسكه من خصره، محكما قبضته على ذراعيه، وراح الآخر يصيح طالبا النجدة مما دفعه لإفلاته ملطفا الحديث مع الغريب الملتحي، المعتمر كوفية بيضاء، موضحا أسباب ما فعل، فتفهم الرجل الذي أخبره أنه قادم من حيث شاهد أمين، يفر من باب الجامع، بعد أن لبس جزمة أحد المصلين، وسرقها، تاركا صاحبها، يعود إلى بيته حافي القدمين.

بعد قليل سمع عماد مناداة هشام الخافتة، تأتي من الشارع الذي قطعه الرجل بعد أن رحل، يستعيذ بالله، متخوفا من مفاجأة أمين. عاد عماد وهشام بعد أن وصل زيد، وتوجه الثلاثة إلى المنطقة المحيطة بالجامع الكبير، وقضوا ساعات تحت المطر بين صفع الرياح لوجوههم، ونخر البرد لعظامهم. ثم عادوا متفقين على مواصلة البحث عنه غدا قبل حلول الظلام.

انقضت أربعة أيام في البحث اللا مجدي، وأجبرت شدة البرد، وغزارة المطر، وسرعة الرياح، المجموعة على التوقف عن البحث.

كان الصباح مشمسا، وانتشر في حنايا دفئه جناح العصفور المختبئ في فتحات الجدران، أو قرب أعمدة المداخن، وفتحت نوافذ البيوت آذنة لأشعة الشمس بالدخول، لطرد التعفن، وكريه الروائح من المنازل. وغصت سطوح البيوت بالغسيل الملون، وبعض الأثاث البسيط، الذي تدلى عن الجدران الخارجية. وبدت المدينة كما تخيلها هشام من الأعلى، أشبه بباحة للسيرك الذي كان يشاهده أيام صغره حين يذهب مع والده إلى العاصمة. خرج الأطفال إلى الشوارع يلعبون، معترضين طريق من ترك داره متأخرا إلى عمله. عبر هشام الطريق أمام دارهم ليدلف إلى الزقاق المندس بين بيتهم ومنزل أمين، فلمح كومة سوداء عند عتبة مدخل باب منزل أمين، وبعض الصبية يراقبونها من بعيد، فأحس برغبة الاسراع لاكتشاف ما يجري، فإذا به أمين الذي بدا متعبا، منهكا، يغط في نوم عميق على درجة الباب الوحيدة أمام داره. تناول هشام مفتاح الدار من جيبه، ووقف يفكر بطريقة يسيطر بها عليه كي لا يفر. لكن أمين، كان له استرخاء منكوبي الأرض كافة داخل ذلك المعطف الأسود، والجزمة العتيقة التي بدت وكأنها جاءت من صلف العصور القديمة بوحلها وأوساخها. وبدا تحت المعطف سرواله،وقميصه اللذين غادر بهما. كان هشام يتحرك بحذر حينما مد يده ليفتح الباب، وراح

يسحب أمين من كتفيه. وأحس بظلام شديد في صدره، عندما لاحظ عمق نوم أمين، فلا بد أنه حرم منه منذ زمن، نتيجة للبرد والجوع، واخذ يتأمل وجه أخيه، الذي نبت فيه بعض الشعر، ولاحظ أنه يضغط بإحدى يديه على جيب معطفه المنتفخ،فبحث فيها ليجده مليئة بقشور البرتقال، ونصف حبة بطاطا، وبعض من فتات الخبز المتيبس، أقطاف سجائر، وعيدان كبريت، وورقة رسم عليها وجه قط، وكتب بالقرب منه "لم أكرهك يوما. لم قتلتني؟" وشعر هشام برغبة البكاء فأسند رأسه إلى رأس أمين المسند إلى الحائط، بجانب الباب المغلق، وجعل يبكي كأنه طفل حرم من مرافقة والدته إلى إحدى الزيارات الحافلة بالضيافة.

استيقظ أمين، ليجد هشاما بجانبه، يبكي بمرارة. وظل صامتا حزينا محدق أمامه باستقامة، غير مستوعب رجاء هشام القائل:

- أرجوك ارحم نفسك، ارحمنا، ابق في الدار، نوال تكاد تموت حزنا عليك، وزيد لا يأكل إلا مضطرا، وأنا لا أنام إلا إذا أعياني السهر، ماذا عساك تفعل بعد كل هذا العذاب؟ أرجوك.

وأجهش بالبكاء إلا أن أمينا ظل يبتسم، وطلب من هشام المفتاح قائلا:

- سأنام الليلة هنا، لأني أريد قتل القط الأسود، هل شاهدته؟ الليلة سأنتقم منه.

ثم قهقه، وظل يقول بقتله يصبح عدد القطط التي قتلت خمسا وثلاثين، ورجاه هشام أن يرافقه إلى بيت الأم حمدية، لكنه رفض، واعدا أن يفعل ذلك بعد أن يقضي على القط الأسود. فخرج هشام تاركا أمينا وقد أيقن فقدانه إلى الأبد.

في المساء، وبعد أن علمت نوال بعودة أمين، طلبت من أخيها السماح لها بزيارته في داره، لكنه حذرها قائلا:

- إياك فعل ذلك. فأمين فقد كل توازنه، وصار عدوانيا، وربما آذاك.

وردت نوال باكية:

لا يهم. المهم أن أراه، فلم تزل صورة أمين الأمس والأخ في رأسي.

- لا أرجوك، يكفينا ما حدث، ولننتظر عله يتحسن.

لم تكتف نوال برأي هشام، لذا ملأت صحن طعام، وحملته تود الذهاب إلى دار أمين، فمنعها هشام، وطلب من زيد القيام بذلك، وأوصاه أن يحمل له خبزا ايضا،

سار زيد مشجعا نفسه على عدم الخوف من أمين مرددا في حفيظته: "إنه أخي، ولا ينبغي أن أخافه، أو أن أشمئز منه".

طرق باب أمين عندما وصل، فلم يجبه أحد، لذا فتح وغرز نظره في مكعب الظلام، الذي يملأ الغرفة، وأخذ يقلص عضلات عينيه، بحثا عن وضوح الرؤية،حتى استفزه همس "هش، هش"

التفت زيد إلى مصدر الصوت، فوجده أمين، وقد جلس القرفصاء، بجانب باب الغرفة الداخلية، صامتا، مركزا بصره على الداخل، فناداه:

- اجلس، وراقب كيف سيموت؟

أحس زيد بالخوف، فهمس لأمين: هذا الطعام لك، ووضع الطعام على الأرض وفوقه الخبز، ثم أخذ يتراجع بهدوء، مركزا بصره على إيماءة أمين له بضرورة الصمت والهدوء.

خرج زيد، وأغلق الباب خلفه، وعاد إلى المنزل، تعصف به لا معقولية أن يكون هذا الشخص أمين، الذي ساكنهم سنوات الطفولة

والصبا كلها. أمضى أمين أياماً في ظلمته، وحيداً، يترقب ظهور عدوه الليلي، ذلك القط الذي توقع بقتله أن تهدأ روحه، وحاول أخواه مرارًا، أن يدخلا الطعام له، لكنه أقفل الباب من الداخل، ولم يكن يصدر عن صمت المكان أي تغير أثناء طرق الباب، مما حملهما على الاعتقاد أنه ربما غادر إلى مطارداته الليلية، التي سجل خلالها في أذهان الناس الكثير، قبل أن يأتي ويتكوم نائما أمام الباب.

صار لأمين عالمًا خاصا من الهلوسة، والجنون، والتناقضات، الخالصة، فهو ينام نهارا، وينصرف ليلا، غير مهتم بمطر الشتاء، وبرده، وريحه، وفجأة يتوقف لوقت طويل في الطريق تحت انهمار المطر الغزير، ويظل ينظر إلى الأرض، حيث تتراقص حبات المطر صعوداً ونزولاً، كأنها في كرنفال، جمهوره أمين، تقدمه على أنغام ارتطامها بالأرض، فينتشي فرحا بهذا المنظر الجميل، ويشعر بالاسترخاء، والهدوء، وأحياناً يجلس على الرصيف غير مبال بتبلل سرواله أو بتلطخ معطفه بالوحول، وإذا ما تملكته العادة، صفع برجليه برك الماء التي يقف وسطها، مهرجًا، صائحًا، فرحًا بتطاير قطرات المياه عاليًا، ثم يثب عالياً حتى يتبلل رأسه بالماء.

ولمرات كثيرة أمضى الليل كله أمام واجهة محل ما ممدداً، متكئاً على كوعه، يفكر في اللا شيء، متأملاً هدوء الليل وتكتكة حبيبات الشتاء المنزلقة بنعومة فوق بساط الأثير، وكان أبهى وأجمل منظر في عينيه سقوط حبات البرد، فيبسط كفيه تحت وجه السماء جامعا ما أمكن من هذه الحبات، التي تجعله مهووساً يضحك بصخب لا مثيل له.حتى إذا ما لفت انتباهه قط ما تغير كلياً، وانقلب رأسا على عقب، ووثب لمطاردته، فما ينفك عنه حتى يلقى مصيره على يديه.

كانت نوال تجلس على عتبة الباب في تلك الصبيحة المشمسة، عندما تعالى صراخ الأطفال، وضحكهم، فوقفت على رؤس أصابع رجليها، وتطاولت بعنقها، تنظر إلى عمق الشارع حيث مصدر الصوت، تأمل أن يكون سبب ذلك أمينا، وكان لها ما تمنت، فظهر

يمشي في الشارع، ويسير الأولاد خلفه يطاردونه بالحجارة، خائفين، ويتجرأ أحدهم فينكزه بالعصا، وآخر يرشقه بالماء، وذاك يشده بطرف معطفه، ويفر عندما يوهمه أمين بالاستدارة ليمسك به، فيما يسير أمامهم بوداعة، غير مستغل بشاعته للدفاع عن نفسه، وقد غدا لشكله المتبعثر التراكيب بعداً دارويني التطور، سريالي البناء، فهنا بضع شعيرات طالت في رأسه، وهناك مثلها في لحيته، ومعطفه الصوفي أشبه بجريدة لعرض القاذورات، وجزمته المليئة بالمياه عمدا منه، لما يسعده من أصوات تصدر عنها عند السير.

ظلت نوال تتمنى بصبر اقترابه منها بدافع الحب، والشفقة، والفضول اللا واعي، والغريزة الحوائية التكوين خليط من الدوافع التقى مع دافع رغبتها بحمايته، وابعاد الأولاد عنه، أثناء سيره الهادئ غير المكترث بما يجري، وهل له في هذه الدنيا ما يدفعه للحرص على الوقت، أو لباقة التعامل، والقيم، فماذا عساه يربح بعد كل ما خسر. تقدم من نوال، التي صرخت بالأطفال، وأبعدتهم عنه، وهو ينظر إلى ابتسامتها، ثم أخبرها عن جوعه، وعصفت بروحها محبة كونية المنبت، فليته يفعل هذا كل يوم، وكل ساعة، وما هي إلا ثواني حتى أحضرت له صحن أرز وفاصولياء، جلس بجانب الباب من الجهة المطلة على الشارع، وراح يلتهم طعامه ببواعث الحرمان الطويل، ثم تناول طاس الماء، وشرب حتى ارتوى، ثم فغر فاهه، وتجشأ، ثم ضحك منشرح الصدر للصوت الذي أصدره، واستغربت نوال ما آل إليه حاله، لكنها كانت أقل حزنا عليه مما مضى. وانتابها فضول اختبار ذاكرته، فسألته:

- هل ترى وجدان؟

- وجدان؟ قطة أبي شكيب؟ لقد قتلتها منذ أيام.

وأصرت هي على فضولها لذا أعادت السؤال ثانية:

- هل ترى وجدان ابنة المختار؟

صمت قليلا، ثم نظر إليها قائلا:

- الجنون هو تلك المساحة التي يحق لنا نحن الفقراء اللعب واللهو فيها مجانا.

ولم يستوقف الغباء نوال عند هذه العبارة، لذا اكملت:

- أما زلت تحبها؟

- كي يعيش الإنسان يجب أن يكون واحدا من اثنين. إما غنيا، أو مجنونا، وأنا لم أستطع أن أكون غنيا لذا غدوت مجنونا، انظري، إذا كان المرء غبيا، نال الهدوء، وإذا كان غبيا ذا حظ نال الغرور المفرح، لكنه إن كان ذكيا محظوظا، فإنه ينال ما يريد، أما إذا كان ذكيا بلا حظ فهو تعس، والأتعس أن اتصف بالذكاء، والتحسس، وقلة الحظ، فإنه لا شك يُجن.

وسألته نوال:

- ما رأيك لو أسخن لك الماء وتغسل رأسك وقدميك؟

فرد عليها وهو يتأملها بطرف عينه:

- عيب.

ثم طلبت منه الانتظار لتحضر له شيئا، وغابت قليلا، ثم عادت بقبعة صوفية، وضعها فوق رأسه، وعدلها، وضحك، ثم أنزل أطرافها المثنية على وجهه حيث تغطى، ولم يظهر منه إلا عيناه، من خلال شقين صنعا خصيصا لهذا الغرض، ثم أعادها كما كانت، ونهض منصرفاً إلى حيث لا يدري، ولا يدرون، وتابعه الأطفال، حتى غاب عن مرأى ومسمع نوال، التي كانت أقرب إلى الشفقة منها إلى الحب والحنان على حال أمين.

* * *

للثلج حنايا الأموات في سكونه، ولا أباليته، فهو يغطي كل شيء حارما الحيوان من مغادرة جحره، وإن فعل فلن يعود، والإنسان من حيويته واسترخائه، والشجر يثقل كاهله، والطير من طعامه. وبالرغم مما في الأمر من صعاب، فإن جمال طبيعته، التي تبدو كأحلام الأطفال، وخيال السكارى، يشحن هطوله بالفرح ثلاثا، المدرس، والتلميذ، والكلب.فللأول فيه إجازة مدفوعة دون منة، وللثاني حرية وكسر لمألوف الانضباط، وأخلاقيات الأول، أما الأخير فإنه ينعم بأجمل أيام اللهو، ومطاردة الطيور الجائعة، والعصافير العاجزة على الطيران.

سدت الطرقات، وأذلت العاصفة كل صاحب حاجة خارج بيته، والتهم الضباب ارتفاعا لا بأس به من فضاء المدينة، وراحت السماء تعب دخان البيوت، كأنها رئتي مارد محروم، والتزم الناس البيوت، وتسمر الأطفال أمام زجاج النوافذ، بعضهم يراقب امتداد بياض الثلج وتناثر رقعه هنا وهناك، وآخر راح يزفر أنفاسه الحارة فوق الزجاج، ليكتب، أو يرسم فوق ضباب أنفاسه، وغيره يضغط طابعاً شفتيه وأنفه، وانشغلت النسوة بأمور الطعام والغسيل،والتزم السكان بيوتهم، عدا تزاور بعض الجيران الذين أرادوا القضاء على الملل بلعب الورق، أو تناول فطور الكشك المغلي أو قطع الشمندر السكري المشوية في المدافئ، والمواقد.

استيقظت سمية من نومها على صوت الجدة نعمت، التي راحت تثرثر أثناء بحثها عن النفط لتصبه فوق حطب الموقد لتشعله، كانت سمية متعبة كثيرا جراء ليلة الأمس، فالكابوس الذي لاحقها فيه شبح الملثم، أثقل المكان بوحشية أبشع من وحشية الذئاب، التي كانت تتابعه بعد يأسه من اقتحام المنزل.

غالبت تعبها، واستفاقت بشكل كلي عندما فقدت السيطرة على جسدها الذي اجتاحته لسعة البرد القارص، فاصطكت أسنانها، وكادت تتجمد يداها أثناء غسلها وجهها بماء المطر من دلو عند

أسفل المزراب خارجاً بعد ان حطمت طبقة الجليد فوقه، فلعنت، وسبت، وبصقت، دون أن تشفي غليلها، فعادت لتنفخ هواء فمها الدافئ على أصابعها المزرقة من شدة البرد، وركضت لتتكور أمام الموقد، تفرك بيديها، وتردد مقاطع صوتية تصدر رغما عنها، وكغيرها من نساء هذه المدينة، خطرت لها فكرة إعداد طعام أو شراب ساخن، يحفظ المعدة من البرد، فنهضت على الفور، وملأت طنجرة بالماء، ووضعت فيها قمحا وذرة لتصنع (القلبة) ثم أشعلت البابور ووضعتها فوقه.

انتصف النهار، وشقت الشمس ملاءة الضباب، ونثرت نورها رغما عنه، وراحت تنسل خيوطها، واحدا تلو الآخر، فيفر منها كومات، كومات، كأشلاع أغنام شتتها قطيع ذئاب. مسحت سمية زجاج النافذة، ونظرت إلى الخارج، مبتسمة للثلج الذي طمر المنزل إلى حافة النافذة، وبامتداد لا يبلغه البصر، على يمين النافذة تكورت أشجار التفاح الصغيرة داخل غلاف ثلجي، كأنها زهور عملاقة من القطن، وعلى مسافة تلون قوس قزح، كامرأة تزوجت بعد حب دفعت ثمنه سنين من الانتظار، همست سمية لهذا المنظر وقالت:

- الله، جدة نعمت تعالي، وانظري ما أجمل الطبيعة.

وردت نعمت بينما كانت تحمص قطعة خبز:

- من، مطيعة؟ ما بالها؟

- لم تأت هذا النهار. وضحكت لعدم ترابط الحديث.

ثم راحت تسرح بصرها، بوداعة طفل يقف أمام واجهة محل للألعاب مأخوذا، فهذه كتل ثلج تهوي فجأة عن أغصان الأشجار، التي ظهرت تحتها كصفوف المصلين أثناء السجود في أيام الحج، كما رأتهم في الصور التي جلبها معه أبو وهيب من مكة، وهنا على حافة النافذة، نقشت براثن العصافير آثارها كرسوم فوق طرحة

عروس، وعلى مسافة قريبة من النافذة حط سرب بجع مشرئب الأعناق، وفجأة صفق بأجنحته وطار، بعد أن هاجمته مجموعة من الكلاب، وظلت تقفز وراءه، محاولة اللحاق به، فاستغربت سمية أن يكون للكلاب حلم الطيران كالبجع.

ليتها أمضت ليلة الأمس في حلم كهذه اليقظة. بدلا من حقيقة الكابوس الذي كان ينام إلى جانبها فوق الوسادة. هذا ما كانت تتمناه حين قطع عليها شرودها صفير طنجرة الضغط، الذي استمر بعد تقطعه، كما كانت تفعل صفارات الحرب حين تأتي الطائرات المغيرة، انتظرت قليلا ثم اقتربت منها ورفعتها بعد أن أمسكتها من قبضتيها الساخنتين بطرف ثوبها، ووضعتها خلف الباب، وطربوش الصافرة يغزل زافرا آخر ما في رئة هذه الطنجرة، ثم عادت لتضع مكانها ابريق الشاي لتسخن ما تبقى فيه من ليلة الأمس.

تناولت والجدة جنطاسين من القلبة المحلاة بالسكر، ولبست سترة راجي الخاكية (الفلد) وانتعلت الجزمة المطاطية، ولفت رأسها بشال صوفي أسود، وفتحت الباب المسدود أمامه بالثلج، وراحت تشق طريقها إلى كومة الحطب، تريد بلوغ الرفش، الذي سترفع به الثلوج، كانت عضلاتها تعمل على فتح الطريق، فيما فكرها منشغل بالقلق على أبي سهيل، وراجي، وحالهما في هذه الظروف؟ وهل سيحملان أخبارا تطمئنها، أم سيعودان كما في المرات السابقة؟ ثم تذكرت أخاها سمير، وراحت تتساءل: "تراه ماذا يفعل الآن؟"

وأخذت الجدة نعمت تصرخ من الداخل مطالبة بإغلاق الباب. وتسعل، وتلعن وقد تحشرج صوتها لانطفاء النار، وانتشار الدخان في المكان، ثم تسأل عن عصاها، محذرة سمية من أن تكون قد وضعتها في الموقد. فتطمئنها الأخرى، فتكمل نعمت تحذيرها:

- إياك أن تحرقيها. فأنا بدونها لا شيء خاصة عند حاجتي للتبول.

فتبتسم سمية، حين تتذكر عدد المرات الهائلة الذي بالت فيه نعمت على طرف ثيابها، وراحت تنشرها أمام اشعة الشمس لتجف.

تنأى دار أبي سهيل عن زحمة المدينة، لأنها متطرفة عنها، خرجت العجوز نعمت، تحبو فوق الثلج، وجلست القرفصاء، وقد غرزت العصا في الثلج أمامها واتكأت عليها بكلتي يديها، وأغمضت عينيها، وتنبهت سمية لذلك فهزت رأسها ضاحكة، واستمرت في عملها، تزيل الثلج حيث ينبغي، ثم رفعت بالرفش الثلج الذي كان تحت نعمت وقذفته بعيدا، فلمحت أثناءها رجلا قادماً من بعيد، يحدو بجسده الضخم، فحدقت لتتعرف عليه، فظهر لها أنه عثمان، ومباشرة عرفت كيف ستستغله، فأعدت له جنطاسا من القلبة، وزادت له السكر و البهارات، ووقفت تنتظره. وصل عثمان ينتعل على غير عادته حذاءً تمزقت مقدمته، فتناول من يدها رزقه، وراح يلتهمه بشراهة، وينظر إليها وفي جمجمته أمنية واحدة.

أنهى عثمان العمل الذي كلفته به، حتى قارب النهار على الرحيل، فقد اندست الشمس وراء ذلك الغلاف الفضي الشفافية، وتلونت رؤوس الجبال بذوبان الثلوج عن قسم منها، وعادت الرهبة لتمتلك سمية مع اقتراب حلول الظلام القادم من عمق الوادي الذي يشق الجبل الشرقي إلى قسمين، وارتجف جسدها مع هبوب نسيمات المساء المتزايدة برودتها، وسرعتها، وطموحها، لتصبح ريحا عاتية، فكل شيء يسكنه الطموح نحو بلوغ الأفضل، فالحصى تظل تستقبل الترسبات زمنا لتصبح حجارة، وتنحدر السيول متمنية تحطيم ما يعترضها لتبلغ ما تريد. وتسبح الغيمة في الفضاء ملاحقة غيمات مثلها لتتحد بها، وكل شبيه يبحث عن مثيله ليتعاظم به، إلا الفقراء الذين يزيدهم الفقر عزلة وفرقة.

احتارت سمية في أمر عثمان، وكيف ستصرفه، لأنه وكما يشاع لزقة، فإن جلس فلن يرحل، وربما قرر النوم، لذلك سارعت إلى احضار كيس مليء بالطعام من الداخل، وأعطته له، وطلبت من

الانصراف، والعودة حين يذوب الثلج ليرافقها إلى الغابة، فرف قلبه فرحا لهذا الموعد، ورمش بجفنيه مرات سريعة تعبيرا عن شكره، وقفل راجعا يحمل نقاء القناعة، ولا وعي الغرض.

دخلت سمية، وأحكمت إقفال الباب، ثم أشعلت النور، ووضعت إبريق الشاي فوق الجمار، وجلست إلى جانبه، تطبخه بمزاج هادئ. فيما انزوت الجدة نعمت، تتفقد ما في كيسها القماشي القديم، المعلق إلى عنقها، ولآلاف المرات، حرصاً على ما لا يمكن لأحد أن يعلم محتواه، لكن الجميع واثقون أنه مليء بالفاقة، والفقر، وسخافة الذكريات والإرث، فغصت سمية بالحزن، ودمعت عيناها، حين رأتها تتمسك رغم كل البؤس بالأمل فكأنها ستعيش إلى الأبد، محتفظة بأسرارها، ومخفيات أيامها، وسرحت مخيلتها في مقارنة بين هذه العجوز، والطفل الذي ستلده بعد أشهر قليلة، وراحت تتحسس بطنها بكفها، متمنية أن يتغير بها الحال نحو الأفضل علّها تسعده، وأنى للفقراء بأكثر من إضاعة الوقت في التخطيط، والتفكير، ثم الاستيقاظ على صراخ الحرمان، وألم اللوعة المفجعة بعد فوات الآوان، وعلا غطاء ابريق الشاي مهتزا فوق البخار، يأذن لرائحة اختماره بالتسرب، فلجمت عدمية غريزة الأحلام، ومدت يدها تمسكه، ففقعت جمرة، وتتطاير شررها، ليلسعها، فتراجعت، ومدتها ثانية بقطعة من القماش، وأزاحته عن الجمار، لتضعه فوق الرماد عند حافة الموقد، بعد قليل تعالى في المكان صوت الشاي، الذي تسكبه سمية في الكوبين، ثم قدمت أحدهما للجدة، وتناولت الآخر، وقربته من شفتيها، وراحت تنفخ فيه، وتنظر من النافذة إلى الخارج، الذي بدأت تختفي ملامحه في كنف الظلام الثلجي، وها هي فئران السماء قد عادت، لتقضم الفراش الغيمي الأبيض، وترشه في الفضاء، فيتساقط قطنا، يضمد جراح الأرض المثخنة من اساءات البشر الدهرية.

غريبة وعجيبة الصورة التي تتخيلها سمية أحيانا، هذا ما خطر لها، عندما قرع الباب، وقفز إلى ظنها شك عودة كابوس الأمس. فلاذت بالصمت، وعاود الطرق، وقد صاحبه في هذه المرة صوت أبي سهيل مناديا:

- سمية، هذا أنا عمك، لا تخافي، افتحي.

وأي فرح، وأية دموع يمكن أن تخفف عن صدرها، فقفزت نحو الباب، وأجهشت بالبكاء، ورددت بحرارة:

- لقد عادا يا جدة نعمت، عادا.

وأمسكت رتاج الباب، وفتحته، وارتمت فوق صدر عمها شاكية ضعفها، وعناءها، وانتظارها المزدحم بأفكارها المأساوية، وربت أبو سهيل على كتفيها، وغمز لراجي، كي يتولى بقية الموقف، فلقد أعطته الخبرة، و أكسبته سنونه السبعون دفئا، يجعله يقدر تكاليف الحياة.

سلم راجي على زوجته بدفء، وعانقته باكية، ثم ركعت عند قدميه، تساعده في نزع جزمته، التي تدرك موقنة أنها لم تخلع منذ غادرا، ثم فعلت لعمها ما فعلت لزوجها، وتناولت من كل منهما ملابسه المبللة، والتي صارت عبئا عليهما، أكثر منها دفئا لهما. وانتقلت إلى إشعال بابور الكاز، تحت طنجرة المياه، وعززت الموقد بالحطب، ومدت لهما بساطين صغيرين قبالة الموقد، وجلسا يفركان أرجلهما المتخدرة بردا، سخن الماء، وسكبته في اللكن المعدني، واختبرت حرارته بيدها، فعدلتها ببعض الماء البارد، ثم سحبته إلى حيث يجلسان، وراحت ترفع قدمي كل منها وتضعها في الماء الساخن.

كانت الجدة نعمت تدلي بتوجيهاتها، التي تثير اشمئزاز سمية تارة، وتضحكها أخرى، ثم راحت نعمت تقص عليهما، ما حدث أثناء غيابهما.

بعد قليل أحضرت سمية قدر القلبة، الذي يتصاعد من البخار، فعلق أبو سهيل قائلا:

- آه، صحن المغلي الآن يساوي قصر كسرى.

وأكمل راجي:

- بحاشيته، وعائلته، والكلب الذي يحرس الباب، والذي عاش أفضل من عيشنا.

فردت سمية بحدة: فشر. وهز أبو سهيل رأسه موافقا.

صمت راجي مؤمنا أن هذا ما يستطيعه الفقراء"حصرم رأيته في حلب" كما علل الثعلب عجزه.

جلبت سمية الممسحة ومدتها تحت ثيابهما التي راحت تسيل منها المياه على الأرض، وعادت تقشر البطاطا، التي سلقتها، ثم دعكتها بأسفل الكوب الزجاجي، وأضافت لها البصل المفروم، والمحمر بالزيت المقلي، وقدمته لهما، استدار أبو سهيل تاركا جانبه الأيسر قبالة الموقد، وأدار راجي ظهره، للنار، وانشغلا بتناول الطعام، سكبت لكل منهما كوب شاي، ودعت الجدة إلى المائدة، ولم يشغل المكان سوى نزول الأيدي وصعودها فوق الأكل.

ارتاح أبو سهيل، وتمدد بطوله على جانبه، وانتقل راجي من مكانه، وبادرت الجدة إلى السؤال:

- ها، ماذا فعلتما؟ ولم تأخرتما؟

تنهد أبو سهيل، وراح يحدق في الجمار، فيما كان راجي ينكش أسنانه بعود ثقاب، ونهضت سمية ترفع المائدة، وترتب المكان، وعاودت الجدة سؤالها.

وعز على أبي سهيل إلحاحها فقال:

- سمعت، سمعت، ولكني أفكر بما سأجيبك؟

- قل ولا تفكر، ماذا هناك؟

- كالعادة، لا شيء.

- ماذا تعني لا شيء هذه؟

- تعني أنا قضينا سبعة أيام في الجبال، بين الأشجار، والصخور، نختبئ من الوحوش تارة، ومن المطر والبرد طوراً، من كهف لآخر، نأخذ غفوة، ثم نواصل البحث، كمن يبحث عن إبرة في بيدر تبن.

ولم يشأ أن يكمل حديثه لأنه متعب حد النعاس، لذا قال:

- دعيني أنام، وسأخبرك غدا كل شيء.

التعب الجسدي، والصبر، حالان لا صراع بينهما داخل الإنسان، لذا حين تنتهي رعاية الصبر لروح أبي سهيل، تراه يستسلم للنوم العميق، عسى أن يقضي الله أمرا مأمولا. فأي صبر يتسع لما تحمله من تحد منذ سنوات، فلقد رفض الزواج وفاء لزوجته أم سهيل، وعمد إلى تربية ولديه راجي وحنين، بعد وفاتها بمرض لم يعرف سببه، فبعد موت ابنها سهيل، الذي كان قدومه إلى هذه الدنيا مدعاة حزنها وكآبتها بإعاقته، ومرضه، وسنينه التي عاشها استنزفت كل قدرات أم سهيل، حتى قضت بعد موته بسنتين.

ومنذ أيام راحت حدود صبره تتقلص أمام ما لاقاه في بحثه خلال العاصفة التي شحنته بجنون القلق والرغبة في مواصلة البحث، والصور التي لا زالت تتموج في باقايا صحو مخيلته العتيق، فها هي كالكابوس لحظات فصل فيها الظلام بينه وبين راجي لساعات، عندما ازدادت سرعة الرياح، وغزارة الأمطار، وكانا يسيران في الحرج، المكتظ بالسكون والخوف والأشجار، وتعالت النداءات من كليهما، دون أن تلقى الإجابة، وتتعثر أقدام كل منهما بالصخور، ويسقط مرات أرضا، كما حصل لأبي سهيل حين علقت قدمه بألياف الأشجار، وانزلقت الأخرى، عواء الذئاب، وصراخ الخنازير البرية، وهمس حيونات وحشرات لا ترى، أصوات يقشعر لها البدن العاجز عن القشعريرة لشدة البرد، وذاك شبح ما، من صنع خيال أحدهما، ممدد على الأرض كالجثة، كل هذه الأحداث، ربضت فوق الوسادة إلى جانب رأس أبي سهيل، وأمام عينيه الواعلتين في ظلام الكهف الذي آوى إليه نهارا، يكاد يسقط من شدة البرد، ودون جدوى، فلا حطب ناشف، ولا ما يدثر به جسده المسجون في ثيابه المبللة، ولا خيط أمل يقوده إلى ما يبحث عنه.

سحب الوسادة من تحت رأسه، ووضعها فوقه، وغطى وجهه، محاولا سد سمعه، وجفنيه عسى أن ترحل هذه الصور عنه فيحصل على حلم يعيش فيه ما حرمه الواقع. بينما راح راجي يتجواز ضوضاء الجثة، ليدخل في شخير هادئ، كوقار غرغة النرجيلة في مقاهي الحي العتيق من المدينة.

تأخر الجميع في النوم، وفتحت سمية جفنيها، وقد أحست بالنشاط، لتمتعها بنوم عميق ليلة الأمس، فنهضت، تعد المكان كما ينبغي، كشرط من شروط استمرار الحياة، في هذه النهاريات الرمادية اللون، الفراغية الفضاء، كما لو أنك في ردهات المستشفيات الحكومية.

بدا أبو سهيل بعد ما نال من راحة شاحب الوجه، كئيب الملامح، منكسر الطرف، مترهل النبرات التي تخرج من حنجرته، مفرطا في التثاؤب، مجيبا على سؤال سمية عن رحلتهما بـ"لا" على قدر مسافة اليأس من الوصول إلى نتيجة.

قرع الباب في وقت مبكر هذا الصباح، على غير عادته، فأفاق راجي منزعجا وردد:

- يا فتاح، يا رزاق! من هذا الذي نام أمام الباب ليوقظنا في هذا الوقت؟

وخشيت سمية أن يكون عثمان، الموعود بها، فتلفتت إلى الجدة المنشغلة بهذيانها عن ما يحصل نهض أبو سهيل من فراشه، محاولا الاعتدال في وقوفه، فقد بدا متيبسا، وخطا كالأعرج، مستند بيده اليسرى على فخذه الأيسر، ويمناه تهرش مؤخرته، بعد أن استفحلت فيها الحكة، حين سرى فيها الدفء، ورد على راجي:

- ليس الوقت مبكرا، لكنك تحتاج إلى النوم.

فتح الباب ليقف أمامه شخص غريب، ماسبق أن رآه من قبل. كان الرجل في متوسط العمر، حليق الرأس، له لحية شديدة السواد، طال نسبيا شعرها، يرتدي ملابس لا تلائم الطقس في الخارج، الأمر الذي أدهش أبا سهيل. سلم عليه، وانكفأ من أمام الباب، مرحبا بالضيف.

دخل الضيف مشترطا عدم تأخيره. فاستغرب أبو سهيل طلب هذا الغريب، الذي لم يفصح عن حاجته بعد. وظل يتأمل وقوفه في عتبة الباب، ويستمع إلى ما يقوله:

- طبعا لن أخبركم من أنا، ولا أين أسكن، ولن تحرجونني في السؤال، والمهم أني أحمل لكم أمانة هذه الورقة، من صديق لي،

عرفته خلال فترة السجن، التي غادرتها مع فجر هذا اليوم. ولن أقبل منكم أي تأخير مهما ألحيتم، لأني أريد الوصول إلى دراي لألقى زوجتي، وأولادي.

وسلم الورقة، التي بيده إلى أبي سهيل، وبلمح البصر فتح الباب، وراح يسرع في الابتعاد، كما لو أن الرعب استبد به. وتعلقت أنظار الجميع على وريقة مطوية بحجم حبة العلك، ثم تنبه أبو سليم لما حصل، فمد رأسه من الباب، ليرى أنه لم يخلف وراءه سوى أثار أقدامه باتجاه المدينة.

أقفل الباب، وعاد يتأمل الورقة، رافعا حاجبيه، ماطا شفتيه، مستغربا، وعاد لينظر إلى سمية وراجي، اللذين انشغل تفكيرهما بمصدر، ومضمون هذه الورقة.

فتح الورقة بهدوء حذر، كي لا تتمزق، فقد ظهر التلف على طياتها، وما إن وقع بصره على الخط الذي كتبت به، حتى صرخ مذهولا: إنه خط حنين. وهذا توقيعه. يا إلهي، غير معقول، واستدار مسرعا نحو الباب، وفتحه بعنف، يريد ذلك الغريب، وأين هو؟ لقد اختفى في المجهول، ولا من يعلم طريقه، أو عنوانه، أو اسمه. وقفز راجي وسمية من جلوسهما، عند سماع كلمات أبي سهيل، كاتمي الأنفاس، مرهفي الاستعداد، لإدراك أدق التفاصيل.

تقدم راجي من أبيه طالبا الورقة لقراءتها، والتهمت عيناه حروفها التهاما، فقد جاش قلبه بالأخوة، التي أمضت وقتا طويلا، تبحث عن الشقيق دون جدوى، ثم أخذ يقرأ على مسامع الجميع، ما ورد فيها. "لقد اعتقلت منذ شهرين، وأنا أتعلم احتمال العيش في الظلام، تحياتي لوالدي ولكم حبي." ووقع باسمه (حنين).

تقدم أبو سهيل صامتا كالمسيح، يحمل صليبه، وارتمى فوق فراشه، بينما أجهشت سمية بالبكاء، وجلس راجي يبكي بصمت، ويعيد قراءة ما قرأه عدة مرات.

أغمض أبو سهيل عينيه، وكعادته استسلم لصراخه الداخلي، مجنبا من حوله ما يجيش به عالمه الجواني، محدثا نفسه: إذا لقد اعتقل قبل موعد حضوره إلى قلعة الحباري، فيما راجي يبحث وحيدا وينتظر، ويعاني، ما عاناه، ولقد بحثنا معا لأسبوع، تحت الشتاء، والثلج، حتى أيقنا، اننا قد نجده جثة ممددة بين لحظة، وأخرى، بجانب صخرة ما، أو في مغارة، أو نجده بقايا عظام وقد أكلته الوحوش، اشعر الان برغبة الموت، لسماعي هذا الخبر، رغم أني تمنيت بعد يأسي من البحث، أن أجده ولو ميتا، أو أن أحصل على خبر منه بأي شكل، وعندما حدث، أراني يغلف عقلي، وروحي، وقلبي، وجسدي، حزن أشبه بظلام الأبدية. يا إلهي صبرك، وأجهش بالبكاء، يشاركه الجميع النحيب، بمن فيهم الجدة، التي أخبرتها سمية.

كانت نعمت تحبه، لأنه كان دافئا، ذكيا، ولكم فتنها بقصر قامته، المشحون بالحيوية. وشعره الحلزوني الخصل، والتي تشبه أشكالا أراها إياها في أحد كتبه ذات يوم، ذلك الكتاب الذي كان يحمله دائما تحت إبطه.

كان كثيرا ما يخبئ عندها أوراقا ملفوفة، دون أن تعرف محتواها، ثم يعود ليأخذها دون إرجاعها، ولكم جلس خلف الدار صيفا ساعة الغروب وحيدا، يتأمل شفق الغروب المزنر امتداد الجبال الغربية، مشفقا على الحزن المسائي الذي يبدو واضحا على وجه مدخل المدينة من جهة بيتهم. كان خلال دراسته للمرحلة الثانوية يتغيب عن المنزل لأيام، دون أن يقلق عليه أبوه، لأنه خبر ملامح الرجولة في وجهه منذ ميلاده. وعندما انتقل إلى المرحلة الجامعية في العاصمة كان نادرا ما يطلب المال من أبيه، رغم قناعة الأخير بحاجة ولده للمال. وأنهى دراسته دون اللجوء لأبيه، أو أخيه ماديا. وظن الأب أن ولده ربما يعمل في المدينة، إلى جانب تحصيله

العلمي، وتجنبا لشعور عرف بكراهيته منذ صغره ألا وهو الإحراج.

ظل راجي يقلب الورقة، ويتأملها، مغتما، يهز برأسه، لما لمح على الوجه الآخر منها اسم نوع من السجائر. وفهم بذلك طريقة حصوله على الورقة، والكتابة فوقها بعود ثقاب محروق، وتساءل: هل بدأ يدخن؟ ربما! فماذا بوسع سجين يعلك الوقت فوق مسافة يحاول اجتيازها دون جدوى؟ لا شك أنه يحدق في زوايا مكعب الظلام، آلاف المرات يوميا، مدخنا، مفكرا بأبعد ما يتذكر، مغتاضا، يضرب الجدران بيديه، ورأسه، ويركل برجليه، فينهار متعبا باكيا. أم تراه يلتزم الصمت حتى تراوده رغبة التقيؤ من مرارة الأفكار، التي تحلق به فوق مسافات بعيدة، ومن مسافات بعيدة أوسع من مساحة السجن.

أخذ كل من في البيت، يجتر بقايا حنين في مخيلته، وكيف لا يذكرونه، وقد غدا كل عالمهم، وأسرارهم، فهذه سمية تفتقده بأشد ما يمكن أن يفتقد المرء خله، لأنه كان قريبا منها أكثر من زوجها، لا بل كم من مرة أنّب خلالها راجي على إهماله لزوجته، وكم مرة صحبها في نزهة إلى الجبال القريبة، أو في أسواق المدينة، وما من مرة قدم فيها من العاصمة دون أن يحضر لها هدية، حتى في فترات إفلاسه، كان يحمل لها في جيبه علكا، أو قطعة من الحلوى، أليس هو الذي جلست تشكو له قسوة الحياة، ومشقاتها؟ فيحاول تبسيطها بأفكاره الفلسفية، التي ما كانت تفهمها كلها، لكنها كانت تخرج من روحه، فتريحها: "ثقي يا سمية أن أعدل الأصدقاء هي الحياة، فالإنسان ماكر، يبدي النعومة، ويسر الضغينة، أما الحياة فهي صديق حر، يظهر غضبه، وفرحه، وفقره، وغناه، وجماله، وقبحه، وكافة مكوناته، متجنبا تعريض أصدقائه للخديعة".

وتبذل سمية جهدا لفهم ما يقول، وإن عجزت، لا يخفى عليها حرصه، وصدقه في تخفيف معاناتها. ولكم ساعدها لتحفظ هذه الكلمات التي أخذت تتذكرها:

"إن الحياة تنتعش إذا آمنا بالحب، لأنه نتاج الحرمان، ويجب أن نبلغ بعطائنا الإدمان، عندها نصل العشق، وكل شيء زائل، إلا ما بني على حب، خاصة حب إعادة ترتيب ما أفسده الإنسان". وكم تحدث لها موجزا عن أمور لا تذكرها، لكنه كان قريبا، قويا في السيطرة على تركيزها، وانتباهها أثناء خوفها، وحزنها، ولقد ظلت تسمع له، وإن لم تكن تفهم ما يقول، فيقهقه عليا، وتختفي عيناه الصغيرتان أثناء ذلك، ويغيب معهما بريق تلك العيون، وحزنها المزمن، الذي لم يفهمه أحد سواه، وكانت تسأله ولمرات عن أخباره العاطفية، فيما كان هو منشغل بالحديث عن أفكار، ومبادئ. كانت تتشنج عروق رقبته مرارة، وحبا لها. وتكمل هي: "إني أحسدها وأهنئها أيضا على نصيبها، تلك التي ستحتفظ بك وللأبد".

فيرد قائلا: ليتني أجدها يا سمية. ثم تحمر وتغور عيناه بالدموع، التي تشبه هرهور عنب تحت دالية برية، تلمع حبيباته تحت خيوط الشمس، في الصباحيات الريفية الباكرة، وتجتاحه مسحة حزن، لأنه يعاني ومنذ طفولته حاجته للعاطفة، حاجة العصور الجليدية لصيف حار. فقد فشل في ترويض عقل صديقته المراهقة، على تقبل أفكاره الفلسفية.

وماذا عساها تتذكر من حنين، الذي لو عرفه المرء للحظة، لاحتاج لسنة كاملة لإنهاء حديثه عن هذا اللقاء. وعوى في أحشائها سؤال: "كيف لهذا الأب أن يستغرق في النوم إثر هذا الخبر؟"، ونسيت كم تكلف الصلابة الرجال، في مثل هذه المواقف من احتراق وجداني، وكيف لها أن تتغلغل بين جفنيه، لتصل إلى مخيلته، لتعرف نوع الشريط، الذي استحضره في هذه اللحظات. لقد نسي هذا الأب من شدة اللوعة وجه ولده، ولم يعد في نفسه حاجة

أشد إلحاحا من حاجته لتذكر ملامحه. مما اضطره العودة في شريط الذكريات إلى يوم ولادته، وسلسلة الصور التي خلفها مفقودة.

كان حنين أكثر وضوحا في حيويته، وأكثر غموضا في أمانيه. فمع أول محاولات سيره، انتعل حذاء أبيه، فبدا منظر قدميه فيها، كسارية فوق إحدى السفن المحبب إليه تخيلها. وبعد قسط من الزمن، كان أكثر الأبناء حاجة للرعاية بعد موت أمه، لذا تمتع بقدر كبير من حرية التصرف، وهذه صورته تقفز إلى مخيلة أبي سهيل، يوم وجده يقف على صندوق أمه الخشبي المركن إلى الحائط تحت النافذة، ويفتح النافذة، ويتبول عبرها فرحا بمنظر القوس المائي الذي يشكله.

أحس أبو سهيل بالندم على الشدة التي عامله بها يوما، وراحت مخيلة الأب التي تثقل أعضاء جسده، تتلقى العديد من الصور. فها هو يرتدي قبعة والده، ويضع بز السجائر في فمه ممثلا دور الأب، والعائلة تصفق له ضاحكة، وها هو يعود من المدرسة صامتا حذرا فقد تبعه ابن أبي شادي شاكيا ضربه له بلا سبب، فيثور غضب الأب، ويجلده بلا رحمة. وينام باكيا محروما من العشاء، وغلبا يأبى تناول فطور الصباح بعدها. وذهل أبو سهيل لسرعة ابتعاد حادثة الأمس القريب، حين اضطر حنين لتناول بعض المال من جيب والده دون علمه، ليتبرع به إلى صندوق التبرعات الذي كان يجوب المدينة، وعاد ليدفع ثمن فعلته علقة مبرحة، بعد عدم اقتناع الأب بتبرير التبرع بالمال.

لقد تميز حنين بشدة كتمانه للسر، فكم حاول والده، وبشتى الوسائل الترهيبية من تهديد، وضرب وترغيب، ليفشي سر أخيه راجي، ولكن دون جدوى، واعتاد الاعتذار بصلابة عن أي شيء يفرض عليه لإضعافه. وجدران هذا المنزل شاهدة على سعة امتداد روحه وطموحاته، فهنا مخطوطة أدبية، وهناك أبيات من الشعر، وتلك رسوم لبعض القادة التاريخيين كما تخيلهم.

أحس أبو سهيل بالنار تأكل قلبه أثناء توارد ذكريات حنين، لذا تقلص صدره، وجبينه، وعيناه، وراح يفكر: "أيعقل أن يكون قد كبر بهذه السرعة، ودخل السجن؟! هل سيحتمل هذا الطفل الكبير عزلة السجن، وظلمة زمنه الذي مهما قصر، تجاوز العمر بكامله، بما يخبئ من أهوال؟! أيمكن لذاك الصغير احتمال التعذيب والقسوة التي أرعبت من سمع قصصها، دون أن يعيشها؟! وكيف به يواجهها وقد وقع تحت مقصلتها؟! كل هذا مروع، وقشعريرته أشد رعبا من المبيت مع ميت في كهف، والذئاب تستشرس في الخارج لنهشه!". لم يستطع ضبط أعصابه، فارتجفت شفتاه، وانساب الدمع بين ثنايا وجنتيه كأنه التيزاب، وهمس:

- ولدي، حبيبي، أعانك الله على ما أنت فيه.

ثم أجهش باكيا، وأي عدل في الحياة حين يبكي الرجال الآباء؟

وأبكى أبو سهيل من حوله، بمن فيهم الجدة التي راحت تطلق ملاماته عليه كالسهام:

- ألست المسؤول؟ ألم تشجعه؟ ها قد أوصلته إلى ما تريد.

وهو يذرف الدمع، كأنه ليلة كانونية داكنة السواد والمطر، في اكتئاب وجهه، وتكاد أضلع صدره تشتعل، لشدة الحرقة التي يتحملها، مما دفع سمية للتدخل قائلة:

- كفى يا جدة. أتظنين هذا هو الوقت الملائم للتأنيب واللوم؟ ثم إن حنين رجل، ويعرف ما يختار وما يريد، وهو مؤمن بما يفعل.

فهز أبو سهيل رأسه وردد:

- أجل إنه رجل، ودعا الله أن يثبت رجولته. ثم أكمل كلامه: - لكن ذنبي أني علمت بكل ما فعل وباركته، وبالرغم من ذلك الفرح الذي كان يغمرني كلما تقدم في صفوف تنظيمه الجماهيري، وكلما

سمعت سيرته على الألسن، أظنني أخطأت، حين أحسست أني أنا القائد، وكم مرة بعثت له فيها مع معارفه أحثه، وأطالبه بالمزيد. ولم تكن فرحتي بالشهادة الجامعية التي حازها، توازي فرحي فيه كلما سمعت عن إفلاته من محاولات إلقاء القبض عليه، أو اغتياله. حتى بت أشعر أن الأمر أشبه بلعبة مع الوقت. ليتكم تعرفون الشعور الذي أحسست به، يوم سمعت إحداهن تتحدث عنه باسمه الحركي دون أن تعرف من هو، واصفة حنكته وذكاءه، وصلابة مواقفه، وتهتف وتقول: "يسلم البطن اللي حمله". رغم كل هذا أشعر اليوم أني أخطأت.

أتراني الآن عرفت الحكمة. وقد كنت متهورا؟ أم أن رجولة الأمس تدلت الآن على حبال مشنقة العاطفة؟ ليته يحملني مسؤولية ما آل إليه، عله يرتاح، لا بل ليتهم أسروني بدلا عنه، ثم يصمت للحظة ويكمل: أظنني فقدت رشدي، واكتشفت الآن أني امرأة، فالمرأة كلما سمح لها بتجاهل كينونتها، ازدادت كبرياء وغرورا، وما إن تقع في مشكلة، حتى تهرع مولولة نادبة ضعفها، وقلة حيلتها، كان يليق بي أن أدرك حقيقة الفولاذ، منذ زمن أن كان حديدا ومرت به النار، لأعلم تكلفة الصبر. أتراه أحسن حالا منا؟ ربما، لا بل بالتأكيد حنين حاله أهون من حالنا، وغص بالبكاء، ثم مسح ما سال من أنفه بكمه، وردد: أجل إنه بخير، فالجندي في سوح المعارك أشد استرخاء من ذويه الذين يجالسون المذياع والتوقعات والتحليلات، والقادة وإن سجنوا يظلون يخططون ويصوغون الأمل للمستقبل. أما نحن فنعيش بلا كيفية، فقط ننتظر التوقع والتخمين اللا مجديين، ثقوا إني أراه الآن يخلق الأمل في نفوس رفاق السجن، لا بل يروض السجّان، ويحرضه. إنه ابني وأنا أخبر الناس به. ويكاد أبو سهيل يهذي عند تكلمه بوقار: هيا كفوا عن البكاء، لأن حياته بدأت الآن، فنحن نموت منذ الولادة، وأمثاله يولدون حين يلفهم الظلام، إنه اليوم رجل تاريخ. انظروا إلى صوره فوق الباب، تؤكد أنه كان يعرف، ومنذ رسمها من هؤلاء؟ ويرى الطريق التي سلكوها، لذلك ترك

مكانا لصورة، سيرسمها ذات يوم أحد أحفاد هذا البيت. ثم هتف: يجب أن نحتفل لأنه شرفنا وعبر بنا إلى الضوء والمجد.

إلا أن راجي الذي كان يقف مهموما مصغيا مراقبا أبيه، أسر في نفسه: "مسكين أبي، لم يجد من يشد على يده فشد عليها بنفسه. كباقي الفقراء المكابرين الذين يطربون حين يغنون أحزانهم. ولم لا؟ أليس النغم العذب يصدر من الوتر المشدود؟ وهل يجتاز الصاروخ منطقة انعدام الجذب في الفضاء، بغير قوة الاحتراق والانفجار الشديد؟".

هكذا أقنع راجي نفسه مثنيا على رأي والده: نعم إن حنين رجل يعرف طريقه جيدا.

وليخفف أبو سهيل من حدة الجو المحزن الذي خيم على المنزل راح يمتدح حامل الرسالة قائلا:

شهم، وابن حلال، رغم صعوبة الوصول إلينا، وشدة شوقه لبيته، أوصل الأمانة، أتدرون لم؟ لأن حنين يعرف كيف يسكن دواخل من يتعرف إليهم. ولهذا لم يستطع الرجل أن يخذله، أو يقصر معه، ومن يدري فربما كان من جماعته، المهم أنه ابن حلال.

لم يتناول أحد الطعام طوال ذلك النهار، وكان زادهم التفكير بحنين فقط، في أي سجن أودع، وماذا عساهم يفعلون لمساعدته؟

* * *

كان حنين قد غادر المدينة منذ عدة أشهر بعد أن صار مكشوفا، وباتت كل تحركاته مرصودة ومراقبة، فانقطع عن زيارة ذويه، وعندما قرر زيارتهم، تواعد مع أخيه راجي، لينتظره في مكان حدده له في قلعة الحباري، وظن راجي أن تخلف حنين عن الموعد إنما هو فقط بصدد إعادة ترتيب الأمور الاحترازية، وقريبا سيكون بينهما لقاء جديد، ولم يتعزز شكه، ليولد قلقا، إلا بعد أن مر وقت، رابط راجي خلاله ولأيام في محيط المكان المحدد، دون أن يحصل ما اتفقا عليه.

كان راجي وأبو سهيل بعيدان كل البعد عن الشك خلال ذهابهما إلى القلعة، فقد بات معروفا للقاصي والداني، أنهما يقومان بتصنيع الفحم، وهذا يقتضي ترددهما إلى الجبال، بحثا عن الحطب وفي أي وقت يرغبان. ورغم ذلك فقد وصل إلى أبي سهيل الرد على تساؤلاته حول عدم مراقبتهما طوال الفترة التي مرت، فقد اعتقل حنين منذ شهرين، ولكن يبقى السؤال المحير: أين وكيف؟ لا أحد يعلم.

استمرت الحياة على كآبتها التي تحمل أحيانا على الهذرفة، حوالي أسبوع في دار أبي سهيل، وزار عثمان العائلة الحزينة، مرات عديدة، ولكنه لم يلق غير الإهمال، الذي لم يألفه فيما مضى وكيف لمن تشبعت روحه بلسعات الزمان السامة، أن يتنبه في مثل هذه الظروف لعثمان؟ ولازمت العائلة بكافة أفرادها المنزل، طوال فترة تراكم الثلوج، ولم يغادر أحد منهم المنزل إلا لجلب الحطب من الخارج، أو لتعديل فتحة الدخان فقط. وحين بدأ الثلج بالذوبان، واعتدلت الأشجار بعد سجود دام أياما للملاك الأبيض، وخفت حدة البرد، وراحت الشمس تدلي أشعتها على انسياب الماء الجاري هنا وهناك، وأخذت قطعان المواشي تتجرأ على مغادرة الحظائر إلى الغابات، تمايل الزرع مرسلا تحياته للمدينة المنتشرة على سفوح السلسلة الشرقية.

وفي ضحى يوم مشمس، وبعد تفتت صفحة الثلج، ليبدو بما تبقى منها، كصفحات دفتر رسم لأحد الأطفال الموهوبين من هذه المدينة، جلس أبو سهيل وعائلته، مصطفين بجانب الحائط المقابل للشمس، ينشرون اضطرابهم الدفين، تحت أشعتها، ماضغين في صمتهم سؤالهم المربك: ماذا عساهم يفعلون؟ أثناءها، وصل زيد، وعماد، وهشام، يسألون أهل هذه الدار إن شاهد أحدهم أمين؟ ورد الجميع بالنفي، لكن ثرثرة الجدة، وهذرفتها، أتت نفعها هذه المرة، فبينما كان الجميع صامتا، فيما الباحثون يوزعن البصر على أرجاء المنطقة، راحت نعمت، تسأل:

- من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟

وأجابت سمية:

- إنهم أبناء المرحومة حمدية، يسألون عن أمين ابن زاهدة.

- حمدية المقطوعة مثلي، مسكينة، ثم سألت هشام: أنت ابنها؟

ورد هشام ممتعظا، فهو بغنى عن هذا الهذيان الآن: نعم ابنها.

- وكيف حال أمك؟

- ماتت منذ سبع سنوات.

- ماذا ماتت؟ ولم لم تقولوا لي؟

وانهالت على أبي سهيل وسمية بعتابها، دون أن يعيراها أي انتباه، ثم عادت لترثي المسكينة، مستذكرة أعمالها، وتبكي، ثم عادت لتسأل:

- وعم تبحثون؟

- نبحث عن أمين ابن خالتي زاهدة.

ـ أمين؟ ومن هو أمين هذا؟

واضطر هشام لإجابتها مراعاة لشعور عائلتها:

أمين ابن زاهدة، الذي قتل أبواه في آخر يوم من أيام الحرب التي طالت مدينتنا،

وتذكرت الجدة الحادثة، وراحت تنحب وتردد:

ـ أجل، أمين، الحزين، وما به لتبحثون عنه؟

خرج منذ أيام قبل سقوط الثلج، ولم يعد، بحثنا عنه في كل مكان من المدينة، ولم نجده. وذكر شخص، أنه شاهده ذات مساء، يتجه إلى هذه الناحية.

واستغربت الجدة، وسألت: ـ ولماذا يفعل هذا؟

واضطر هشام للرد بصلافة: لأنه مجنون.

اسمع أنا لم أره، ولكن جاء رجل، وطرق الباب في منتصف الليل، أثناء غياب عمك أبي سهيل، أو تظنه هو؟

وسأل هشام أبا سهيل، وراجي، وسمية: أحقا ما تقول؟! أم أنها كانت تحلم؟!

وردت سمية متذكرة ما حصل: لا إنها محقة، فعلا طرق بابنا ليلا شخص، وأفجعنا، وأرعبنا أسلوبه في طرق الباب، فقد بدا لنا مقتحما، لا طالب حاجة، وأطل برأسه من النافذة، وأذكر أنه ظهر لي ملثما، أو يرتدي قبعة صوفية، أسقط أطرافها على وجهه، فلم تبن إلا عيناه، ثم فر هاربا، بعد يأسه، راكضا أمام الذئاب التي كانت تطارده وتعوي، فتفصح عن شهوة الافتراس لديها.

دهش عماد وهشام وزيد، وتكلم عماد بلهجة يشوبها القلق والخوف:

أظنه أمين، قلت أن الذئاب طاردته؟

أجل.

وسأل زيد: أيمكنك تحديد جهة فراره؟

- بالطبع، من هنا، وأشارت إلى الجهة التي سلكها الرجل، الذي فر تاركا شبحه في تلك الليلة، يقلق مخيلتها، واستأنفت قائلة: لكن الذي رأيته، كان قويا، وعنيفا، يميل إلى الإجرام منه إلى الجنون.

فهز هشام رأسه، وقال: أظنه أمين، فقد غدا عدوانيا بعد ما أصابه.

وتدخل أبو سهيل قائلا: المسكين، كان الله في عونه، كم قاسى حتى كبر، ثم حلت به هذه النكبة، قبل أن يستمتع بالقليل مما حصل عليه من راحة.

وانطلق الثلاثة، للبحث في الجهة التي أشارت سمية إليها، وقد سيطر عليهم إحساس الخوف، والشعور بالضعف والغربة، وعبّر هشام عن ذلك بقوله:

- هل تذكران أول يوم أرسلتما فيه إلى المدرسة؟ لا زلت أذكر ذلك اليوم، لأني دخلت المدرسة في سن متأخرة.

ثم سار الثلاثة على مسافات متباعدة لتسهيل عملية تغطية مساحة أوسع أثناء البحث.

بدت السماء كأنها أتخمت بالتهام الغيوم التي تلبدت لتجهز على أشعة الشمس، ولتغتال الدفء، وراح الباحثون يتصافرون بين الحين والآخر منادين بعضهم للالتقاء والتساؤل حول ما يحصل، ثم ينطلقون من جديد، باتجاهات مختلفة المخاوف والقلق والتضاريس.

تمنى زيد ألا يجدوا أمينا حيث يتجهون؛ مما جعله يسير داعيا الله أن يفشل المحاولة في العثور عليه، وراح إحساسه بالرعب يتفاقم، كلما ترامت المسافة بينه وبين عماد وهشام، فيتملكه هلع مرعب، كلما تأخر ردهم على صفيره أو ندائه، فيقول في نفسه: "حدة الخوف تجعلني أجهل تحديد مصدر ما أتوقع وأتخيل".

كان ينظر إلى البعيد حين أحس أن قدمه قد وطئت جسما غريبا، لا هو بالوحل ولا هو بالحجارة.

انحنى برأسه ليرى ما تدوسه قدمه، فانتفضت كل أعصابه، كما لو أن نارا مستها، حين رأى جزمة أمين، وعصفت فيه أمنية أن لا تكون هي، لكن ما لمحه من شكل الجزمة ولونها يؤكد له أنها هي. والآن ماذا تراه يفعل؟ وهل هناك مساحة في هذه اللحظات الحرجة للتساؤل؟ هل يفكر؟ أم يبحث بصمت، وخوف متبعا ظنه، ان جزمة أمين توحي بقربه من مكان وقوفه فوقها؟ ولكن يبقى السؤال:"لم خلع جزمته؟" هل يرجع إلى هشام دون أن يخبره شيئا، وينكر عليه وجود أي أثر؟

وبلا تنبه مسبق لما سيفعل، وجد نفسه يصرخ بصوت قوي مناديا: عماد، هشام، و يلح في طلب إسراعهما السير نحوه. وواصل نداءاته أملا منه بطرد الخوف المسيطر عليه، من خلال اطمئنانه لسماع صوتيهما، ويرتاح مع كل اقتراب لهما.

وصل عماد ثم هشام، وظلا للحظات، ينظران إلى ما أشار إليه زيد، ثم رفعها هشام، وراح يتفحصها، وأخذت تتلاطم في مخيلات الباحثين حزم التكهنات عن مصيره، دون أن يتجرأ أحدهم على نطق بشاعة ما يخمن. وسيطرت الدهشة المأساوية على النفوس، لأنهم عرفوا حظ هذا العاثر، منذ زمن بعيد، لكن ما كانوا ليتخيلوا ما ينتظره في آخر المطاف.

يجب إكمال البحث، هذا هو الشعور المسيطر الآن على الجميع، ولزيد مع هذا الشعور، خطوات تشبه في الشكل خطوات أولى محاولات سير رضيع بانفراد، لكنه مضطر لطرد التوتر وتأثيراته المحبطة.

كانت اللحظة أشبه بالرعب والهول، الذي يحدثه هجوم سرب نحل على إنسان، يجهل كيفية تجنب سموم لسعاته. فقد شعر الجميع بتسمم أفكارهم، وتقلص أنفاسهم، وانكسار آمالهم، وتسارعت ضربات قلوبهم، وانتابتهم لا مبالاة اليائس المهزوم، فذا معطف أمين، وهذه بقايا أسماله، تحمل بقع الطين هنا وهناك، وتلك قبعته الصوفية أوضح شاهد. رفعت عن وجه فبدا أقل أجزاء جسده تشوها، بعد المعركة الشرسة التي خاضها ضد الذئاب، فبان جسده كحبة بطاطا نخرتها النمال والديدان.

كان تهشم الجسد المتبقي، مِنْ مَنْ عُرف بالأمس بأمين مجوف المعدة، ظهرت عظام فخذيه، وتعفنت منه مطارح الجروح ـ تعفن معاني الإنسانية والحب في جمجمة هذا العصر المادي ـ دون أن تتفسخ كليًا، ويصعب نقلها إلا بما يحفظ أجزاءها المتقطعة الأوصال، فعاد زياد وعماد إلى منزل أبي سهيل لجلب ما قد يساعد في نقلها.

ظل هشام جالسا قبالة تمدد أمين الذي بدا غير مهتم، وراضيا بقدره، فراحتاه مفتوحتان باتجاه السماء، وليس في وجهه تعابير القبح التي هرب منها. وعصف الحزن في حنايا هشام عصف النفخ في تجوف الناي، ليتكسر أنغاماً، تزيد المكان و المناسبة عزلة وشجونا، وبدأ يبحث عن دموع تليق برثائه، فلم يوفق، وفتش عن عبارات تصف هذه اللوحة المأساوية، التي تطلب ابداعها سنين حياته كاملة، ولم يجد لذا لازمه الصمت، متذكرا سنوات الحرب، واليتم، والعزلة بعد الاحتراق وكل الظروف التي أتمت ملامح هذا الرسم الذي تعجز عن اتقانه أمهر الأيدي، وأرهف الأحاسيس.

إذن من الجلال القول أن موت أمين راحة له بعد حياة فاقت وحشيتها ما يحكى عن أي عذاب، وأي تعفف في اللغة يمكن أن يرتفع بتعفن يوميات هذا المسكين إلى مستوى الوصف، بل أي محذر مادي، أو معنوي، سواء كان دواء أو ملايين الأكوام من كتب النصائح والحكم يمكن أن تخفف ما يداني نقطة من آلامه ومواجعه، لا بل أي صمت في البشرية كلها يمكنه أن يخمد ما تثور به النفس عند مشاهدة سكون بقايا أمين.

انتهت "الربما" تلك التي سخرها هشام بكل أمنياته لأمين، وبانت أنها كانت في جانب خسارة أخيه الرث، فكأنه منذ ولادته كان تالفا، باليا، عتيق المنايا، والخطى، كأن لعائلته لعنة أوديب، وشيطان فاوست. وتساءل هشام عن الحصيلة التي سيجنيها استغراقه في تأمل جنون الألوان المنبعثة من سكتة هذه الجثة؟ لذا رفع رأسه عنها، وراح يجيل نظره في ما حوله من ترام.

وما أوقح الطبيعة الغريزية؟ وما أقبحها تناقضات ضرورات البقاء؟ فها هي طيور الغربان تصل المكان، لا للمشاركة في مراسم تشييعٍ، لم يشهد حضوراً شعبياً ولا رسمية غير الفراغ والصمت، بل لتنال بمناقيرها حصتها من بقايا هذا الجسد، وذا غراب بلغت به الوقاحة، حد نزوله فوق الجثة. متجاهلا صياح هشام وتلويحه بسترته التي نزعها ليطرد به الغربان، التي تحوم حول المكان وتقتحم أفرادها حرمة الجثة، فانسلخ عن المكان ذانك الصمت والحزن الجليلان، ليحل محلهما نعيق الغربان، وصراخ وعويل هشام، مستغيثاً، والفراغ يبتلع استغاثته، كما ابتلعها ليلة صراع أمين مع الذئاب، ساعة ملأ المكان، والزمان، جنوناً وخوفاً، مفضلا أن يحيا مع قبحه بقية عمره على أن يلقى ميتة بمثل هذه الطريقة، وظل يصرخ ساخرا من نفسه التي لطالما كرهت الرجاء والتوسل والاستغاثة، لأنها كانت تأتيه بعد فوات الأوان، إلى أن خمدت فيه الحياة نهائياً.

وأحس هشام أن عصوراً تمر وليس دقائق خلال صراعه مع الغربان، التي قارعها بسترته، ويده، وكتل الثلج، حتى أطل عماد وزيد من بعيد، يرافقهما أبو سهيل وراجي، وبعض الرعيان، ويسير خلف أحدهم حمار أحضر لنقل الجثة.

تفرق حشد الغربان مع اقتراب الوافدين، وصراخهم عليه، وأمين ممدد جثة لا تحفل بقادم ولا تبالي براحل، فقط تغط في نومها الدهري، رغم الجراح التي علا لرؤيتها تأفف، وهمس الواصلين الجدد، فقط أبو سهيل أنس هذا المشهد، لا بل أنساه ما رأى حنينه وحزنه على ولده حنين.

كان أمين هذه المرة حازما، أشد من سواها، فقد ألح منظر جثته على ضرورة إسدال الغطاء الذي جلب من دار سمية عليها.

رفعت الجثة بعناية، ووضعت فوق الحمار الذي أشنف أذنيه جفلاً، وسار الموكب متجها نحو المقبرة. وإلى جانب قبر والده وُري أمين الثرى، دون أي مراسم من تلك التي يألفها الجميع في ظروف غير هذه الظروف، ثم عاد الجميع يحملون هاجس الرغبة بالاغتسال، لتنتهي باغتسالهم آخر آثار أمين، ويكون ما جرى آخر قصص ترويها عنه المدينة.

علمت نوال نبأ وفاة أمين، ولكن اكتساب المناعة في مواجهة الصعاب علمها تحمل الحزن، فضمت رأيها إلى رأي كل من قال: "لقد ارتاح". وفي اليوم الثاني رافقت عماد إلى قبره، وزرعت عنده ريحانة، وذرفت الدمع على أخ أعياهم حزنه، وعادت لتواصل حياتها مع عماد نحو زواج يهيئان نفسيهما له.

* * *

الموت والحياة غايتان لبلاء الجسد. أمرهما كأمر تاجر اللحوم، يشتري صغار العجول، فيطعمها ويسمنها، وكلما سمنت ارتفع ثمن الروح فيها، والإنسان يولد ليبلي حياته بحثا عن النمو، فالوصول، ثم الفناء.

النوم والموت حقيبتان، تتقاسمان زمن الإنسان اللا مجدي، كل هذه الأفكار من نتاج ظلمة السجن، الذي يمتص اشعاع حنين منذ سنوات طويلة. كل ما يذكره أنه عبر بابه بالأمس لكن أي أمس لا يعرف، وكل ما يتذكره أنه بعد اعتقاله بشهرين، تمكن من تسريب خبر لأهله، أما الزمن الذي مضى على وجوده حيث هو، فذلك مدون في أعلى صفحة السجل الذي لا يحمل في طياته أكثر من أسماء وتواريخ إيداعهم، وحين تغص صفحاته بالأسماء، يرمى في خزانة معدنية، تشبه الليال المعدنية في تلك الزنازين، ثم ينسى لينسى ما بداخله إلى ما لا يعلم.

التعذيب والقسوة التي عومل بها، لم تدفعه إلا إلى الإدمان على ما يعتنق، ويمكنه احتمال ذلك دهورا، إلا عذاب الحنين، الذي ما زال ينال منه ببطء وثقل يشابه مشية الزمن حيث هو.

الحنين لوالده، لأخيه، لسمية، للجدة. لذا اغتنم فرصة نوم زملائه في القاووش، وانزوى في جلده، يعصر ما أعياه دموعا تلوذ من ضيق السجن ضيقا، ومن عزلته عزلة. أما تمكنوا من معرفة الطريق إليه؟ فاليوم يحبل ليلد أياما، والأسبوع يقرع خاطر الجميع بأسماء الزائرين، إلا حنين وسجين آخر اسمه عقل. الرجل الذي تعلم منه حنين الصوم عن الكلام، كمذهب يتبعه لمعالجة اضطراباته النفسية، تجنبا لإظهار التعب والضعف، عقل هذا تجاوز السبعين، والمسؤولون عن السجن أيقن مِن سواهم بأن الموت أولى به من الحياة، إلا أن هذا اليقين لم يساهم في إطلاق سراحه بتاتا، ولكم ضحك ساخرا "لقد تخرج أجيال على يدي في السجون التي تذكر كل سجلاتها اسمي".

وها هو اليوم يكاد لا يذكر الزمن الذي نزفه من عمره في ظلماتها، لكنه يقدره بما يزيد على العقدين، حافظا في مخيلته مئات المئات من ملامح، وأسماء، وقصص أصحابها بين جدران هذا الزفت، كما يذكره لاعنا. وإذا سأله من وردوه حديثا إلى قاووشه عن انعدام زائريه، ضحك وقال:

- توقعت سؤالك هذا بعد أول زيارة جاءتك. لأنك لست أول الملاحظين لهذا. والجواب باختصار أنه ربما مات كل من لي خارج هذا الظلام، أو ربما مت أنا بالنسبة لهم، بعد يأسهم في البحث عني.

وما أن سمع حنين هذا الكلام منه، حتى تمنى فناء العالم، وقيام الساعة.

للسجين إحساسان متناقضان، لكنهما دافئان، طالما نبعا من لوعة الأيام الصعبة التي تلف طقوسهم. وهما الحسد والرأفة. فكم ود السجين أن يكون هو المنادى لإخلاء سبيله عوضاً عن زميله، ولكم تفانى في تذكر ما عاناه صاحبه، لذا يفرح له ويحتفل بوداعه.

والوداع هو الوداع، خسارة وإن كانت مؤقتة. وبين جدران السجن يتخذ الوداع بعدا وجدانيا أشد جلالا، لما لكل سجين من أحداث مع زمنكانيته، وشبكة علاقاته التي لا تقل تشعبا عن مثيلتها في عالم الأحرار، وهي تمثل رغباته الكاملة، من حقد وكراهية، وسرقة، وجريمة، وحب، ورأفة، وجنس، وتسامح، حيث تعمل غرائز الإنسان بوضوح أشد وغموض أكثر منه حدة، رغم مجهرية التعاطي بين النزلاء، وهذا ما جعل الموقف مرعبا، حين تم استدعاء عقل وفجأة من قبل آمرية السجن، بعد انقطاع كاد طوله يوحي بنسيان هذا المسن، الهزيل الجسد، السمين الإرادة.

ليعاد بعد ساعات متورم الوجه، منهك القوى لا يقدر على النطق، ولم يستطع جسده تحمل ما أنزل به من قسوة، لذا زحف بروحه إلى غيبوبة تشبه الموت، حين رمي به خلف باب القاووش.

تجمع المساجين حوله، وسرى اللغط في كيفية مساعدته؟ وسارع حنين لتحسس وريده بحثا عن ما بقي فيه من حياة، ثم طلب نقله، وتمديده فوق يطقه.

جلس الرجال حوله صامتين، ورطوبة المكان تراكم فوق ضيق صدورهم بما حصل ضيقاً، يراقبون فراغ الحركة في جسد هذا المسكين الصابر. ثم تناول حنين كوب ماء ورش قليلا منه على الوجه المتورد جراحاً وكدمات، ثم بدأ يلامس خديه محاولا ايقاظ رد الفعل فيه، فرمشت عيناه، ثم انفرجت شفتاه عن آه تساوى أعوام الصبر الطويلة، وبدا فيه شغف لرؤية النور ولو لمرة واحدة قبل الموت، وإن كلفه ذلك الهزيمة.

سكب حنين بين شفتيه قليلا من الماء، وفك أزرار القميص عن صدره، وطلب الإفساح عنه ليتمكن من الشهيق والزفير، في جو كتم الجميع فيه الأنفاس حزنا وحذرا.

كان الاستفسار عما جرى ضرورة لا تحتمل مهابة الحزن، لذا سأله حنين، وكان عقل على موعد مع الكلام، وراحت أنفاسه تتهدج، ويحاول السعال دون عزيمة عليه: ـ لقد آذوني على قدر صبري طوال السنوات الماضية كلها. إنه نواف، نواف الذي قضى معنا في السجن ثلاث سنوات، عميل، خدعني، ووعدني بزيارة من قبل أحد ما، فكلفته التواصل مع رجال في الخارج، وكشفت له أمري منذ أول رسالة قبل سنة ونصف، وظل صامتا حتى تمكن من كشف الجميع، ومن لم يعتقل، فقد قتل.

وكف عن الكلام، فقد تملكه تعب أثقل من صدمة اكتشاف أمر نواف. وراح يسعل، متقيئاً دماً وراح حنين ورفاقه يتفحصون آثار تعذيبه بأدوات حادة، ثم زاد تقيؤه للدماء، الأمر الذي دفع حنين إلى الاعتقاد بأنه مصاب بنزيف داخلي. فقفز نحو باب القاووش، وراح يصيح مناديا السجان، الذي تعمد تلك الليلة الانصراف عن باب هذا

العنبر بالتحديد، وحنين يلح في ندائه، ويتوسل، ثم يهرع صوب عقل مشجعا إياه على التماسك والتحمل، ويعود ليضرب الباب بيديه، والبحة تكاد تنال من صوته كلما نادى على السجان الذي نأى بعيدا عن حاجته الملحة.

أيقن الجميع فقدان الأمل من وصول النداء، واتضح لهم تعمد ما يحصل، وظهر أمر تصفية عقل بهذه الطريقة. فعمت الفوضى، والضوضاء، وعلا صراخ المساجين بكل ما فيهم من حقد وغضب ويأس، وامتزج الصراخ بالشتائم والعويل، دون أن يخفف كل ما يحصل آلام عقل الذي ساءت حالته، وراحت تعتريه ارتعاشات في جسده، فيشكو البرد تارة، ويتصبب عرقا أخرى، فيما حنين يقذف بنداءاته، ويحملها أفكاراً فلسفية هزيلة أمام ما يحصل، ثم راح يبحث عن الإهانات التي تليق بمرتكبي هذه الجريمة، وحاول السجناء توحيد نداءاتهم، علها تبلغ أذناً في مكان ما من هذا العالم، الذي يفصله عنهم تبويب الجرائد الأسبوعية بزائف الأخبار حول بناء وتشييد، وتنمية، ليعيد للمهزوم أبسط جزء من انهياراته الأبدية.

حتى أثناء مواجهة سكتة جسده النهائية، كان عقل حكيما مؤمنا بصمته، فظلمة القبر ليست غريبة عليه، فهو منذ ربع قرن في طريقه إليها، الربع الأول من حياته أنفقه في ظلمة الأوهام، وما بين الربعين لا يعنيه بشيء بعد كل ما حصل، والصمت النهائي أهون بكثير من الصمت الذي اعتقله لأيام طويلة، والأمر الوحيد الذي يستحق ذرف الدموع في هذه اللحظة، هو توقف الحركة في أبعاد هذا الجسد، فدمعت عيناه بهدوء، وقد شعر بدنو الأجل، ونظر إلى حنين والدمع ينساب برقة الحنان المحروم منه منذ عقود، واستعاد صور طفولته، وما تلاها من أيام النور، ثم قال:

- إعلم أن نور الشمس، وراحة امتداد البصر، والتنفس بأمان، أثمن من أي مبدأ أو عقيدة.

ثم رفع رأسه قليلا فاغراً فاه، فاتحا عينيه إلى أكثر اتساع بحثاً عن النور، ثم هوى.

فُجع الرجال بموت عقل، فجيعتهم بأول لحظة لهم في السجن، وساد قليل من الصمت، ثم عادت تغزوه همسات التف، والبصق، واللعن، والإهانات. وحده حنين صامت يتأمل وجه عقل الذي كان فيه منذ لحظات انعكاسات لوجوه الجميع، وقد اختفى عنه الآن أي أثر، حتى الصمت لا وجود له فيه، وحده الموت، يسكن ما وراءه.

استيقظ فجأة من تشتت تركيزه، واندفع نحو الباب، يشتم: أنذال، كلاب، جبناء، قتلة. ثم انفعل في صراخه، كمن اعترته لوثة جنون، مما اضطر اثنان من زملائه لتهدئته.

كانت ليلة من أطول ليال السجن التي قضاها الرجال مع العم عقل. توزعوا على جوانب الغرفة، جالسين كالأكوام اللحمية، منبوذين، متأملين سكون هذا الجسد الذي كان منذ قليل واحدا منهم، وبين كل سجين ونفسه حوار عن ذكرياته معه، متكئين على حزنهم طوال الليل.

كانت الصلاة على جثمانه قصيرة جدا لتفاقم العذابات الداخلية، وتداخلها مع المعتقدات التي اهتزت بعد كل هذا؟

أقبل الصباح بإقبال وقع قدمي السجان، الذي راح يتفقد المساجين في القاووش، طالبا التهيؤ لاستلام طعام الفطور، إلا أن قاووش حنين تسلم فطوره، ليلة الأمس، في جسد خرج إنسانا، وعاد حكاية، لا زالت جثتها راقدة تحت تركيز بصر هؤلاء الرجال المنضبطين حقدا.

وقف السجان خلف الباب، هذا ما عُرف من خلال توقف وقع أقدامه، وثبت ذلك بصدور حركة عن الفتحة الصغيرة في أعلى وسط الباب، وقد أطلت ملامح السجان المتظاهر بعدم معرفة ما

حدث أو ما يوجد في القاووش. معلنا قدوم الفطور بعد عشر دقائق. وهم بإغلاق الكوة، إلا أن دنو وجهه حرض حنين على تسديد لكمة عنيفة جعلته يئن هاويا، وقد تفجر الحقد غضبا في صدور المساجين.

تمكن السجان من لملمة شتاته من السقوط، وواصل ترنحه أثناء السير باتجاه ما أراد، تاركا السجناء في حالة ترقب عودته مع مساعدين أو ثلاثة، وقد صمموا على خوض معركة الانتقام لعقل بكل شراسة، لكن آمري السجن كانوا مدركين لخطورة ما حدث، لذا توانوا في تأديب السجين حنين، ولم يعيروا هذه الحادثة أي اهتمام.

كانت تكهنات المساجين قد جالت وحاولت التخمين، والتوقع، والظن، والتصور، والتخيل، حتى أضفى بها الأمر إلى حقيقة واحدة لا غير، وهي أن إدارة السجن قررت الإبقاء على الجثة في القاووش. والمساجين على ثقة أن إدارة السجن قد سمعت صراخهم واستغاثاتهم بالأمس، وبالتأكيد علمت بموت عقل، وهذا ما خططوا مسبقا له، لذا قرروا أن لا جدوى من تكرار النداءات، فما دام الليل قد فشل في إيصال أصواتهم، فأنى للنهار ذلك؟ لذا تأججت نيران الحقد والتفكير بطريقة لرد الصاع، وتلقين الظالم درساً، ولتبق الجثة شاهدا على ما حصل، لا بل لن تخرج إلى برفقة جثة أحد السجانين، وهذا هو العدل في لحظة استئصال الشك، واختصار الآراء.

وهنا تنبه الجميع واحدا تلو الآخر لما ردده عكيف، السجين الشاب الذي حل بينهم منذ ستة أشهر وهو يقول بهدوء محدثا نفسه:

- إذن لهذا أطلق سراح نواف منذ أسبوع.

وبدأت ترتسم في مخيلة الرجال ملامح نواف السجين الهزيل والمتمارض دوما، والذي ألحق قبل ثلاث سنوات بالعم عقل، حتى غدا صديقه الوحيد، لا بل كان يحرم نفسه ليوفر له الطعام والملابس

الداخلية التي هي أشد ما يحتاجه السجين، دون أن يكتشف أحد أمره وخطورة ما كان يصبو إليه.

لقد أمضى أشهره الستة الأولى صامتا، لا يخالط أحدا إلا بحذر وخوف شديدين، حتى كسب ثقة عقل ووده، الذي رجاه يوما أن يحصل له على بعض الورق وقلم عبر زائريه وفعل. ثم أخذ ينقل الرسائل من عقل إلى رفاقه في الخارج.

كانت الرسائل الأولى عادية جدا، هدف من خلالها عقل اختبار نواف، ثم انتظر إلى أن جاءه الرد. وزيادة في الحيطة والتأكد منه، توقف عقل عن طلب أي خدمة من نواف لفترة قاربت الثلاثة أشهر، دون أن يظهر على نواف أي اضطراب أو قلق وارتياب، فقد كان أقوى مما توقعه الجميع ضبطا للنفس.

كان سجينا عاديا جدا، لا يحمل أية ملامح لرجال البطولة، أو الجاسوسية، فقد كان كما قيل عنه رجل بلا وجه لخلو وجهه من ملامح رد الفعل. ثم عاد عقل ليطلب منه حمل رسالة جديدة، جعلها كسابقتها عادية المضامين، وخلال أيام تلقى جواباً عليها، ثم كف العم عقل عن التعاون معه لمدة ستة أشهر كاملة، كان خلالها يراقب تصرفاته وحركاته بدقة متناهية، لذ بدأ نواف يمرض وكان مرضه جدياً، لذا خرج ليعاينه الطبيب مرتين، ثم يعود بعد ساعات إلى القاووش، دون أن يرتاب أحد فسوء المعاملة، والجوع، والتعذيب، والرطوبة التي يتعرض لها السجين، جميعها تجعل أقسى الرجال ينهار مهزوماً، لا بل دفع مرضه المساجين إلى التعاطف معه، والرفق به بشكل ملحوظ عما سبق، وأخيرا اطمأن العم عقل لنواف، فزوده برسالة تتضمن تلميحات مهمة لقارئها. واستمر العمل بين نواف وعقل سنة ونصف السنة، غدا خلالها رمز الوفاء، والإخلاص، لا بل ظُنَ أنه من كوادر تنظيم عقل. فقد أعد نواف لهذه المهمة منذ اللحظة التي ألقي فيها القبض على عقل، لذا ما إن وثق به عقل حتى بدأت أجهزة الأمن تجمع تفكك رموز التلميحات

والإشارات المشفرة التي كان يرسلها إلى أن تمكنت من كشف كافة تحركات رفاقه، بعد أن أعياها هذا السجين الأسطورة لمدة عشرين عاما دون الحصول على أي نتائج مبهرة، إلى أن جاءت سوسة نواف التي تغلغلت في جذعه ببرودة وصمت وصبر أشد بكثير مما كان عقل عليه.

لن يجدي نفعا عض الأصابع، ولا لطم الرؤوس، فقد تمكن نواف من خداعهم، وهو اليوم خارج السجن، وبات غير مضطر للتمارض، وربما حصل على ترقية أعلت من شأنه، كيف لا وهو الذي عزز هيبة الأجهزة الأمنية التي سخر منها عقل وأتباعه لسنين طوال.

أخذت صورة نواف تسعر نار الحقد والكره في صدور الرجال الشاعرين بمرارة الهزيمة، وما كان ليفرغها إلا قدوم سجان غبي، صدَق ما قاله زميله الخبيث بأنه مضطر لدخول المرحاض بسبب إسهال حاد حل به، فمهمة رجل الأمن إنجاز ما يطلب منه وبلوغ رضى مسؤوله بأي ثمن دون احتساب أي معيار للأخلاق، وتولى هذا الغبي مهمة إيصال الطعام إلى القاووش رقم ١٣ دون علم بما حصل، فقد كان قادم من إجازة، لذا خطا باعتيادية، ونقر بعصاه على الباب، وفتحه صارخاً: "قفوا جميعا في الزاوية الداخلية". وهو ينقر بالعصا على جنبه.

تظاهر البعض بالانصياع، فيما كمن اثنان خلف الباب حتى استدار ليتناول الطعام من فوق العربة التي في الممر، وما أن أدار بظهره حتى تلقفته الأيدي من كتفيه وشدته إلى الداخل، وأغلق الباب بجرة من يد أحدهم، وقذف به إلى ما بين تحلق الرجال المنتظرين غضبا. وتكفل من سحباه إمساك الباب بقوة لتأخير دخول الجنود القادمين لإنقاذ زميلهم الغبي، وبدأ تسديد الحساب والدين الذي لهم في ذمة السجن حجراً وبشراً.

أروه أول الأمر جثة عقل، وهم يخبروه أنها هدية إدارة السجن لهم منذ ليلة الأمس، ثم أخبروه بأنهم قرروا تبادل الهدايا مع إدارة السجن، وانقض عليه الجميع ركلاً ولكماً، ولطماً، وتعالى التعبير عن الغضب وتداخلت الأصوات، وسمع تردد أصوات التحذير من الخارج، وتبين للمساجين قدوم المدد للسجان السجين، مما زاد انفعالهم فأمسك حنين عنقه وراح يعمل قبضته فيها إلى أن فارق الحياة.

تمكن عناصر من حراس السجن من فتح باب العنبر لمحاولة إنقاذ السجان المتورط، لكن معركة عنيفة دارت بين العناصر المسلحين الذين دخلوا العنبر، فقد دخل أحدهم شاهرا مسدسه، مهددا، متوعدا، يهتز داخل بدنه السمين، كبالون ملئ بالماء، وبقي الآخر خلفه عند الجهة اليسرى من الباب، مسدداً بندقيته، إلا أن عكيفاً كان له من السرعة ما مكنه من إسقاط المسدس من يد السجان بركلة من رجله، تناول السجين سامان المسدس، فيما انقض الباقون على السجان الذي بات أعزلا، وأعملوا فيه الضرب مما أرعب زميله، الذي أصابته نوبة من الصراخ والتهديد، وقد تشنج جسده جراء الخوف مما منعه من إطلاق النار للحظات، ثم فتح النار من بندقيته باتجاه سقف العنبر، ما دفع سامان لتسديد طلقة من المسدس الذي في يده استقرت في رأسه فتراخى من وقوفه المتشنج أرضاً. تناول حنين البندقية، من السجان الممدد ميتاً، واندفع خلال الممر طالبا من زملائه المساجين عدم مغادرة العنبر حفاظا على سلامة أرواحهم. وراح يلتصق بالجدار متسللاً، يتبعه سامان الذي التصق بالجدار خلفه على مسافة خطوتين، وكان الصراخ والصياح يزداد حدة من داخل عنابر السجن، وتعالت نداءات مطالبة بفتح الأبواب، فيما حنين وسامان لا يتسنى لهما التفكير بغير الاستمرار باتجاه باب المبنى حيث إدارة السجن.

بقي الممر خاليا لدقائق، حتى أطل حارس وهو يطلق النار، ما اضطرهما التراجع، ثم تبعه آخر بالفعل عينه، من الممر الثاني الذي يتقاطع مع الممر المحاصر فيه حنين وسامان، وظل الأخيران يتراجعان وهما يتبادلان إطلاق النار مع الحراس، حتى دخلا العنبر، وكان الحراس في حالة تقدم، كمن حنين وسامان عند جانبي باب العنبر، وما إن أطل أحد مطلقي النار، حتى عاجله سامان بطلقة أردته، تجمع السجناء ملتصقين بعضهم ببعض بجانب الجدار المحاذي للباب بحيث لا يطال أجسادهم إطلاق النار من الباب إلى داخل العنبر، ثارت حماسة عكيف وبلغت حالة من التهور، جعلته يطلب من حنين أن يغطي تسلله ليحصل على سلاح السجين الممدد على بعد خطوات في الممر، بدأ عكيف الزحف، مركزاً ببصره على البندقية التي لا زالت بيد السجان المرمي أرضاً، وما إن شعر السجان باقتراب عكيف، حتى استعاد قوته، وفتح من بندقيته صلية عشوائية باتجاه عكيف، مما أدى إلى مقتل عكيف وحنين في الوقت عينه، ثم نهض زاحفا وهو يطلق النار باتجاه مدخل العنبر المتمرد، مرت لحظات من الهدوء الثقيل المرعب، تمكن خلالها الحراس من بلوغ ممر العنبر وتوقفوا بجانب نصف جثة حنين الممدد خارج العنبر، كان الحارس الأقرب من الباب قد قرر إنهاء المعركة بطريقة تؤهله للحصول على وسام شرف من الدرجة الأولى، بارتكاب مجزرة جماعية، لذا تناول قنبلة يدوية، ونزع صمام أمانها، وقذفها بعد أن انتظر ثوان محدودة إلى داخل العنبر، وقفز راكضا من حيث أتى، تاركا وراءه أشلاء اللحم تتناثر وتلتصق بجدران العنبر وسقفه، كما لو أن رساما سرياليا يبتكر أسلوبا جديدا للتعبير برش الطلاء الأحمر القاني عشوائيا، ولما لا؟ فالحاكم وحارس نظامه لا يخططون إلا للفوز والحيلولة دون الفشل الذي تحدثه المؤامرات.

* * *

للشتاء رغبة مضاجعة الأرض، وفحيح حانات الليالي الباردة، وللربيع ألوان ريش الرسامين، وغناء وألحان الموسيقيين، وللصيف سمفونية كلاب الليل الضالة، وكونشرتو الثعالب وصراصير الغابات، أما الخريف فله ملف أبي سهيل اليومي الموقع بصبر مزمن على المثابرة.

رصف أكوام الحطب، وحاك منها انسجام الترتيب، وهيَأها لتدخل في مرحلة التظلم والسواد، لتخرج منها فحما، يشبه قلبه المختنق قبل نضوج الحب فيه. و وقف يراقب ببطء شديد تصاعد خلل الدخان من مسامات التراب المكوم فوق الحطب المدفون.

حنين الصغير في الخامسة من عمره، وهو يجلس فوق مقعد ترابي صممته يدا الجد أبي سهيل، يراقب من موقعه والده الذي كان ينهال بفأسه على جذوع الأشجار، والجد يتوسم الخير في ملامح الصغير التي تبدي ذكاء وانتباها قد يعوضانه ما خسر، ودخان سيجارته يداعب وجه الصغير الذي طالما وقف يتأمل بمتعة حركات أصابع الجد وهو يلفها، وكان يلذ له ملمس علبة التبغ المعدنية التي تسحره بقدمها ورائحتها، ويظل يحلم في امتلاكها يوما، إلى أن يمررها أبو سهيل بين شفتيه وقد بلل طرفها برأس لسانه، ثم الصقها، وتكلم بوقار مقنع:

- تفضل يا سيدي. وقد مد بالسيجارة لحفيده، فيبتسم الصغير خجلا، وقد لفه تصميم الجد بحرارة الخجل الذي يدفعه لتقليص رقبته وإخفاء وجهه بين ذراعيه.

ويلح الجد في عرضه، فيصدق الصغير ويمد يده لتناولها، لكن الجد يبادره بتعفيطة من شفتيه الكبيرتين، ثم يدخل السيجارة بينهما ضاحكا بطريقة تثير حنق الصغير، مما يدفعه لينهال على صدر جده بلكماته التي تشبه بحنانها الفرح المنبعث من قلب الجد بهذا الغد البريء.

ويصدر أبو سهيل أصوات التأوه والتألم المصطنع، ثم يقهقه عالياً مطوقاً الصغير بذراعيه، وينهال عليه تقبيلا، ثم يهتف "هوبلا" ويرفعه ليركبه فوق كتفيه، تاركاً رجليه تتدليان بجانبي رقبته، فيما الصغير يضحك وهو يرفع قبعة الجد الصوفية، صافعاً بنعومة صلع الجد الذي تناثرت فيه بضع شعرات، كأنها أشجار حور عارية غروب يوم خريفي. فينفعل الجد ويبدأ الغناء والرقص بالصبي الذي غارت العصافير من عذوبة ضحكاته، ثم يردد الجد شعراً:

مزبلة أنا

والدهر جشع

وقميص جوعي

من توت آدم.

ويظل يرقص ويغني، حتى تصده دموعه عن الاستمرار، فيمضي ماشيا بين الأشجار، والطفل فوق كتفيه، صامتاً أو طالباً من جده الغناء، وأمنية أبي سهيل يمزقه تخزينها، فكم يود لو ينطلق بكل صدره فرحا ليسعد هذا الصغير إلى الأبد.

لم يلحظ الصغير امتداد الأشجار الكظ في الغابة التي عمل بها أبو سهيل، لأن خياله منشغل بترنيمة الغد التي تهتز صورتها لشدة تجددها في مصنع أخيلته الصغير، المحدود الخبرة، الهائل الترامي.

ظل حنين يسير قرب جده، وكان أبو سهيل قد عاود جمع الحطب اللازم توفيره قبل حلول الظلام، فيما راجي يعمل غير مبال، فسيان عنده الليل والنهار، بل كل الأوقات والفصول باتت لا ترمي إلى مراميها بأية صلة، إذ كانت طمأنينته على أمسه في أبيه وغده في ولده نابعة من ألفة الحب بينهما، لذا كان كلما تقدم الصغير منه يهدد ضاحكا اذهب إلى صديقك العجوز، فأنا لا أحبك.

ويتظاهر بأنه يطارده، فيجري أمامه يصيح ويضحك هاربا مستنجدا بجده، فيبادر الأخير لإنقاذه بتناول عصا غليظة، يهاجم بها راجي الذي يفر من أبيه، فيجلس الجد القرفصاء فاتحا ذراعيه لحنين، ويغرق الجميع بضحك يتناسب مع حيوية طفولة الصغير، فهما يريان العالم من خلاله، وماذا عساهما يريان بعد اقتحام الظلام لكل ما حولهما، فلا أخبار من حنين السجين منذ أخبار اعتقاله.

جلس أبو سهيل فوق جذع شجرة، وأحس للحظة، أن أفكاره كالعصف المأكول، تلك العبارة التي لا زالت في ذاكرته لشدة ما ضربه المدرس بسببها، عندما كان يحفظه سورة الفيل. وراحت ذاكرته تجتر ما مر به من قسوة، أيام الفقر، مغادرة الرحم حيث الطمأنينة النادرة، لوعة أيام الفطام، اللحظات الأولى لصباح اليوم الدراسي الأول في حياته، زفر أنفاسه معبرا عن اشمئزازه من السفر ومشقاته، وراح يفكر كيف يحتمل المرء التنقل من حدث إلى حدث، من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى سنة، ومن رغبة إلى رغبة، ومن حلم إلى حلم، وازداد في إيغاله فراح يفكر في السفر من بشر إلى آخر، ومن قميص إلى قميص، أفلا يشعر بالاغتراب إذا ما استبدل المرء ثيابه فأي تجديد هذا وأي كسر للرتابة في هذا التغريب المستمر؟ ألم يسافر من صدر أم إلى صدر رفيق إلى حبيبة، ثم ابن فحفيد؟ أقسوة هذه أم صفوة جنون؟ ثم يعيد أبو سهيل حزم الذكريات إلى خزنتها، وتظل رغماً عنه ذكرى حنين الابن لوعة، وأية لوعة، لوعة كتلك التي عبرت إلى البشرية من مآسي اليونان القدماء، وهي تتضخم رغما عنه، لا بل غدت محببة إليه، وما عاد يعاني رغبة قمعها أو طردها بإشغال نفسه عنها بأي شيء، لا بل صار يعتبرها الوسيلة الوحيدة المتاحة لمنح ولده السجين رعايته وحنانه الأبوي عبر كل هذه المسافات الماجنة، التي تشبه المعادلات الكيميائية التي كان يحدثه عنها ولده السجين أيام دراسته، رموز وأرقام كأي اختصار قسري لحياة ما. ومن يدري؟ كان يرددها لنفسه في ذهنه:

ربما جاءت أيام اختصرت بها الهموم لكثرتها ووفرتها برمز كواحد من تلك الرموز التي كانت تصيبه ببله تكذيبي كلما سمع عن تأثيرها.

كان الصغير قد أخذ يعيد علاقة الجد بمحيطه الذي انفصل عنه بحثا عن إجابات لتساؤلاته، وتزاحمت برأسه الاحتمالات واختلطت تلقائية تواردها، لذا أفاق من غيبوبة أفكاره على جرة خفيفة من يمين حفيده الذي راح يلعب بشاربه الكث، وجعله يتأخأخ ويمد رأسه مجبرا خلف يد الصغير التي تسحبه وهو يضحك ويتهدده بقطع العلاقة معه إن لم يفلت الشارب. رضخ حنين، ووقف يتأمل جده وهو يعيد تصفيف شاربيه، وقد انتابته سعلة كأنها بتراقصها على أوتار صوته، حجر طاحونة، يطحن في عمق ليل عتيق الهدوء، وكان فضول حنين الاختباري قد بدأ ينمو لذا تنبه، ولأول مرة لإصبع يد جده التي كمم فيها فمه أثناء سعاله، لذا ما إن ارتاح الجد وهدأ حتى طرح عليه سؤالاً أعاده بذاكرته خمسين عاما إلى الوراء حين قال:

- إصبعك هذه قصيرة وبلا ظفر؟

ضحك الجد وأجاب: أكلته الهرة.

وكان لخيال الجد وليمة موادها ملايين الصور التي راحت تتقافز في مخيلته بسرعة بين فضاء الطاحونة المتغلغل فيه غبار الطحين، وجعجعة آلاتها القديمة، وبين أول إحساس بالخسارة المؤلمة جسديا، وتذكر الطابور الذي كان يحوي العشرات وقوفا، مما كان يضطر العديد منهم النوم إلى الصباح التالي أمام مدخل الطاحونة.

وتلألأت في مخيلته صورة شربل العجوز الهادئ الضجر، صاحب الطاحونة بصدرية الجلد البنية القديمة قدم اكتشاف الطحين، وبمديته الصغيرة التي تتدلى من حمالة الحزام بسلسلة ذهبية، لكم تمنى هو والكثير من الأطفال الذين رأوها الحصول عليها ولو عن طريق

السرقة. و لأكثر من مرة حاول ذلك، لكن يد شربل كانت أطول لذا بلغت شحمة أذنه قبل أن يتمكن من فكها، أثناء حشر شربل لرأسه في جرن الطاحونة لينظفه.

كان تجوف فمه قد امتلأ باللعاب، مما جعله يبصق، وهو يلعن سرعة انقضاء الأيام، وامتطت بصقة أبي سهيل فوق القش اليابس الأصفر وقد خالط اصفراره زبدها، لتبدو لاشمئزازه نطفة حقد يقذفها في وجه اللاجدوى، فيما كان حنين يرفع برأس حذائه التراب ويرميه فوقها ليدفنها مع قرفه واشمئزازه من تصرف الجد. لكن أبا سهيل أغاضه عندما تحداه أن يؤدي مثل الحركات التي يشكلها بتجاعيد وجهه، وبالغ في التشكيل ما جعل حنين يصاب بالذهول، فطمأنه الجد قائلا:

- لا تفكر كثيرا في الأمر، فالأيام ستمنحك ما منحتني، وإياك أن تتمنى الحصول عليها قبل أوانها.

* * *

يوميات راجي الحياتية بتفاصيلها أشبه بحكايات الجدة نعمت التي جعلها مرض الشيخوخة عالقة ضمن اجترار الحكايات والأسئلة، لذا كانت أفكاره تصفر وتذبل لتسقط في الخريف، وتدلف إلى ثباتها الشتوي، ثم تتورد حيوية جسده دون أن تزهر منها أكثر من دفلة صمت عميق.

رغم اللا شيء المزمن في خلية أحلامه، إلا أنه كان يملك وداعة القناعة. لذا ظل تارة يلتقط قطع الحطب، ويجمعها على شكل أكوام، لتصبح جاهزة لمرحلة التفحم، وتارة أخرى يهيء مكاناً لكومة جديدة. لم يكن لهذه العملية أي بعد فلسفي في تفكيره، لأن علاقته بها باتت عادة يومية كارتداء ملابسه، تحصل بتلقائية. فما كان يأبه لاحتراق سجائر أبيه أثناء الإجابة على استفسارات صغيره، حتى أنه سخر لإيلاف بساطة رحلة الشتاء والصيف، فقد كان أبوه يشبهها بإشارة المرور التي لطالما حيره لغز عملها كلما نزل إلى المدينة، ورآها، وألف رتابة إنارتها التي تساوي بين فرص توزع الفترات الضوئية الملونة حتى أثناء خلو الشارع من السيارات. وها هو يلمح نظرة الرثاء لحاله في عيني أبيه، لذا ظل كطائر السنونو يحوم لساعات، ثم يحط لساعات على الأسلاك الممتدة فوق سطوح المنازل، دون أن يعرف تفسيرا ذلك أكثر من تواصل تيار الحركة تحت تأثير العادة.

هز أبو سهيل رأسه مستغربا كيف يكون لولديه دم الأسرة الواحدة، وتناقض الطباع؟ وتذكر ولده حنين وعاوده جحود الشوق إليه، وأحس بإلحاح التهدم أمام هزيمته بسؤال:

ـ كيف السبيل إلى بلوغ لقائه، أو معرفة مصيره؟

وتداعى الكثير أثناء التفكير بالحل حتى أنه ظن أنهم قصروا في مسألة البحث عن وسيلة، ثم عنوة عنه يتجاهل صغيره، وينهض واضعا يديه في جيوب سرواله، وقد جمع قبضته كأنه ينوي توجيه

لكمة لا بل لكمات لعجز السبل. كان التوتر قد غدا له استنفار المدمن في خطوات أبي سهيل الذي وقف يضرب بكعب حذائه وجه الأرض، كمحاولة عفوية لنسخ اهتزاز وجدانه بحركة قدمه، ثم رفع رأسه إلى السماء ومد عنقه الذي تحركت أعضاؤه تحت جلده كحركة مرور الحَب في عنق صغار الطير قبل أن يكسوها الريش. وشعر أن للسماء لون التوسل الذي عبر عنه بإنشاد:

مراسم الدفن أغلى من الموتى

كذل الوساطة يثمر القرف

سرور مجزأ يهشم حنيني

كبول الأفاعي على جذع الهشيم

أنا سندان الترجي.. صنفت صوتي له

تردد صوتي لن يغثه الدعاء

وفتح فمه كأنه لا ينوي إغلاقه بعدها، وتجلجلت ذبذبات صوته لتمس بتموجها سكون المكان، وتفزع هدوء بعض الطيور، ولترتطم بالصخور في الوديان عائدة بصدى يبعث على القنوط، وأحس بعدها برغبة التغوط على هذا الزمان، لكن دموعه تحدت السخرية وانحدرت بزخم تقيح شوقه المزمن في دواخله.

* * *

لم يكن الوقت كافيا ولا الظرف مؤاتيا لدموعه، لكنها لعنة الملل تدنس الوقار متى شاءت.كانت المرة الأولى التي يرى فيها الصغير دموع جده، وقف صامتا يتأمل باستغراب مؤذ، وكاد أن ينضم إلى هذرفة التمني، لولا أن استفاق على صفعة، صفعه جده حين تنبه إلى أن الصغير قد تعرف إلى وظائف عينيه. فما كان يعهد لها وظيفة قبل الآن إلا وظيفة افتعال حركات تضحكه أو أنها تركز على عكاز تأمله فوق شيء بحث عنه حنين ثم صرف النظر لعدم أهميته ذلك، وهي العيون نفسها التي تحمر عند اختناق أنفاسه من الدخان، لكنها المرة الأولى التي تدمع دموع الأطفال. أتراها تبكي دائما؟ أم أن هناك خلل آلي حصل في تركيبها؟ لن تجدي محاولات حنين الصغير في الوصول إلى تحليل يدركه عقله لما جرى، فظل يترقب بصمت اللحظة التي تمكنَه من طرح سؤاله على جده، تنبه راجي لنبرة الغناء المنكسرة في صوت أبيه، لكنه ظل في عمله حتى تملكه إحساس أجبره على الالتفات لمعرفة سبب الهدوء والصمت اللذين حلا، ولما كانت محطات الحزن عند أبيه كثيرة وأكبر من أن يفهمها، علل الأمر بأنه حنين الوالد لوده السجين، وعاد لعمله وها قد وقع بصر أبي سهيل على زيز يسير فوق الأعشاب والصغير حنين يقف أمامه ولوجهه تفتح مساحات الحزن لذا أحس بالندم، وأدرك ما جرى، فحاول تفادي استمرار الأمر بابتسامة أتبعها نهوضا حيويا رافقه تناول الحفيد، ورفعه إلى فوق كتفيه، وهو يأمره بالتمسك جيدا، ثم نادى راجي، واتجه نحو طريق العودة إلى البيت.

كان الأمر سيان عند راجي سواء استمر العمل أم توقف، لذلك لبى نداء والده، وسار خلفه، وهو ينفض عن ثيابه الغبار، ويمسح بكمه ما علق على جبينه من تراب.

ظل الجد والحفيد كلَ في دائرة احتراسه من الآخر، فالجد يتجنب لسعات تساؤل الصغير، والآخر يتعلم بهدوء ملامح الحرمان في وجه جده.

أثناء الطريق شعر الصغير بحاجته للتبول، لذا انحنى وهمس في أذن جده التي تشبه بضخامتها والتفافها مرحلة انطلاق الزوبعة، وتجوفها يشكل صورة مصغرة لتلك الكهوف التي سمع عنها في حكايات الجدة نعمت. والذي زاد غرابة هذه الأذن كثافة الشعر في فتحتها، إلا أنه تجاوز هذه التفاصيل إلى الإفصاح عن حاجته، فتهدجت بوقار ضحكة أبي سهيل، وأنزله وراح يفك له الحزام والسروال، استدار حنين احتشاما، فضحك الجد مداعبا وقال له:

- ارفع رجلك كما يفعل الكلب. وتبسم الصغير منتشيا برعشة التبول.

أدرك أبو سهيل خلال المراقبة أن الحيوية في صغيره تفقد يوما بعد يوم رونقها الغض، ولمح ندبة حزن ترتسم في حناياه، فقد غدا يلاحظ المفارقات، ويميز الملامح، ودلالاتها.

كانت الجدة نعمت كعادتها، تتكوم تحت تهدل ثيابها الرثة، وتجلس منتظرة عند الباب المنسجم هدوءه وشحوبه مع هدوء وشحوب وجهها، الذي طالما شبهه حنين الصغير ببقايا الرماد في أرض الموقد، وقد أمسكت بيدها عصاها وراحت تنقر ما تناثر حولها من حصى أو قش، غير آبهة بعودتهم. ما دفع الصغير للارتياب، فاقترب منها خلسة، ودنا بفمه من أذنها، وصرخ بأعلى صوته:

- أيتها العروس.

فانتفضت المسكينة هلعا، ورفعت عصاها تريد أن تطاله، وهو يطل برأسه من بين انفراج ساقي جده، ويفتعل ما يغيظها من حركات، وهي تردد:

- آه من جدك. علمك قلة الأدب، ودلعك حتى صرت وقحا.

ويرد عليها حنين:

- لا تغيري الحديث، أنت وعدتني بالزواج، وأنا أنتظر عرسي. ويفر ضاحكا.

وتثور ثائرتها، وتبصق الكلمات توعدا وتهديدا، فيتدخل أبو سهيل قائلا:

- لا، لا يا نعمت أنت وعدت الصبي بالزواج وهو على انتظار الوعد، فلا تخوني عهدك له.

ثم ينحني على حفيده ويطوقه بذراعيه ويرفعه، ثم يدخلان إلى حيث تجلس سمية خلف (لكن معدني) تدلك بما فيه من ماء قدمي راجي المتعب.

لقد بدأت يوميات سمية تمتلئ بالتحول الممتع لوجود حنين الصغير في حياتها، فهي تراقب بصبر مضن حالة تناميه اليومية، وتشعر معها بأن الحياة غدت أضيق، فهي تحلم بأشياء وأشياء له، وتخزن في جعبة حزنها وفرحها لحظة بلحظة أمنيات وأمنيات، ما يحملها على التفكير بمشاريع وأعمال من أجله، خاصة أنها كانت تراه نسخة من عمه السجين لا تختلف عنه بشيء، وهي تتوسم فيه كل أمانيها وآمالها، كيف لا وهي أم، فقد تمنت يوماً أن تحصي عدد شعر رأسه، وحاجبيه، ورموشه، وتمنت لو بإمكانها عدّ مساحات جسده، كانت تتلهف لحفظ كل تفاصيله، فهي تشعر بالجوع إليه كل حين، حتى أنها أثناء نومها كانت تحتضنه وتتمنى لو أنها تستطيع

احتواءه من جديد، أو تعيده إلى رحمها لتحمله معها أينما ذهبت، ولطالما رددت على مسمعه الذي لم يكن ليستوعب، وكان يفهم من ملامح وجهها، أنها تحبه كثيرا لذا يضحك مداعبة لحبها المنبثق عبر أنفاسها وهي تقول:

- أريدك أن تكفني يوم أموت، وأن تصب آخر طاس ماء على بيدك، و أن تدخلني القبر بيديك هذه. وتمسك بيديه الصغيرتين مقبلة، محتضنة، وقد خالجها وخز الفراق الذي تتوقعه وتنتظره يوما ما، فتضمه إلى صدرها، وتنهال عليه بشفتيها عشوائيا لا تبالي ما تقبل منه.

لقد غدا كل شيء ذكرى، حتى القادم المجهول. ونسمت في رأسها حسرة، مبعثها نسيان أخيها سمير لها وعدم تذكره لأخته. إلا أنها ظلت تبدع في مخيلتها فقط، مستقبلا عذريا لولدها، ووعدت نفسها أن تبحث عن أخيها في العاصمة حين يكبر هذا الصغير، ويتعلم كيفية التجول في المدينة وأحيائها، فهي لم تكن على خبرة ودراية عميقة بأحيائها.

* * *

للتعب سلطته على الجميع، إلا على أبي سهيل الذي بدأ يشعر بالملل لطول وحلكة هذه الليلة. فالكل نيام فيما هو يستحضر صورة ولده السجين من نسيج هذه العتمة، ويدور سؤال واحد لا غير في جمجمته: "أتراه نائم أم قلق، لا يدرك طعم النوم؟". وراودته المخاطرة لذا راح يتوغل في عمق بحثه داخل أشواقه وبدأ يجري الحوار مع نجواه:

حبيبي يا ولدي. وما الفرق بين أن تكون نائماً أو يقظاً، في ظلمة مقابر الأحرار الأحياء، وماذا سترى هناك أكثر مما تراه في أحلام اليقظة، أو الغفوة؟ أظنك عاتب علي، هذا من حقك، لكن عنوانك القديم الذي لدي هو أنك سجين ليس أكثر، إنما أين؟ لا أعلم، وما من أحد يمر بنا ليسأل عنك كما في الأيام الخالية، حتى رفاقك الذين كنت تحضرهم معك من حين لآخر، اختفت وجوههم بين الوجوه.

أرجوك إن كنت تسمعني أو تشعر بي أن تقدر ظرفي وعجزي، وتعذرني، فأنا أخشى الإهانات التي يتلقاها أهل المساجين كلما ألحوا في البحث والسؤال، ناهيك عن استفساراتهم التي تلتصق بالمرء، وتجعله يشعر أنه مرتهن لإجابات ترضيهم، وأنت تعرف أكثر منا، ما يريده مغتصبونا هؤلاء، إنهم يسلخون عنا كراماتنا وأموالنا، وحبنا، وأخلاقنا، كل هدفهم أن يحيلوننا حيوانات مفترسة، ليبيحوا لأنفسهم قتلنا وبأي وسيلة، لكني أشعر أنك سترتاح قريبا، ويمتلكني إحساس بأنك ستتنزل عن عاتقك كل ما يتعبك، وأوصيك ألا تنسى أن تزورنا ولو كان ذلك في الأحلام، أقله نراك ولو قبل الموت.

وأحس أبو سهيل بحرارة الدمع فوق وجنتيه، أثناء ذكره للموت، وطاردته صعوبة الموقف، لو مات ودفنت معه حسراته. وتمنى لو له عينان تنفذان بالبصر خلف الجدران والظلام وعبر المسافات، عله يلمحه، ثم بدأ يلعن كسله، ويحاسب نفسه على تقصيره، فقد كان ينبغي أن يبقي عينيه مفتوحتين طوال فترة تواجد ولده حنين بقربه، ليشبع من مرآه، وحاول تذكر ملامحه، ولكن ذاكرته تزيد تعذيبه،

وحولت صورة ولده السجين إلى حب فقط ينزفه دون احتفاظ بأية ملامح، فقد تلاشت تقاسيم شخصيته بين النوم والفراغات والأشياء، ولم يبق سوى هذا الحب الذي يمسك بعنقه خوفا من تسلل البلادة والكسل إلى حركة الدم في شرايينه.

نام أبو سهيل، وفي كيانه أمنية واحدة لا غير أن يزوره ابنه في الحلم، ولو أنه كان يشبه الأحلام بالفول الأخضر الذي يشعرك بالتخمة ولا يحقق الشبع، بل يعزز الجوع، إلا أن قحط الحقائق الملموسة، يفضي إلى أنه لا مفر من الأحلام، وإن كانت غازات تتخم المخيلة بانتفاخ مؤذ.

* * *

استيقظت المدينة على صباح من المنشورات التي تطايرت في شوارعها كفقاقيع الصابون، تعلو وتنخفض، وأيدي الناس تتابعها في شتى الاتجاهات، ليس لقدرة على متابعة الثقافة أو لرغبة في معرفة الحدث، بل لأن لمثل هذه المنشورات من الغموض الذي ينشد فرصته بين الناس. وكان الصبي حنين في طريقه إلى المدرسة، عندما أثار فضوله تسابق الناس على التقاطها وتبادلها، والإقبال على قراءتها، فبدأ يجمع منها ما بلغت يداه، وقرر حملها إلى البيت.

عبر البوابة إلى ساحة المدرسة، وكان الفتيان والفتيات فيها يتنافسون على امتلاك أكبر كمية من المنشورات ليجعلوا منها مجرد لعبة، وسارع إلى مشاركتهم اللعب، وقد امتلأ صباحهم هذا بشيء من الحيوية و الابتعاد عن الرتابة الثقيلة.

لم تكن أيامه القليلة في المدرسة تكفي لحل رموز هذه الأوراق التي كانت تحوي صوراً تحتها كلمات، خطا حنين بما في يده نحو رجوة، الصديقة التي عرفها بمصادفة جلوسهما في مقعد واحد في الصف المدرسي الكئيب. وراح يقارن بين ما معه من أوراق وما بحوزتها، فتوصل إلى أنها تحمل الصور عينها، والرموز نفسها، وضع كل منهما ما معه من أوراق في الحقيبة القماشية التي كان يطلق عليها (الجزء) وكانت منزلية الصنع من بقايا الثياب القديمة، وجرته رجوة من يده قائلة:

- تعال نضعها داخل درج الطاوله ثم نعود لنلعب.

كانت رجوة في الخامسة من عمرها، وحنين في السادسة، وكان لكل منهما تناقض اللون والملامح، فهي سمراء، واسعة العينين، بيضاوية الوجه، يميل فمها للاتساع قليلا، تستقر كل هذه الملامح تحت شعر أسود اللون كأنه مشتق من لون الفحم الذي يصنعه الجد.

فيما حنين أبيض البشرة، أملس الشعر، لعينيه اخضرار كرمة الربيع، ولشعره حرقة اللون في كستناء الشتاء، ناعم الملمس وكثيف، تنزلق منه خصلة فوق جبينه، فيعيد ترتيبها من حين لآخر كلما لامست رمشه.

ألعابهم لها سمة جماعية، وتفقد حيويتها إذا لم يتوفر العدد الكافي لتنفيذها. وكانت رجوة البنت الرشيقة، الحيوية، تبدو أكثرهم قدرة على التكيف والتآلف، يعزز ذلك موقع منزلها القريب من السوق، حيث تزدحم الحركة، ما جعلها تقود حنين الذي لم يألف أكثر من أكوام الفحم وسيجارة جده، ودخانها الذي يعانق سكون الدمع في مقلتيه، وهذرفة الجدة نعمت، ورتابة الأيام بين والديه، ووقف معه الأولاد المترقبين إيعاز بدء اللعب.

تعالت صويحات الفرح بهذه الدعوة، وامتدت الخطى الصغيرة بكثافة الركض نحو حنين ورجوة، وعرضت اقتراحات شتى، ففادي لسمن جسده وضخامته يحب لعبة (القاشوش)، فيما آصف فضل لعبة القط والفأر لأنه الأسرع في الجري، أما مائدة والتي كانت واضحة القصر، والنحافة، وشراسة الطفولة، فقد همست في أذن آلاء الشقراء الهادئة، الوديعة الخجولة، ثم صاحت:

- سنلعب خطف الفوطة.

وبدأت المشاورات فالمفاوضات حول اللعب الأفضل إلى أن وضع حنين يديه في جيوب سرواله وشد استقامة جسده إلى الأعلى، وضغط بأطراف أصابع قدميه، ليرتفع قليلا، ما جعل الجميع يلتفتون إليه، وراح يصفر لحنا، سمع أمه تترنم به في البيت من حين لآخر. ثم قطع استغرابهم ليقول ببساطة وهدوء أنه لن يلعب. فأحست رجوة بخيبة أمل لذا بادرت لسؤاله عن السبب؟ وكان رده وهو يخطو باتجاه الصف أن المدرس قد دخل الصف، وصدرت عن الجميع عبارات التأفف، وساروا برؤوسهم المنحنية إلى الصف.

لم تكن لحنين رغبة المرور عبر ترويضات المدرس المعتادة للتلاميذ، لذا التزم بوصايا أمه، وجلس منصتا، مكتسيا بوقار بدا على طفولته أنه من المحلقين في اتساع مسافات القصد والتصور مما جعل له مودة في نفوس معلميه وزملائه على حد سواء.

* * *

وفجأة ظهر في المدينة رجل غريب، راح يشارك الناس طعامهم دون أدنى حرج، ويتحدث مؤكدا أنه لا يشحذ طعامه، إنما يأخذ حقه في الحياة، فكل ما في الدنيا ملك لكل من قدم إليها، وما من أحد يستطيع ادعاء امتلاكه الأشياء دون سواه فهو قادم عابر إليها مثله مثل غيره، لذا لا يحق لأحد أن يمنن أحداً على عطية.

إنه ابن زلفة كما يروق له ان يقدم نفسه للآخرين، في الخمسين من عمره، رجل غريب الأطوار، له أفكاره الفلسفية الخاصة، ويتصف بعباراته التي تلامس الجنون بشطحاته، يتخذ مسلكا مسرحيا في حركاته وصوته، وملابسه التي تتدلى منها الإكسسوارات. وكثرت حول شخصيته الأقاويل والإشاعات، فمرة وصف بالشعوذة، وأخرى بالجنون، وتارة بالجاسوسية، وطورا بالدروشة. إلا أن الجميع اتفق على أنه ابن زلفة، الفيلسوف الحائر التائه، كثير القراءة، والتأمل، فكم مرة شوهد يقف متأملا لساعات طويلة أشجار البساتين عند أطراف المدينة، دون أن ينبس ببنت شفة، وإذا ما ألح عليه السائل عن سبب صمته وما يفعله، أجاب:

- أتأمل، وأحرس البستان كواجب علي تجاه ما آكل منه.

وإن سئل: هل البستان لك؟

يجيب:

- لي منه ما يسد رمقي، ويسكت جوعي، إذا مررت به. ثم يهز رأسه سخرية من السائل الغبي الذي أضحكه جوابه، ثم يعود ليصمت.

وقف ابن زلفة قبالة الباب الذي بدأ يخرج منه التلاميذ، وفي نفسه رغبة تفحص الوجوه ومقارنة الملامح ودلالاتها، ويدون ما يستنتجه في ورقة كانت بيده، فيهز رأسه تارة، ويبتسم طوراً، ويلاحظ بطرف عينه سخرية المارة منه عند عبورهم. ومشفقا

عليها لعدم قدرتها على استيعاب ما يفوق طاقتها. فابن زلفة هذا متهم بالشذوذ الجنسي، كونه يفضل صداقة الأطفال الذين غالبا ما حذرهم الآباء والأمهات من الإصغاء إليه، أو التقرب منه، لذا كان يقف عند باب المدرسة، يراقب إلى أن توصل إلى نتيجة مفادها أن الطفل الأشقر، صاحب العينين الخضراوين، والخطى الحثيثة الهادئة وخصلة الشعر المنزلقة على نظراته المحدقة في المجهول، هو الهدف.

ذات يوم لحق به، وعرف موقع منزله، لكنه ظل يترقب الفرصة المناسبة للحديث إليه، وتقدمت الخطى بابن زلفة، دون الحذر من شائعات الناس حوله، حتى وصل إلى حنين، الذي كان يبحث عن المنشورات، التي جمعها في الصباح، والتي تحدث عنها المعلم، وأوصى الأولاد بعدم الاهتمام بها لأنها من شؤون الكبار، ولأنها تؤذي ناقلها، وحاملها، لذا عندما وجدها فتحها، وتأملها طويلا، وكاد يهم برميها عملا بنصيحة المدرس، لولا أن انعكس ظل على الورقة، فخاف وسارع لإخفائها، ثم نظر إلى مصدر الظل، وفوجئ بشكل غريب أمامه، فارتعب، وتراجع وهو يخفي بيده خلف ظهره المنشورات، وظل ينظر باستغراب إلى هذا الرجل الذي يرتدي معطفاً أسود وسروالاً منتفخاً عند الفخذين، ويتأبط كتباً، ويحشر خلف صوان أذنه قلماً، وينتعل حذاء جلدياً نظيفاً، وزاد في استغرابه تلك الخرق الحمراء التي تثبت هنا وهناك على صدريته الداخلية تحت المعطف، وأخرى مربوطة إلى جدلة شعره المدلاة فوق كتفه الأيسر، ورغم كل الخوف تمكنت غرابة هذه التفاصيل من إبقائه مسمراً أمامها، إلى أن سمع صوته يقول:

ـ أنا ابن زلفة، وها أنا أتكلم مثلك، فلم الخوف؟ وابتسم.

وظل حنين صامتا، يستعيد هدوءه مع كل كلمة تصدر عن هذا الغريب بصوته الأجش، والعذب، والذي يوحي بحنان الضعفاء. واستمر ابن زلفة بحديثه، بكل دفء وطلاقة، قائلا:

أنا لا أعرفك لكني أظنك مثلي تحب اختراق هذا الزمان، وهذا المكان. انظر - وأشار بيده إلى شجرة ضخمة في الجهة اليسرى - انظر إلى تلك الشجرة التي تتعانق أغصانها بهدوء كيف أنها لا تمل من تحمل أية أذية، سواء كانت من الطير أو البشر أو الحيوان، وهي لا تمتعض من تحديات الفصول، في إسقاط أوراقها، وإرسالها في رحلة الفناء والتحلل، أو في تمزق لحائها لتنبت جراحاتها أزاهير الربيع، أو انتزاع ثمراها عنها، كل هذا تتقبله في سبيل شيء واحد فقط، أنها تفرض على المكان اسمها (ساحة الجوزة)، كما تفعل بعض الصخور التي تسعى للخلود، أما سمعت بصخرة تسمى (عمي علي)، لقد وقفت سنين طويلة، وصار مكان وجودها مضرباً للمواعيد، و غدت مصدرا لحياكة الأساطير. الأنهار، والجبال، والقصور القديمة وغيرها، جميعها تحاول السفر إلى عالم المخيلات، والمستقبل، وهي تكره العيش في آنها المادي. ثم التفت إلى حنين الذي كان يصغي بشغف وما فرَ منه، فرفع يده وحك جبينه وقال: اعذرني لقد آذيتك بثرثرتي، أليس كذلك؟

لكن حنين تبسم له، وهز برأسه نافيا، ما جعله يتحمس للمواصلة، فقال:

- حسن، إذا أخبرني باسمك؟ (وبدا أنه تذكر شيئا) ثم قال: اعذرني، لن أزعجك بعد الآن ومن الأفضل أن أرحل.

إلا أن حنين سارع للرد عليه:

- اسمي حنين.

ما استفز ابن زلفة، لذا تعالى صوته ضاحكاً، وصاح بجنون "أغبياء" ثم التفت إلى الصغير، وقد ركز عليه ببصره، وسأله "أتقول حنين؟"

- نعم، وما الغريب في ذلك؟

- لا، لا غرابة في هذا العالم. ومال بجسده كاهتزاز أغصان الشجرة التي تحدث عنها، ثم قال: الغرابة فيّ أنا، وليس في العالم، لكن قل لي من سماك بهذا الاسم؟

- جدي. وقد استغرب حنين من سلوك هذا الرجل الغريب فعلاً.

فقهقه ابن زلفة ثانية، ما دفع حنين للغضب، فأحنى رأسه، وهم بالانصراف، لولا أن هدّأ ابن زلفة من انزعاجه، وقال:

- حسن لا تغضب، ولكن لم سماك بهذا الاسم؟ ثم صاح: مجانين لا يعرفون مدى تاثير الاسم على حامله، قل لي لم سموك حنين؟

ورد حنين غاضبا:

- لأن لي عم اسمه حنين يا مجنون.

- وعمك هذا ماذا يفعل، أقصد ما حاله اليوم يا عاقل؟

- لا أعلم إلا أن جدي يقول إنه سجين منذ سنوات في الشرق ولا يعرفون في أي سجن، ولا التهمة الموجهة إليه.

- أرأيت؟ وعلق بسرعة واندفاع: أرأيت تأثير الأسماء على أصحابها؟ ولكن قلت أن عمك سجين منذ سنوات وفي الشرق؟ ثم راح يجمع شتات ذاكرته وتركيزه.

- أجل، أتعرفه؟

وتنبه بعد لحظات من الصمت، لسؤال الصبي، وأجاب:

- نعم أعرفه، أقصد سمعت عنه اليوم، وتعرف عليه من صورته.

واستغرب حنين لوثة الهذيان التي ألمت بهذا الغريب وسأله مندهشا:

- تعرفت عليه اليوم! أين وكيف؟

وأجاب وقد كان شارد الذهن هادئ الملامح:

- نعم اليوم، وسأخبرك القصة فيما بعد، المهم أن تأخذني معك إلى بيتكم، فأنا أريد التعرف على جدك.

- حسن هيا بنا، فقد يعود جدي من عمله مبكرا اليوم.

وظل طول الطريق يحاول المواربة والهروب من الإجابات التي لا علم له بها، وسأله الصغير إن كان عمه حقا كما يصفه الجد وكافة أفراد العائلة، فاضطر تأكيد ما يتصف به العم، وواصل سيره وفي جوفه تعفن فكري مما تؤول إليه الحياة، يدفع به إلى الغثيان، ثم سادت، حالة من التآلف بين الاثنين، سهلت عليهما تجاذب أطراف الحديث، خاصة أن أحلام الصغير تميل إلى فوضى الخيال لدى ابن زلفة، فسأله الأخير عن حلمه في المستقبل.

وأجاب الصغير: "سأحكم البلاد كلها".

وأعجب ابن زلفة بهذه الشطحة من الخيال لدى هذا الصغير، وسأله عن أسباب هذا الحلم، فكان جوابه أنه يريد أن يخرج عمه من سجنه ويقفل كل السجون. ثم سأله إن كان يعرف معنى كلمة سجن؟ فأجاب أنه عرف معناها من جده الذي وصف السجن بأنه مكان يموت فيه حتى الضوء. واستفزت العبارة الأخيرة انتباه ابن زلفة، وسأله:

- وماذا غير هذا؟

- هناك الكثير من الأمور ولكنها ستبقى سرا حتى أبلغ ما أريد.

وهتف ابن زلفة مع نفسه "جميل، وتجيد حمل الأسرار أيضا، إذا يمكنك أن تصل إلى ما تريد، يا لك من طفل أعجوبة".

سار الاثنان، صامتين حتى أقبلا على منزل أبي سهيل، فبدا المنزل من بعيد أشبه بكبة صوف غزلتها عمياء، فهناك حجر

صغير وهنا حجر كبير، وتلك فجوة في الجدار من الخارج، وابتسم لرؤية السور الخشبي الذي يشبه ببنائه البسيط ثورة عفوية، فهنا عمود وحيد وهناك عامودان يصل بينهما حبل تدلى حتى لامس الأرض، وهناك أكوام من الحطب غير المشذب، تكمل سد بعض الفجوات في هذا السور. اقترب ابن زلفة من مدخل المنزل، وتسلله شعور أنه يدخل كوخا من أكواخ الصوفيين؛ فتكوم الجدة نعمت أمام الباب كبقجة الملابس يعزز مثل هذا الشعور، دخل من باب المدخل فلمح صورة تعلق إلى الجدار تفرض على الداخل رؤيتها، ثم راح يجول بنظره في أرجاء المكان بحثا عن شيء يثير استفزازه، وتركيزه، ثم عاد ونظر إلى الصورة مؤكدا لنفسه صحة تخمينه، وبقي في صمته. ودخل حنين غرفة أخرى ثم عاد برفقة أمه سمية، التي كانت بملابس لطخها الطحين والعجين، فقد كانت تعد للخبز، وأتت متلهفة لسماع أخبار حنين الذي مضى على انقطاعها زمن طويل، و استقبلت ابن زلفة بقليل من التكلف قائلة:

- أهلا، أهلا بك، تفضل.

وأشارت إلى حنين كي ينادي جده من خلف المنزل، وعادت تتكلم دون تركيز مع هذا المجهول الذي تنتظر منه ما سيفرح قلب العائلة بالتأكيد. ورد بهدوء:

- شكرا، ولكن من علمك ارتداء الملابس ذات اللون الأصفر؟

وشعرت بالحيرة والارتباك، فهي لم تتوقع منه مثل هذا السؤال، واعتبرت هذا تواقحا في السلوك لتدخله في شأنها الخاص، خاصة أنه غريب يتحدث إليها للمرة الأولى، لكن ابن زلفة واصل كلامه: يبدوا أنكم جميعا تفتقرون للفلسفة في كافة أمور حياتكم. مساكين أنتم تجهلون الكثير ولا تجيدون سوى الأكل والنوم والتكاثر. ثم ضحك ساخرا وأطبق شفتيه.

إلا أن سمية فقدت السيطرة على تمييز ماهية الإحساس الذي تملكها إثر هذه الضوضاء اللفظية، التي تسمعها، لأول مرة، وبم تراها تشعر؟ أبفرح مهزوم؟ أم بإحباط يبعث على التقيؤ، أم بالسخرية، من هذا الغريب الذي بدأ حديثه معها بالتشاؤم؟ لكن حنين السجين يستحق التضحية وتحملت كل ما صدر عن هذا الرسول، فالمهم هي أخبار حنين، ولا شيء سواها.

استقر بوقفته، وراح يجول بنظره في المكان ولشفتيه ابتسامة محير مغزاها. وظلت سمية، تطل بين الحين والآخر من الباب، وترتقب حضور أبي سهيل الذي لا شك أنه تأخر بسبب التراخي الذي أثقل جسده عند سماع خبر قدوم هذا الرجل من عند ولده السجين، ولفت انتباه سمية أن الجدة نعمت تغط في غفوتها المعهودة، فاطمأنت إلى كونها لن تفسد عليهم فرحة الاصغاء لفهم أدق التفاصيل. لكن ابن زلفة كان أسرع من سمية في إظهار رد فعله على ما تفكر به، لذا وضع يده خلف ظهره، وطرق الأرض بقدمه قائلا:

- أظنها ولدت لتهرم، وتخرف وتهذرف وتفسد الهدوء والتركيز؟

وردت سمية بالإيجاب على تحليله، وهي تسر في نفسها: "بهذا أصبت".

وصل أبو سهيل، بملامحه التي تثير الشفقة، والرأفة، فقد فقد أعصابه أثناء محاولته لملمة شتاته ليظهر بمظهر المتزن كوالد لذلك البطل الذي بعث بأخبار طيبة لأهله في جعبة هذا المتنكر بمظهر وسلوك المجانين، لكن شغف الأب بابنه، والإشفاق على النفس، وحنان الأبوة، جعل الدمع أوفر حظا من الكلام، وانهار الأب المنتظر منذ سنين، وسقط راكعا بجانب الحائط، ودفن وجهه بين كفيه، وأوغل في النحيب، كأنه أنشودة فرح طفولي بعد صمت كاد ينسيه الكلام. وتملك ابن زلفة حزن أثناء مراقبته احتراق الوجدان

في حنايا هذا الأب المسكين، وتعالت في نفسه روائح القرف من نتن الشعارات المتعفنة في أنابيب المدافع والبنادق مرورا بمهزلة تطوير الحوار، عبر لغة الاستمرار بنزاهة في بؤرة ضوئية هنا، وبدنس في بؤر هناك، والنتيجة الوحيدة اختزال الصمت وتراكم الأسفار، والمزامير الدنيوية، فهذا الزمن هو زمن فردية النواميس والمعتقد.

استعاد أبو سهيل روعه، وهدأت وحشة افتقاده لولده السجين، ورفع رأسه سائلاً الغريب المنتصب أمامه قائلا:

- مرحبا بك، لا تؤاخذني. غلبتني نفسي، ولكن اخبرني ماذا تعرف عن حنين؟

وبحركة تمثيلية رشيقة، تناول ابن زلفة الكتب من تحت إبطه، ووضعها أرضا ثم جلس فوقها، عاقدا عشره على ركبتيه، وأخذ يحدق في وجه أبي سهيل، ودون أي تمهيد، أو ربط لما يجري، سأله:

- كم عمرك يا سيدي؟

وتزاحمت خطوط وجه أبي سهيل، وتقاطعت في أماكن متعددة، وارتسمت علامة استغراب على محياه الذي يحتل أنفه الأفطس منه الوسط، ثم التفت إلى حنين الذي تبسم لجده، وفهم أبو سهيل أن لهذا الرجل طباعه الخاصة، ثم أدار وجهه ليرى سمية ترفع كتفيها نافية استيعابها لما يحصل.

وفتح فمه ليهم بالحديث وقد حك بيمينه ناصيته، إلا أن ابن زلفة قاطعه:

- أردت أن أحقر الظلم الذي دفعك للبكاء وأنت في هذا السن يا سيدي.

فانجلت ضبابية سؤاله، وهز أبو سهيل رأسه، معربا عن امتنانه لتعاطف هذا الغريب معه، ثم سأل:

- منذ متى سجن ولدك؟

فاستعاد أبو سهيل حيويته، فأخيرا بدأ الحديث مع هذا الرجل يسير بشكله الطبيعي، فأجاب:

- قبل ميلاد هذا بشهور، (وأشار إلى حفيده) وإكراما له أسمته أمه حنين.

- وحنين السجين هل هو مِن...؟

وفهم أبو سهيل القصد من سؤاله، فهز برأسه طويلا وقال:

- هو منهم، لكن أخبرني كيف حاله؟ وهل حقا أنت تحمل منه رسالة، أم تراه خرج، وبعث بك لتجعلنا نطمئن عليه؟

تنهد ابن زلفة سرا، والتفت إلى الجهة اليمنى، حيث ألقى نظرة على الصورة المعلقة إلى الجدار، وقال: تلك صورته؟

- نعم إنها صورته، كبرتها بعد أن سجن خوفا من أن يبدأ - مع بعده - شكله بالتلاشى تدريجيا من ذاكرتي.

فأطرق طويلا يكسوه هدوء شجي، ثم شد أصابع يديه ونشرها أمام وجهه، وقال:

- احتفظ بها.

وكنائم استيقظ مذعورا، انتفض أبو سهيل عندما سمع قول الغريب، ولكنه شجع نفسه على خداعه وآثر استمرار تكذيب ما سمعه قائلا:

- ماذا تقصد؟ وضح لي لو سمحت.

- اسمع يا عم، ولدك خرج من السجن، ولكن بغير إرادته، وبلا كينونته.

فتسارعت وتيرة ذبذبات القلق والتشويش، والانفعال في دواخل المصغين، إلا أن أبا سهيل سيطر عليه شك مبهم كالبلاغة إذا سمعتها عقول غبية، وسأله متوسلا:

- أرجوك لقد سئمت الترميز، لدرجة أني كرهت الأحلام لما تحوي من رموز صعب علي تفسيرها، لذا أوضح لي.

وراحت إجابات ابن زلفة تعقد المسألة أكثر مما تبسطها فقد قال:

- إحساسك يدرك ما تحاول التشكيك به.

- حسن لنقل هذا، لكن ساعدني لأعي حقيقة ما أسمع.

- ولدك خرج من الظلام إلى الظلمة بشكل أبدي. (ودون مراقبة ردود الأفعال) قال:

هذا ما قرأته اليوم في منشورات وزعها رفاقه في المدينة هذا الصباح.

وتذكر الصغير النسخ التي بحوزته، وقد فاجأه ما سمع، وقال:

- أنا معي منها.

أمسك ابن زلفة بالنسخ، ودنا من أبي سهيل الصامت كتمثال حجري قديم، وقال:

- أليست هذه صورة ابنك؟ وأشار بسبابته إلى صورة حنين في النشرة، ودون أن يمسك أبو سهيل بالورقة حدق، وهز رأسه مؤكدا أنها صورة ابنه السجين. وراح ابن زلفة يدلي بعظات كانت أشبه بالاغتسال من النجاسة ببول خنزير، وقد سدت مسامع الحاضرين

لا إراديا، وأوغلت أذهانهم في محاولات مختلفة لإجلاء الغشاوة عن المبهم الذي سمعوه منذ لحظات، تعصف بهم مشاعر أحسوا بجذورها منذ أيام، دون أن يفهم أحد منهم دوافعها، إلا بعد أن أشعل هذا الواعظ المغفل ذاكرتهم، بما كان قد أحرق قلوبهم منذ سنين.

* * *

إذا أراد المرء أن ينقب في أكوام الذكريات والأحداث، سيضنيه الجهد الذي يبذله، وتتضخم معاناته، فتتأكسد فيه مناخاته النفسية، وتنهار عليه القسوة كانهيار منجم على عماله، وتغدو المسافات التي تفصل بين المخيلة والحدث سرابا، حيث ينأى الحدث عن استحضاره، وتتلاشى صوره في المخيلة.

كاد أبو سهيل يستنجد بالجنون اللامجدي ليتمكن من الإقرار بما سمعه، أما سمية فقد أجفلت فارة إلى الداخل وقد اختنقت حنجرتها فبدت كأنها قط يسعل، وجلس حنين الصغير يعبئ في جعبته دون أي تفسير صور ما يحدث أمامه.

ظل ابن زلفة ينشر سموم هذرفته غير مبال بحال مسامع من حوله، وصار كأنه يحدث نفسه، فخلق بهذا جسرا بين عالمه وعالم الجدة نعمت التي تغط في غفوة منذ أن وصل.

حقا إنها المواقع التي لا يمكن لأحد الهروب من تحمل مسؤولية التورط بما يخالجه لحظتها. نهض ابن زلفة وقد تشامخت فيه شخصيات وأشباح سيزيف، وأوديب، وهاملت، وماكبث. أفكار ونظريات تدفعه كلها إلى الشتم تارة، وأخرى إلى المدح صانعا من ما أحدثه أيديولوجيا شعارها الصمت، والذهول اللامعقول في زمنكانية أبي سهيل.

تنفس الجد الفجيعة بعمق، ورفع رأسه ناظراً إلى حنين الذي لا تعنيه أسباب الدموع التي تفيض من عيني جده، بقدر ما يعنيه الشعور بالانتماء لهذا العجوز الذي أجهش قائلا:

- تعال إلي. وهر كأنثى ذئب سرق جروها، وفتح ذراعيه، ليصبح مسيحا كغيره من الذين صلبوا وما زالوا على خشبة الهموم والتنكيل التعسفي، كل يوم ألف مرة.

وبدافع التطهر واللاوعي ارتمى الحفيد على صدر مسيحه باكيا، لا يعرف تفسيرا لهذا التصدع الذي يشهده في فضاء فكرة جد الأمس القوي.

كان أبو سهيل ينحب نحيب البعير الثكلى أثناء مسح وجهه بشعر حفيده الصغير ويردد:

- لن تفارقني بعد اليوم.

وكانت عاطفته اليوم هذه كالأعاصير في ظمأ الصحراء عند قارة حمارة القيظ. وتسارعت حركة وجه أبي سهيل فوق رأس الحفيد، كما لو أنه أيوب، يبرد حرارة تقيح جسده بالرماد، وأي رماد عاطفي هذا الذي سيخفف من حرارة تقيح قلبه المشدود كأنه وتر قوس قبيل إطلاق سهمه في نجاة أدونيس من الخنزير البري.

تسللت إلى حياة أبي سهيل عادة جديدة، فهو منذ أن سجن ولده تجده يدلف إلى النوم ناحبا كلما شده الحزن إلى البكاء، ليستيقظ بعدها وهو يشكو ألما شديدا في رأسه.

نهض وقد اختنق صوته، وتراخت ملامحه، وتوترت أوداجه، أمام أعنف أمواج راحت تلطمه بين فرح وحزن، بين زيف وأمل، وحنق ويأس، ونزيف اللقاء ونحر الوداع، لذا دخل المنزل، وتناول مخدة وغطاء وتمدد وقد دفن رأسه في ظلمة حناياه التي لا تكفي حاجته للانقطاع عن العالم كانت سمية تنشج لحنا حزينا، أثناء تفجير غضبها في العجين الذي ستدخله نارا حرارتها أقل من حرارة غضبها، فيما كان حنين يمتص الحزن من نشيج أمه، أثناء استناده إلى الحائط، ولم يأبه أحد لغفوة الجدة نعمت التي طالت هذه المرة عن سابقاتها.

أخرجت سمية العجين بعد أن قرصته، وغلفته بغبار الطحين، ليسهل استقلال أرغفة العجين عن بعضها البعض، ثم وضبته فوق

القدر المعدني المستدير، وغطته بقماش رطب، ثم أعدت عيدان الحطب وحصير القش عند جانب المنزل حيث تسيل أشعة شمس الخريف المتراخية، ثم هيأت الصاج، وكنست ظهرها، ومسحتها من الغبار، وأضرمت تحتها النار، وفي عينيها دموع، عززها الدخان، والخبر الذي سمعته، فلم تتنبه لولدها الصغير الذي نام حيث كان يستند إلى الحائط، وراحت ترق العجين، وتحوله إلى أرغفة بعد أن تلوحها فوق ساعديها العاريين، ثم تجعلها فوق كارة من القماش، ثم تلصق الرغيف فوق الصاج، وإذا ما نضج سلخته ووضعته فوق صدر معدني أخر، لتلصق رغيفا جديدا، والأمر سهل جدا لو كان في ظرف عادي، لكنه في مثل هذا الظرف يشبه إعلان الإلحاد والارتداد غصباً، لأنها تحاول جاهدة لملمة بعض ضبطها لنفسها كي تنهي ما يتوجب عليها، فالحزن لا يغني عن الجوع، والخبز يكاد ينفد من المنزل، ولا أحد غيرها يمكنه إنجاز عملها كبديل عنها.

سمعت وقع خطوات راجي، وحشرجة صوته في باحة الدار، فعاودها الاختناق، والبكاء، وقد تعالى دخان النار التي تعس تحت الصاج، واضطرت للنفخ فيها كي تحرضها على الاشتعال من جديد.

أسند راجي فأسه إلى كومة الحطب، ورمى الحبل إلى جانبها، والتفت إلى حنين الذي ينام متوسدا كفيه، وتقدم منه مرددا: "حبيبي أتنام هنا؟" وانحنى فوقه، ثم حمله وعبر به إلى الداخل، ومدده بجانب جده، ورجع ليسلم على العجوز نعمت وهي تتمطى بجسدها لتستعيد نشاطها، ثم قصد سمية، وسلم كعادته، وجلس القرفصاء، وأخذ يقضم حواف الأرغفة المحمصة، ويمضغها بوداعة من يعمل لأجل العمل فقط، ثم تنبه إلى كون سمية حزينة، كغير عادتها لم تسله عن سير العمل، ولم تطلب منه مساعدة، وكعادته أعاد الأمر لشجار قد يكون وقع بينها وبين خالته نعمت. لكنه لمح انهمار الدمع

من عينيها، فحدق بها قليلا، ليميز بين دمع الدخان ودمع سببه أمر آخر، وسألها عن سبب بكائها؟ ولم يجبه سوى شعوره بالتشنج، والانكماش، أمام إطباقها على الصمت.

- هل أنت مريضة؟ ولم تجب مما اضطره لطرح سؤاله بشكل مباشر:

- ما الذي حصل؟ ولم تجبه مطلقا، لذا قضم كسرة الخبز وهو يقول: "كما تشائين".

وشعرت سمية بالغضب يتسلق كافة أجزاء جسدها، لذا أطلقت إجابة عنيفة اختصرتها:

- كفى، كفى، كفاك ثرثرة. ولم تكن سمية تأتي على استعمال مثل هذه المفردات مع زوجها، ورغم دهشة راجي واستغرابه، إلا أنه حافظ على هدوئه، وصمته، وظل يلوك ما بفمه من خبز، ويلوك في دواخله أسئلة شتى ورجاءات عدة أن تفصح عما يثير غضبها، تناول كسرة خبز ثانية وراح ينقر بطرف سبابته حافة صدر المعدن الذي تحت الخبز، وقد تسمر جفناه، مما جعلها تشعر بضرورة تبديل سلوكها، كي لا يسيء فهمها ويظن أنها تتواقح عليه، وراحت تحاول الإفصاح بصوت تخنقه الغصة، والحزن:

- حنين.

ورفع نظره باتجاهها مبتسما وهو يقول:

- إنه ابنك، ثم ابسببه كل هذا الغيض؟

وهزت راسها بالنفي، وعادت لتقول:

- أنت لا تفهم ما أقول.

وانفعل راجي ، وازداد حنقه، ثم راح يضغط على أسنانه، ويتكلم كاظماً ما يمزقه من صراع في جوفه، وسألها:

- ما الذي لا أفهمه تكلمي؟

وأجهشت بالبكاء، وفجأة توقفت، وبلعت ريقها، وعادت لتعبئ جوفها بنغب التهمام، وتوقفت عن العمل، وقالت:

- حنين أخوك.

- ما به؟ وقد خالجه اضطراب.

- انتهى أمره، وتخلصوا منه.

وكان لوقع الخبر على مسمعه وقع صاعقة على مبنى تهدم بها، فتحول إلى مزيج مائع من الرغبات المتنافرة، أفيصدَق، أم يكذّب الخبر، ووجد سؤالا يمكنه من التوكؤ لهنيهة، وسألها:

- من أخبركم مثل هذه الخرافات؟

- لقد وجد الناس منشورات في الشوارع، وهي تحمل صورا لبعض الذين قضوا معه، وبإمكانك رؤيتها هناك على مسطبة النافذة.

نفر من موقعه مندهشا مرعوبا، متلهفا لرؤية المنشورات، متمنيا تكذيب ما قالته، آملا أن تكون أبصار الجميع مخدوعة بما رأت، وخطا مسرعا أمام جلوس الجدة التي نادته، ولكنه لم يعبأ بثرثرتها، وتجاوزها إلى مكان المنشورات، وتناول منها واحدة، وفتحها ببطء وحذر، وراح يقرأ ما وقع عليه بصره، فيما كان العويل يتكثف تدريجيا مع تكثف تأكده من صحة الخبر، فتناول ورقة ثانية، ثم ثالثة ثم أخرى، فغيرها، وهو يجري مقارنات بينها، وانفجر صارخا:

- كذب، كذب، كذب.

إلى أن استقر بنظره على توقيع في نهاية الصفحة، التغت برؤيته كل الشكوك، فعلا رجاؤه وعويله دون جدوى فوق أسلاك الذكريات الطويلة لطفولتيهما معا، وبدأت تتنامى في قلبه محطة حرمان جديد تضطره للقنوط، والقيلولة، في فيء الحزن إلى حين لا يعلم أوانه، فلقد تبخر حلمه برؤية الأخ الوحيد الذي انتظره كل هذه السنين التي حاك لحظاتها بخيوط من القلق، والانتظار، والترقب، فقد فكر خلالها مرات ومرات بحلول شتى لهذه المشكلة، وخطط لأعمال عدة اعتقد أنه لو ينفذها سيسترجع أخاه، ولكنه لم يفكر ولو للحظة واحدة فقط بما قرأه وسمعه الآن، وكيف له أن يتوقع مثل هذه القسوة في تبلغ النبأ، وأخذ يطرح اللوم والاستغراب من عدم قدوم أحد ليبلغهم، وساوره تفكير وتساؤل حول الجثة، وهل سيحصلون عليها؟ لكنه توقف وبدأ يوطن نفسه في فكرة أنه سيكون مجهول القبر، ثم رفع بصره إلى صورة أخيه في المنشور غير الواضحة، وبدأ يهتز بكامل جسده بسبب توتره الحاد، واجتاحته رغبة النواح كالنساء، لا بل شعر بحاجة لإطلاق صوته كما تفعل الذئاب التي لا زال صوتها وشكلها في رأسه منذ تلك الليل في قلعة الحباري. ليته تمكن من إطلاق العنان لنفسه، لتنضح بكل ما في أعماقها من رعب الافتقار إلى أخوة، لماذا لم يتمكنوا من لقائه ولو لمرة واحدة فقط؟ لمَ لمْ تصله منه أية أخبار؟ وساوره الندم، والشعور بالذنب على التقصير، وما جدوى كل هذا؟ فحنين لم يبق منه إلا صورة معلقة في الجدار، وكتابات منتشرة على جدران المنزل هنا وهناك، وصراخه الذي أشبع به فضاء المنزل أيام الطفولة، وذكرى اسمه في حنين الصغير.

تراخت أعصاب راجي، وظل ينزلق من وقوفه مستندا إلى الجدار قرب النافذة، والدمع يغالب فيه النحيب، حتى تكور في القرفصاء، وأخفى رأسه بين ذراعيه، وراح ينحب، ويضرب رأسه بساعديه.

وتنبهت إليه الجدة نعمت، فزحفت صوبه وهي تلح بالسؤال عن سبب بكائه، فاختلط رجاؤه ببكائه وتساؤله: لماذا؟ لماذا كل هذا؟ حرام.

وسمع أبو سهيل نحيب ولده، وكان الحزن قد تسلل حتى بلغ منه أطراف الأظافر، التي نشبت بلا شعور في مفصل ركبتيه، وهو يردد باكيا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولاحظت الجدة نعمت أبا سهيل، وراعها ما آل إليه حاله، لذا أخذت تبكي متوسلة أن يخبرها أحد منهما ما الذي جرى، فزحفت نحو أبي سهيل، ولم يكن عجزها عن البكاء بقدرة عجزها عن الحركة، إلا أنها تمكنت من الوصول والجلوس أمام أبي سهيل وسألته:

- أرجوك لقد قطعت نياص قلبي. لم البكاء والعويل أخبرني، أرجوك ما الأمر؟

وظل ينحب غير مبال بسؤالها، ثم شعر بضرورة استنفار وجدانها، بعد أن انتشرت الهذرفة والثرثرة والإلحاح، فأخبرها بصوت كأنه خوار ثور لحظة النحر:

- لقد قتلوا حنين في السجن.

وأجهش رافعا الصوت بالنحيب فقد آلمه سماع نفسه يقر لأول مرة بموت ولده، وهذا أكد له تباعد المسافة بينهما وإلى الأبد، ما جعله يصاب بالهول والفزع.

وبلغ العجز من نعمت مبلغا لم تدركه من قبل، فعجزت عن إطلاق صيحة، أو ولولة، ولم يصدر عنها سوى أنين بحة، كأنه انفلاق الروح من جسد ترامى على فراش المرض عصورًا، وهو يصارع

من أجل الحياة، وتشكلت بهذا أخيرا لوحة مأساوية، مسرحها مذبح الفقر، وأنغام النحيب المتردد كترانيم العبادة في معبد الإله مهاتارا.

وتلبدت في مخيلة كل منهم ذكريات حنين، فنهض أبو سهيل يرثي ولده متخليا عن رداء الصبر والوقار، ووقف قبالة صورته، وهو يتمنى إنزالها، واحتضانها بكل تلك العواطف الملتهبة في هذه اللحظة، لكنه أحجم عن ذلك وهو يردد:

- لا لن أنزلك من عليائك مهما حدث، وستبقى في سموك كما أنت شهماً، نزيهاً، فلقد ارتسمت ملامحك في كل الضمائر، حتى البليدة منها، وفي ضمائرهم الميتة انغرزت ذكراك، لذا لن يواري التراب منك إلا ما يفنى، وليس مهماً أين هو مكان هذا التراب.

وشعر بالاختناق لحظة ولوج صورة مواراته القبر إلى ذهنه، فقال:

- التراب، التراب، ذلك الشيء الذي يقبل الامتزاج مع كل ما هو فوقه، إلى أن يبدأ بتجزئته حد التلاشي.

* * *

لكل متسع مختصر، ولكل مختصر إسهاب، واختصار الحياة لا جدوى الرجاء. وإسهاب الولادة مجون الظن، واشد أنواع الضياع والتيه، ذلك الناتج عن اغتيال الأفكار بعضها بعضا، بواسطة ضوضاء الرغبات، هذه هي العلامات المرورية لطموح ابن زلفة.

كان يجلس في ظل شجرة، عند تقاطع الطريق المؤدي فرع منه إلى منزل أبي سهيل، ولو رأيته من بعيد في جلوسه لتوهمته تمثالاً من تماثيل رومانيا؛ لثباته في حالة مراقبته لتشعب الأغصان في هذه الشجرة المتسكعة تحت دغدغة المطر. فبرأيه توزعت فروعها في السماء كالنقمة في نفوس الفقراء، فتكتكات المطر فوق أوراقها التشرينية كتكتكات أسنانهم أمام موقد بلا نار. ثم ركز ببصره على حبة مطر تدلت من فنن متوهما أنه يملك قدرة إبقائها متماسكة ومعلقة في مكانها أو إسقاطها لحظة يشاء، ويخونه الحظ فيركز على أخرى، وهذه لعبته التي يمارسها منذ زمن، وفي كل وقت حيث تنتشر حبيبات الماء، سواء كانت من فوهة حنفية ما، أو فوق حافة غطاء وعاء ما، أو حبة عرق فوق جبين عامل.

مع إطلالة فصل الشتاء يهيئ ابن زلفة مظلته وقطعة الجلد التي باتت كأنها جزء من خارطة جغرافية في مدرسة أقفلت منذ سنين، ويحملها معه ليجلس فوقها في الأماكن المبللة السطوح، يرتدي معطفه الذي يبقيه عليه في حمارة التموزيات، وصبارة الكانونيات، وجزمته وسرواله اللذان كانا هوية له وليس لسواه يميزانه من بعيد، ولم يكن يطرأ على شكله أي استبدال، الشي الوحيد الذي كان يستبدله هو عناوين الكتب التي يتأبطها أينما ذهب، وقد كان يقرأ أكثر من كتاب في الوقت ذاته.

ظل جالساً في مكانه إلى أن اقترب موعد مغادرة التلاميذ من المدرسة، فقد تمكن من توطيد علاقته بكل من حنين، ورجوة، وسامر، وآصف، رغم تحذيرات الأهل ومراقباتهم له ولأبنائهم.

وقف من جلوسه، وتناول قطعة الجلد ولفها بعد أن نفض عنها الماء، ثم أدخلها جيبه، وتأبط الكتب، ثم قصد الحي الغربي، باتجاه بوابة المدرسة، يتأمل أثناء تجاوزه الممرات، تصاعد دخان المدافئ، بأشكاله اللولبية، وله حلم أن يجلس يوماً فوق حزمة من الدخان لتتصاعد به عبر امتداد السماء. ثم يتعالى ضحكه ساخرا من نفسه، بعد أن يتخيل انطفاء النار فجأة. فيجهر لنفسه:

- سأهبط على رماد الموقد كعفريت قذف شهابا، وسأتحد مع عبودية السواد الذي سيغلفني.

ثم تشغل بصره حالة جديدة، فتنعكس على أفكاره وخياله، فقد مر بجانب كومة نفايات، فحدقت به عيون كلب كان ينبش طعامها، وخالجه شعور مفاده أن الكلب يشعر بالإحراج، فبادره بالقول:

- لا عليك لقد فعلتها قبلك، وهذا قدر الذين ينشغلون مثلك ومثلي في قضية تفسير ارتفاع الأسعار، أسعار الملابس النسائية القصيرة، وانخفاض أسعار الملابس الطويلة.

ثم توقف قبالة الكلب يكمل حديثه والآخر يصغي، فانحنى ابن زلفة ينبش معه، وهو يقول:

- اعلم أيها الكلب أن المرأة تشتري بذلك مساحة أوسع من أبصار المارين بجانبها، وهي توفر تسهيلات كثيرة لمرتديها، سواء في المواصلات، أو في الدوائر الرسمية، وهن بذلك ذكيات. والمسكينة التي تشتري ثوبا طويلا لرخصه، تقع في فخ دفع أضعاف ما دفعت الأخرى، لإنجاز ما يمكن أن تنجزه الملابس القصيرة، والأكثر غرابة يا بن الكلب، أنك لا تغضب إن شتمتك بابن الكلب؟ لأنها حقيقة، وقلة من يتقبلون الحقيقة، اعذرني فقد بدأت أتغابى، وسأرحل لانشغالي، لذ تقبل مني ما تبقى من لحم في هذه العلبة.

ورمى بها إليه، فجفل الكلب منها، وعاد ليقترب منها ويشمها، ثم استدار رافعا رجله، وبال عليها، ما دفع ابن زلفة ليقهقه عاليا، وانصرف مرددا:

- كلب شهم. كلب شهم.

توقف المطر قليلا، وتلبدت السماء بالغيوم، وتكاثفت، وبدت كأنها قطيع ضخم من الأغنام، الرمادية، يعبر شوارع المدينة، إلى مراع أشد دفئا.

وصل إلى نهاية الشارع، حيث أصبح مطلاً على المدخل الرئيسي للمدرسة، ووقف يفكر في هذا السالب الصغير والمخيف في آن واحد. فالمدرسة تسلب المرء سعادته، وطمأنينته، وتبريره لذلك، أنها تعصر فوق إسفنج الفهم عند الطفل معلومات نفذ تاريخها منذ آلاف السنين، وفسدت مضامينها، فالحروف واللغة سجن، والنظريات والأفكار التي تتوارثها البشرية منفى وراثي. ثم صرف ذهنه عن هذا الهذيان المقرف سائلا نفسه:

- أليس انتقاد الشيء كالسعي وراءه؟

وتمنى لو أنه خلق في زمن آدم، ليكتشف الأشياء من حوله، ويستمتع بهذه الاكتشافات، بعد أن مل زمننا تكاد تنقرض فيه الاكتشافات المهمة والبسيطة. فلم يعد في يومنا هذا ما هو خارج التهديف.

فجأة أوقف جمجمته عن احتواء أي من مثل هذه المنبهات الفاصلة عما يشغل توصيلات الحواس عبر التركيز المباشر، وأطلق صافرة حادة الأنغام، لينبه حنين والأطفال إلى مكان وقوفه. لوحوا له بصغار الأيدي، وعبروا إليه وهو ينتظرهم بوداعته التي تهبهم حنانا يمنحهم الأمل لتجاوز مشاكلهم.

وقد اعتاد الأطفال مرافقة ابن زلفة إلى أماكن يحددها هو، ويضمن زيارتها حكايا، وأغان خاصة، تجعلها غريبة فوق غرابتها من حيث طبيعتها. وهذه المرة كان الموعد بينهم لزيارة مغارة التوتيانة لذا أحضروا محتاطين للأمر بعضا مما يحتاجونه، فذا سرق من بيته رغيف خبز إضافي، وذاك جلب بعض الأطعمة دون علم أمه، وجلب آصف معه مطارة ماء قديمة، أضحكته بصوت مرتفع عندما رآها وراح يردد:

- تشبه قنفذ أصلع.

كانت السماء قد صفت، وراحت أشعة الشمس تغمز أسطح بقع المياه المنتشرة في الطرقات، وبدا المنظر كأن الأرض أنبتت بلوراً. رفع حنين محفظته القماشية والتي غلفها بكيس شمعي كي لا يبللها المطر، وأعطاها لابن زلفة كي يحملها عنه، وانطلق لاهياً، يقذف الحصى بحذائه مرة، ويقفز فوق بقع المياه أخرى، ثم وقف أمام انعكاس صورته في إحدى البقع، وسأله عن كيفية حدوث هذا الانعكاس؟ وأصغى لتلقي الجواب:

إن كثافة المياه، وشفافية مادتها لا تسمح بتسرب الضوء عبره إلى ما لا نهاية، بل يعكس الماء النور فينعكس الآخر على الكتل والأجسام التي تعترضه، فيحدث هذا الذي تراه الآن.

صمت حنين غير مقتنع بتحليل ابن زلفة، وفجأة تناول حجرا وقذفه إلى حيث أطل قط كان داخل كيس القمامة، فذعر القط، وفر جاريا، وقد علق الكيس برأسه، وهو يقفز مذعورا، فتعالى ضحك وصراخ من حوله مما زاد هلعه، وحاول بعض الصبية الدنو منه، إلا أنه حمل الكيس ودخل في ديجور في أحد الممرات. كانت رجوة التي تسير منتصبة القامة مكثفة ملامح وجهها وتخيلاتها لمغارة التوتيان، تمطر ابن زلفة بوابل من الأسئلة عن المغارة، فيتضايق من إلحاحها الذي يفسد عليه متعة اختلائه بنفسه، وإذا أحس أنها

شعرت برد فعله، تدارك الأمر بشرح مفصل، وإجابات مطولة عن أسئلتها.

ربط بين سامر وآصف خلال هذا المسير مشاغبات طفولية عفيفة، وراح آصف يعرقل خطى سامر القصير النحيف، ذي الشعر الأشقر فوق رأس يبدو إذا ما حركه كرأس هدهد. وترتسم ردود أفعاله على سحنته البيضاء بسرعة تدل على طبعه الخجل المغلف بصمت يخفي دهاءً، يمكّنه من الإيقاع بآصف مرات عديدة في شراكه، فيثير ضحك الرفاق؛ فتارة يضع شوكة مكان جلوسه، فينهض آصف صارخا كمجنون، وأخرى يعثر على ضفدع فيلتقطه خلسة ويضعه في جيب آصف الذي يدخل يده في جيبه كعادته، ويخرجها صارخا مولولا، فيثير دهشة الآخرين الذين ما إن يكتشفوا الأمر حتى تنفجر سخريتهم منه. ويتذكر سامر حادثة انتقم بها من مدرسة اللغة الأجنبية، التي كانت شديدة القسوة على تلاميذها، فقد جمع كمية من الجراد ووضعاها في كيس حمله معه صباح ذات يوم إلى غرفة الصف، وبعد دخول المعلمة فتح الكيس، وخرجت منه الجراد قافزة، كأنها لاعبي سرك، تؤدي ألعابا بهلوانية احتفالا بقدوم الربيع. وأخذ بعضها يتغلغل في شعر المعلمة، ويقف بعضها الآخر على ثيابها، ما دفعها لترك غرفة الصف وهي تنفض شعرها وجسدها كما لو أن شيطانا تلبسها. وعندما حضر مدير المدرسة العجوز رافعا أنفه اشمئزازا، محاولا تثبيت نظارته السوداء، والتي تظهر منها عيناه كزرين أسودين، وسأل عن الفاعل، صمت الجميع، لينهض تلميذ وديع نحيف قصير، محاولا التحدث، إلا أن المدير سأله:

- ما اسمك يا ولدي؟

- سامر.

- حسن أنت طالب مؤدب، أخبرني من فعل هذا؟

فيتكلم سامر مدعيا البراءة والثقة بالنفس:

- لم يحصل ما حصل بشكل متعمد، لأن لي قطة، أروضها، وأدربها على الصيد، وجمعت لها في طريقي هذه الجنادب، لتتناولها بعد عودتي في نهاية الدوام، وبلا انتباه مني، انفتح الكيس وخرجت منه.

فيكتفي المدير بتوجيه اللوم له، ويغادر، وقد نجا سامر بفعلته، وتمتنع المعلمة عن العودة إلى الصف ما تبقى من العام الدراسي.

أشرف السائرون على السهول التي تفصل المدينة عن سفح الجبل، وقد تربعت الشمس في كبد السماء، ترسل أشعتها التي تزداد دفئا وحرارة، جعل البخار يتصاعد من سطح الأرض بصمت هللت له العصافير المزقزقة، وأصوات الرعيان التي تترجع في الوديان.

تسلقت المجموعة الجبل، وراحت تنظر إلى المدينة الصغيرة، التي بدت ببيوتها المتناثرة كأنها قطيع من الماشية، شردت رؤوسه في اتجاهات عدة، ولاح من الجهة الشمالية بريق أشعة الشمس المنعكسة، فوق سطح مياه المستنقع، فبان كأنه مرآة مهشمة.

ابتلع حضور ابن زلفة الذهني منظر المقبرة الممتدة في الجهة الشرقية الشمالية للمدينة، وراح يعذبه هذا المكان الذي أطلق عليه: "مكب النفايات الخلقية".

استمر سامر وآصف في تسلقهما للسفح، ولمحت رجوة أحدهما يختبئ خلف شجرة قزمة، وتوقعت أنهما يسعيان لمفاجأة المجموعة، لذا تسللت خلفهما، وهي تعض على شفتها السفلى، وتحث بإشارة منها ابن زلفة وحنين على الصمت، لكن آصف كان أضعف من الاستمرار في هذه اللعبة، لذا وقف وهو يصرخ مفسدا على سامر متعة حصول المفاجأة.

أنستهم المتعة الشعور بالتعب، وواصل الجميع السير، ثم انحرفوا بناء على توجيهات ابن زلفة يسارا، فأطلوا على الوادي الذي تجعله ظلمة توغله عمقا يبعث الحزن في النفوس، وسيطر الصمت إجلالا لهذا السكون الأزلي، وزادتهم قدسية الأشجار المنتشرة بلمعان اخضرارها تحت أشعة الشمس، صدرت له صيحة آه من الجميع. فجمال هذه الأشجار العابر أزمنة كثيرة، يزداد جلالاً، وأسراراً، دون أن تشوهه أية شائبة.

فجأة شعر الصغار بفقدان توازنهم النفسي عندما ترددت صرخة ابن زلفة المدوية، صائحاً كذئب:

- أوووووووووووووووووووووووووووووووو.

ثم جاوب الصدى المرتد إليه بقهقهة عالية، ساخرا فيها من كثير من هزائم البشر أمام الطبيعة، فارتطمت ضحكاته بصخور، ضجرت صمتا مزمنا، واستفاقت فرحة، تتناقل أخبار قدوم بشر إليها، فنفرت الطيور، وحلق نسر عاليا محذراً الجميع للعودة إلى أوكارها، ما أعاد السكون والرعب إلى قلوب ساكني هذه القطعة الملائكية الروعة، وظل الجميع صامتين حتى تلاشت الأصداء، كأنها أسراب نغم وإيقاع، يدوي في همهمة السمع، وفجأة اخترقت قهقهات الصغار فراغ الفضاء، وتوزعت انشطاراته في المكان الذي بدا كأنه قوت عفاريت رضيعة.

انحنى حنين على الأرض، وأمسك بحجر ثم قذف به قاصدا إيصاله إلى أسفل الوادي، ما حفز غريزة التقليد عند الجميع.

هم ابن زلفة، وأمرهم بالسير، واتخذ مكانه من الجهة السفلى، وطلب منهم الارتفاع والسير بموازاته كي يتمكنوا من تفادي الخطر، واقترحت رجوة أن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض حفاظا على سلامتهم جميعا، وسار الجميع بحذر شديد، والوحول والأوراق اليابسة تتكثف فوق أحذيتهم، وأخذوا يسلكون طريقاً تتسلل بين

أشجار البلوط والسنديان والملول التي كانت تظلل ما تحتها، ما جعل الأطفال في حيرة من أمرهم أثناء اختيار مكان للاستراحة للحظات. فقد كانت أكوام الطحالب، وقبعات ثمار البلوط ولحاءاتها المتراكمة كأنها سجادة لمعبد صوفي لم تطأه قدم منذ آلاف السنين.

انتفضت قلوب الجميع هلعا حين نفر طائر من قيلولته بين الأغصان أثناء جلوسهم. نزع آصف حذاءه، وراح يزيل عنه ما التصق من وحل، وحذا الجميع حذوه.

استؤنف المسير ثانية، وحثت الخطى، حتى توقف الجميع أمام جدار صخري عال، تلطخ أسفله بالسواد فأشار نحوه ابن زلفة قائلا:

- أخيرا وصلنا، ذاك هو مدخل المغارة.

وتراخت أطراف شبكة الرهبة والحذر على المخيلات الصغيرة، وتعلقت الأبصار بتلك البقعة السوداء، والتي أخذ لونها يتبدل تدريجيا، ليميل إلى الرمادي كلما دنوا منها.

- انتبه يا سامر، قف.

جاءت صرخة ابن زلفة مرعبة، سمرت الصغير مكانه كتمثال، والتفت الصغار ليروا صديقهم يقف عند طرف حافة حجر انجرف التراب من تحت جانبه ويكاد ينزلق. بدأ ابن زلفة يتحدث إلى سامر بصوت يشعره بالطمأنينة، ويقول:

- لا تنظر إلى الأسفل، لا تتحرك بتاتا، تنفس بهدوء وخفة، سأصل إليك فلا تخف.

وتقطعت أنفاس الصغار خوفا، وأخذت رجوة ترتجف، كلما تزايدت حدة التوتر في ملامح وجه ابن زلفة، فيما أخذ سامر يشد على شفتيه مانعا نفسه من البكاء، ويتصبب عرقا.

تراجع آصف للخلف قليلا، وراح يتطاول بعنقه ويمط جسده، ويده اليسرى إلى الخلف محاولا النظر تحت الحجر، وأغمض عينيه مرتعبا حين انهارت بعض الحجارة الصغيرة من تحت الصخرة التي يقف فوقها سامر.

وصل ابن زلفة وبدأ يحاول مد يده لسامر، وقد تمسك بغصن شجرة بيده الأخرى، وركز بصره على يد سامر التي تمتد نحوه بحذر، وخشية. ثم تعالى صراخه حين شعر، ولاحظ أنه يبتعد عن السماء، وأن باب المغارة يرتفع أمام ناظريه ببطء ملحوظ، وكرد فعل على خوفه من السقوط، نشر ذراعيه إلى أقصى حد مكنه منه الموقف، وأطلق صرخة مدوية في فراغ محيطه، إذ انهار الحجر كليا، وتراكمت ملايين الصور والأحداث ما جعل شبكة عينيه تعجز عن التقاط أية مشاهدة وامتزج صراخ الصغار بصراخ زميلهم، فاستفز ذلك ابن زلفة، وولد فيه غريزة أخطبوطية، ما دفعه إلى مد يده رغم ضبابية التركيز، والتردد، وعجز العقل عن اتخاذ أي أمر، وكانت لحظة تفان توقفت خلالها حسابات النتائج والاحتمالات، فإذ به يشعر بثقل يسحبه، ويكاد يسقطه، إلى أن تلاشى صوت انهيار الصخرة، وأيقظه السكون ليرى الصغير معلقا في يده بين السماء والأرض، وعادت الأمور تأخذ ترتيبها نحو تقلص التوتر حين نطق :

- لا تخف. أنت الآن آمن، تمسك جيدا وبقوة بيدي.

بدا أنه يتنفس بصعوبة، وهو يرفع سامر فكأنه يرفعه بأنفاسه، واختلطت زفراته بأنين الصغير الذي لم يعد باديا لعيون رفاقه، وباتوا يحسون بوجوده من خلال سماعهم لهاثه المتقطع، وحاول آصف جاهدا رؤية سامرا فلم يتمكن، مما حمله على التمدد منبطحا، حتى نجح بلمح يده ترتفع مع يد ابن زلفة التي تنفخت عروقها، فأخذ يتحدث إلى صديقه:

- لا تخف، أنت تنجو، ونحن بانتظارك.

لقّت صوته غصة بكائية حولت كلماته إلى دموع في عيون الجميع، عندما تمكن ابن زلفة من رفع نصف جسد سامر، الذي راح يساعد نفسه وابن زلفة بالاستناد على رجليه، وما هي إلا جرّة قوية، حتى شعر الصغير بالأمل، فيما كان الآخر يتراجع به متمسكا بنتؤات الصخور، وجذور الأغصان البارزة من الأرض، ويتأكد من إحكام تثبيت قدمه قبل أن ينقل الأخرى، إلى أن صارا بمنأ عن منطقة الخطر، عندها رمى بنفسه فوق صخرة، ليطرد تعبه وتوتره بزفرة عنيفة حادة، ثم رمق سامر بنظرة فلاحظ أنه قد انهار نفسيا وانتابته نوبة بكاء لا شعوري.

- لا بأس بها كتجربة، المهم أن تبقي دائما بصرك أمامك.

ثم نهض ونفض جسده من الأشياء التي علقت به أثناء عبوره بين الأشجار قائلا:

- حسن يا أحبائي، لنصعد الآن إلى مغارة التويتان. فأطلق الجميع صيحة فرح، وانطلقوا.

لم تكن الظلمة التي تستفز كافة أحاسيس الصغار كتلك العتمات التي تحتل بيوتهم حين ينقطع التيار الكهربائي فجأة، بل تختلف كل الاختلاف لما لها في المخيلات من توقعات، تحفز على إرهاف السمع، ومضاعفة التركيز، واستنفار الأحاسيس، فتارة تتراكم أمام صعوبة الرؤية صور لأشباح سمعوا عنها في قصص الليالي من أفواه المسنين حول الموقد، وطورا تتشنج مجسات استقبال التنبه العصبي تحت تأثير نفور الوحوش وزحف الأفاعي في عتمة المغارة.

وقف ابن زلفة أمام بابها، واعتدل في وقفته، وقال بلهجة القائد:

- ها هو مدخل الأسرار، فمن سيكسب شرف اكتشافها أولا؟

وارتسمت على ملامح الوجوه الدهشة، وجالت العيون متسائلة فيما بينها، باحثة عن متطوع، حتى رفعت رجوة يدها، وصفق الجميع لشجاعتها، لكنها قالت:

- أما أنا، فاعذروني. وتراجعت لتقف خلف الجميع.

فتلفت حنين حوله، وقد تبسم، وهز رأسه لا شعوريا رافعا بهذه الحركة خصلة الشعر الذهبية عن عينه، ثم مرر أصابع يمناه في طياتها، وصمت برهة مما لفت انتباه الجميع، ثم قطع الصمت بتصريحه أنه سيكون أولهم. وهم باتجاه باب المغارة، غير أن ابن زلفة شده من ذراعه وطلب منه المراقبة. ثم أمسك بحجر، ورمى به إلى داخل المغارة، وانتظر قليلا، ثم قذف بآخر، وظل يراقب وهو يسألهم عن سبب ما فعل؟ وشرح للصغار أنه ألقى بالحجارة للتأكد من خلو المغارة من حيوانات، أو طيور، وغيرها.

جمع حنين كل شجاعته، وخطا داخل المغارة دون أن ينحني كما يفعل ابن زلفة، ولحق الصغار بالأخير، والعيون تتقلص، وتتمدد، لتتمكن من الإبصار، ثم أشعل ابن زلفة شمعة، وجاء صوت هذه الحركة أشد ضخامة لحدة صمت الجميع وخوفهم، ومزق نور الشمعة الظلمة، وأخذ يطاردها أمامه عمقا داخل المغارة، فتفر منه وتختبئ بين ثنايا الصخور، وفي الشقوق، ثم تعود لتظهر من خلفهم، لتراقب ما يجري، وتردد صوت ابن زلفة قائلا:

- انتبهوا نحن على مقربة من البئر.

وهمس آصف مندهشا: بئر!

كانت رجوة تطالب بإبطاء السير، لأن قامة الخوف تتعالى داخلها. اصطدم الضوء والنظر بحاجز صخري عن يسار فسحة ليست كبيرة، وبدأ ابن زلفة يتلمس جدارها، ويطلب منهم التقدم بحذر، ليروا البئر. أخذ الصغار يمشون كما لو أنهم على سطح جليدي لمياه نهر متجمدة، ثم استندوا إلى الحاجز، وقرب ابن زلفة الضوء، فبانت فتحة البئر مستديرة، وتلألأ بريق المياه الصافية فيها، والتقطت صفحة المياه الساكنة صورة تذكارية لوجوه الزائرين المطلة من خلف شمعة. وأدخل ابن زلفة رأسه في فتحة البئر ونادى جده، فعاد إليه الصدى مخنوقا كقعر نفسه السجين في عمق ذاته. وطفق الصغار يبحثون عن حصى، ليلقوا بها إلى البئر، منصتين محاولين بذلك تقدير عمق البئر من خلال المدة التي يستغرقها الحجر ليرتطم بصفحة المياه، وأيقنوا أن عمقها كفيل بألا يمكنهم من إخراج من يسقط فيه.

وجاء سؤال رجوة المربك كعادتها، بصوتها الرقيق الناعم كأنه صوت جنية تسكن قعر البئر، وقالت:

- كيف يصل الماء إلى البئر؟

ورد ابن زلفة ذلك لوجود مسامات وشقوق وفتحات بين الصخور تسمح بتسربه، أو أنها صممت خصيصا لتمكن مياه أمطار الشتاء من بلوغ هذا البئر. ثم بادر دعوتهم للحاق به وهو يشرح لهم محتويات المغارة: فذا مكان مخصص للنوم، بسبب انخفاض سقفه، وتلك أجران المؤن، والأواني وقد تكون أحيانا لحفظ الحلي، والصغار من حوله يتأملون المكان، محدقين في السقف، والجدران التي كستها العناكب ببيوتها الوهنة، والهشة هشاشة ثقتهم وطمأنينتهم في هذا المكان. وتعالى صراخ رجوة عندما لمحت بريقا في أحد الشقوق، وتنبه الجميع إلى حيث أشارت، فرأوا ما رأت. وارتعشت أبدانهم للمنظر، وراحت مخيلاتهم تفتش في شريط أحاديث الجدات القديمة عن تفسير لهذا المنظر. إلا أن ابن زلفة هدأ

من روعهم، وقد فسر الأمر على أنه مجرد حيوانات زاحفة تسكن هذه الأماكن الرطبة الدافئة شتاء. لكن هذه التفسيرات لم تكف لإزالة القلق من نفوسهم، بل استبد بهم شعور الرغبة بمغادرة المغارة فوراً إلى حيث نور الشمس.

بدت طريق العودة أطول، بعد أن شعر الصغار بالتوتر والقلق، فقد كانوا يسيرون متلفتين حولهم، متوهمين ما يزيد من رعبهم، والرغبات في بلوغ الباب تتنافس، وبات الكل يريد أن ينال شرف المغادرة أولا. و بدأوا يشعرون تدريجيا بتبدل حرارة الهواء ورائحته كلما اقتربوا من الباب حتى بلغوا مرادهم، وراحت الأنوف تعب من نقي الهواء، وتستمتع بروائح أمتع النكهات التي تفوح من مئات النباتات البرية.

أما سامر الذي كاد أن يكون منسيا لصمته منذ أن أنقذه ابن زلفة، فقد صرح بصوت مرتفع سائلا:

- ألن نأكل؟

فانهالت عليه الموافقات، وراحت تترادف اختيارات مكان للجلوس، واستقر الأمر لرأي رجوة التي فضلت الجلوس في مكان بعيد عن مدخل المغارة، ومشوا خلف بعضهم منتظمين في صف لوعورة المسالك، يحثون الخطى مفتشين عن مكان لتناول الطعام، إلى أن لفت انتباههم اتساع يشكل فسحة بين أشجار اصطفت من حوله بشكل دائري سامحة لأشعة الشمس بدخولها، لذا قرروا الجلوس فيها، لجفاف تربتها، وطلب منهم ابن زلفة أن يجمعوا أوراق أشجار ليجلسوا عليها، كبساط تجعل منه بساطته وثيرا كأحضان الأمهات.

جلس الصغار يلتهمون طعامهم، والجوع ينذرهم بقلة الطعام، فيما كان ابن زلفة يتناول اللقمة، ويضعها في فمه، ويظل يمضغ فيها طويلا وهو يراقب تصرفاتهم، ويحللها كما لو كانوا فئران

تجارب، ثم اطلق لمخيلته العنان، حتى انفصل عن المكان والزمان، ودون تمهيد أخذ يتحدث:

- علينا أن نتعلم كيفية إتقان التيقظ والاسترخاء معا أمام أحلك الظروف، وأن نطرد التوتر الذي يبلغ ذروة التأزم عند المفاجأة، فبإلغاء عامل الحذر عند المفاجآت يمكننا المغامرة، وتحقيق الأحلام والنجاح.

كان الإصغاء مرهفا لصوته الذي يخرج أثناء حديثه غير المتعمد دافئاً، وقوراً، فيفعل بالأذن فعل النعاس بالأبدان.

ولنعلم جميعاً أن لكل حركة تعليل، فإن تمكن المرء من تعويد مشاعره، وذهنه، ونفسه على فكرة أن ما سيحدث لا ينطوي على غرابة، مهما توقعنا المتعة فيه أو اللوعة، عندها نمتلك زمام ما نرجوه.

لم يكن ابن زلفة يتحدث لإيصال فكرة، أو على أمل أن يفهم الصغار ما يقول، بل كان ينطق عن فيض، لذا توغل في طرح ما يتراء لمخيلته، وما يلمحه ذهنه.

التاريخ لا يأتي بجديد، وما هو إلا اجترار لأحداث دونت منذ اللا أدري، فلم تدوين ما حدث وسيحدث مجددا؟ إذا هو مجرد جهد مجاني، وبالتالي لا يمكن تجنب ما سيحدث، و واهم من يعتقد أن عدل أو خفف أو زاد، فالحدث يحدث بما فيه وكما هو، وبالطريقة التي سيحدث فيها، كما حدث مع سامر.

وتنشطت الأذهان، وعادت من بلادتها التي حلت بها مع متابعة لا واعية لما يقول، وأفاقت لتحس وتسمع من جديد:

- لم تكن إمكانية سقوطه إلى أعمق مما حصل، وكل ما حدث من لحظة ارتجافه، حتى آخر زفرة منكم يشبه رسما بيانيا لسير الأمور،

لذا لا تتخيلوا أكثر مما حصل، ولا تقولوا لو بتاتا. فقيام دولة أو سقوط حضارة، ونهاية مجتمع أو تحول من حال إلى حال، جميعها لا تحمل مفاجأة بتاتا، والاستغراب مرده ظن الإنسان، وقلة استرخائه، وتراخي التيقظ عنده.

وتوقف عن الكلام عند مقاطعة حنين له:

- لم لا تدرسنا في المدرسة بدلا من مدرسينا؟ فأنت تجعلنا نفهم أكثر منهم.

ضحك الآخر منتعشا وتابع: لا، لان التدريس مهنة عظيمة، وأنا لا أملك مفاتيحها.

وصمت لأنه أحس بمغص فكري إذ اضطر الكذب، والحقيقة أنه يكره المدرسة والتدريس كرها مبالغا فيه. وعاد ليقول:

- إنما كيف يبلغ المرء أحلامه بإلغاء عنصر المفاجأة؟ هذا ما سأحدثكم عنه أثناء سيرنا. هيا.

نهض الجميع، وراحت الأكف تصفع المؤخرات لتزيل ما التصق بها أثناء الجلوس، ولف ناصر قطعة الجلد التي تلازمه، وحشرها تحت إبطه، ثم أمسك كتبه، وانطلق.

شعر أثناء الطريق أن رجوة تعاني من حملها للحقيبة، فتناولها منها وهو يبتسم لها، ومشى ينحني، ويتلوى بين الأشجار، متحدثا بحيوية ونشاط:

- إذا تمكن المرء من طرد ردود أفعاله عند المفاجآت، وبلغ مرحلة إلغاء مفهومها بالكامل من لا وعيه، عندها يملك السيطرة الكاملة على نفسه، وتفاعلاتها، ويضبطها باتجاه بلوغ الهدف.

فارقت أذهان رفاقه الصغار - أثناء طريق العودة - تلك الانبهارات التي انتابتهم حين رأوه لأول مرة، لذا ساروا مراقبين تفاصيل أوجدتها الطبيعة في تكوين محتوياتها، من صخور وأشجار، وما يتوغل بها من تجاويف تدفعهم لكثير من التساؤلات. وبدأ سامر يبحث عن جحور، ويطل إلى داخلها، أو يغرز في عمقها عودا، متخيلا أن الأرض تشبه بطيخة مليئة بالظلمات، وهذه الثقوب تصل جوفها بعضه ببعض. وانشغل آصف برشق الزواحف بالحجارة، ومطاردتها في جحورها. وامتلأ كيس رجوة بتيجان حبات البلوط وقبعاتها، حتى أنها ألبست رؤوس أصابعها ما أمكنها من قبعات. وكان حنين يخطط في سريرته لزيارة أماكن أبعد مما بلغه اليوم، فلطالما أسره اكتشاف المجهول. كان ينظر في عمق الوادي من حين لآخر، متمنيا بلوغه، واكتشاف أسراره التي تدفع بمن ينظر إليه للشعور بالرهبة، والخوف وتجبره على الإشاحة بوجهه.

وظل ابن زلفة يتأمل الأطفال مفكرا، سائلا نفسه:

- ترى أي شعر يمكنه إحياء الشعور بلهو الطفولة هذا، وأي لون يستطيع أن يكنس عبثية كهذه البراءة؟

ثم استفاق من خلوته لاعنا جنونه، وبدأ يغني، وقد دفعه لذلك جوع رهيب لرغبة التوازن، التي تجعله ببحثه الدائم عنها في سفر مستمر.

أطل الصغار على مدينتهم، وسرت فرحة العودة إلى البيوت في عروقهم، وأسرهم مرأى وطنهم الذي بدا لهم أنه يتسع فيه دون معرفة أسباب لذلك. إلا أن شعورهم هذا لم يرق لابن زلفة فهز رأسه ممتعضا، فقد تذكر أياما تفسخت كما تتفسخ السنابل، وبقي منها في رأسه رائحة قش البيادر أيام الحصاد. وتمزقت لحظة التركيز، وتناثرت إلى شظايا انتشرت في كل اتجاهات التذكر،

وبقي خياله يتقهقر حتى وصل إلى الأمس القاسي الذي ظلت فيه طفولته، والتي رغم كل ما تضمنته من حرمان لا زالت تلوح له بوفاء ودعة أعذب بكثير من ساعات طويلة يقضيها بترطيب إبهامه بلعابه، ليقلب صفحات انتهى من قراءتها، وبات يشعر بجفاف في ذهنه كلما توقف عن القراءة، فكلما نهل منها ازدادت حلكة الظلمات في دروبه.

ودارت في رأسه مواويل الساهرين، حين كانت تنصت إليها أنجم ليالي الصيف، ومرت خطفاً عيون المتعبين، ورموشها المتراخية تحت غبار التبن خلال غفوة فوق أكداس الحبوب المتراكمة على البيادر، وجعجعت في رأسه آلة فصل الحبوب عن القش، والتي كانت تكسب الساعد التي تمسك بمقودها جماليات يعجز عن تجسيمها أمهر النحاتين، وتذكر مقولة أبيه "العقبات بالأحلام، والأحلام بالعقبات". وانجلت كل تلك الذكريات أمام هيبة الصمت المطل من خلف تلك النظرة الهادئة، في وجه والدته المستقر، والتي كانت مكسر عصا، كلما عاد والده متعبا، وهو اليوم يكبر روعتها وقد فهم صمتها أمام فورانه غضبا، وهي التي لم تكن تشعر بالذل حينها، بل بمسؤولية صادقة لتحمل مشاق الحياة بغية تكوين أسرة. ونفرت دمعة من عينه عندما بلغ الأمر به أن كل هذه المواقف صارت دخانا، يتحلل مرارة، كلما ألحت عليه مسامات الشوق، وعاد ليقرر المضي قدما، فالعودة تهشم وضوح الرؤيا، والبداية من جديد تنزل بالعزم أشد الهزائم، وهو على ثقة أنه لن يجد ضالته، لكنه في الوقت نفسه سيجني الكثير من المآسي جرّاء التقهقر والفرار، فالفشل رغم ما يعقبه من نجاحات يظل ينزف مرارة تعفنه كلما خلت الذكريات بصاحبها. وومضت في رأسه قصة خُفّي حُنين، فتعالت قهقهة ضحكه، ما فاجأ الصغار الذين التفتوا إلى بعضهم باحثين عن سبب تمدد صمته إلى حد القهقهة، ليروا في مقلتيه دمعة ما ألفوها من قبل، فشعر بارتياب الصغار، لذا تدارك فضولهم بسؤال:

- أتعرف يا حنين حكاية حُنين؟

وأبعد الصغير خصلة الشعر عن جبينه، ثم نفى بحركة من كتفيه ذلك، فرفع ابن زلفة رأسه محدثا شهيقا، ثم طرده زفيرا، وهو يجيل بصره في المسافات الممتدة أمام عينيه، وحدث نفسه:

- ستعرفونها جميعا عندما تكبرون.

أخذ الطريق يتسع، وراحت حدة انحداره تخف، كلما اقتربوا من مشارف المدينة التي بدأت تكتظ وتتكور حول نفسها تحت جناح الظل الذي أرخته الغيوم القادمة حزينة من الغرب، كأنها تترقب سؤالا عن سبب حزنها، لتذرف إجاباتها مطرا. وفي رأس ناصر تتراكم التداعيات: "الوطن مرض مزمن، يزداد الشعور به كلما ازدادت آلامه".

* * *

أسرار زيارة التوتيان تسكن بين العيون وأجفانها، تحت أغطية نوم الصغار. فهناك فقط يمكننا التفكير، والظن، والتخيل، والنجوى، دون أن يلحظ أحد ذلك.

اعتاد حنين أن يندس في فراش جده، ليختلس غفوته من بين ضربات قلبه التي أجابه الجد حين سأله لأول مرة عنها:

- هي صوت أقدام الحارس الذي يحرسك. وهناك أخبئ لك حبا لن يمل حارسه عن ائتمانه عليه، وإذا ما عدت تسمعها يوما وتبين لك أنها سكتت، فاعلم أن نوم جدك سيطول.

لم يفهم حنين ما قصده الجد، لكنه أحس بحزن يغلف نبرة صوته مما دفعه لاستعادة ما حدث لسامر و تلك اللحظات المرعبة.

* * *

كان الصباح الخريفي الذي أيقظ الناس مذعورين كأنه يوم عمل مضن في دائرة من دوائر تنقيح سجلات المواطنين، فحركة الرياح ذكرت الناس بإيقاع الحركة في غرف التحقيق، حيث تدفن في صدور المقهورين كل إشراقات الجمال الذي حلموا به، وتتحول إلى ندم وصراخ داخلي، والغبار الذي انتشر في السماء يذكر بسحابات التأفف في غرف الاستجواب، وقرقعة الأسطح المعدنية، وعويل أسلاك الكهرباء، وولولة حزم الرياح المتسللة من الثقوب وفي التجاويف، وتصادم الأبواب والنوافذ المفتوحة، كلها تبعث في الرأس تذكر ألوان الأنين والصراخ الصادرة عن غرف التعذيب في الطوابق السفلى، تحت أقدام أولئك الذين يسيرون فوقها بخطى تظهر الخيلاء في سيرهم على جثث المظلومين، الحالمين بالحرية.

أبو سهيل يكره وتحديدا مثل هذه الأصباح، ويتجنب الخروج من المنزل. وللضرورة الملحة خرج، وقد بدا عليه الامتعاض والتأفف، على عكس ولده راجي الذي قلما تظهر عليه تناقضات الرغبات الداخلية.

وقفت سمية في الباب تراقب حنين الذي ودعته نحو المدرسة، وراح جسده الصغير يضمحل ويختفي كلما خطا مبتعدا، والقلق ينازعها، ويؤنبها حبها له على عدم ابقائه في المنزل هذا اليوم، لكن محن الحياة تفرض عليها التصبر لتكسبه قدرة التحمل والمواجهة. كما تفعل الطيور مع صغارها حين تقفز أمامها من العش طائرة، فيما تسقط الأخيرة أرضا لضعفها.

كانت الجدة نعمت نشيطة هذا الصباح في ثرثرتها وعملها، فقد استيقظت سمية على صوتها وهي تلوك لعنات وسباب حظها، فأحضرت كيسا مليئا بقشور السنديان والبلوط، ووضعت أمامها وعاء ملأته بالماء، ثم أحضرت مدقة خشبية، وبدأت الجدة تنقع القشور بالماء، لتعود إليها بعد أن تكون قد لانت قسوتها، فتنهال عليها ضربا بالمدقة لتسحقها، فتصبح دقيقا يشبه دقيق التبغ، لتدبغ

به جلود الخرفان، فتزول عنها رائحتها الكريهة، ولتستعمل فراشا وثيرا يطرد برد الشتاء.

استيقظ أبو سهيل على صوت الدق، عاقد الحاجبين، ليس انزعاجا من الضوضاء التي في المنزل، إنما بسبب التلاشي الجزئي والمؤلم لملامح وجه ولده حنين من زوايا المنزل، ووضوحها القاسي قي نزيف الوجدان الأبوي، لذا رطب أصابع يمناه، وفتح علبة السجائر المعدنية، ولف واحدة، وأشعلها مرتشفا لعابه بعد أول مصة منها، وعلق بصره المطل من خلف دموعه على صورته التي تتدلى من الجدار بصمت، فتزيد لوعته تلك النظرة التي تنبعث من الصورة كلما رنا إليها، فكأنها تلومه على التقصير، فتتخبط روحه ممزقة بين لو ولكن، وكيف وربما، ليتمنى لو أن له قبرا معلوما مكانه، يمضي بقية عمره في لمس حجارته وتقبيلها، ومسح الدمع فوق وجنتيه بأسنتها. وكعادته في صباحيات تثقلها الرتابة، تربع فوق فراشه، يعب منشطه اليومي، ويخرج بقاياه من أنفه، فيتهادى الدخان في تصاعده، مخلفا خللا ضئيلة، صبغت شاربيه اللذين لم يمسهما مقص منذ وفاة زوجته بالصفرة، وظل يتأمل اختصار ولده فوق الجدار، وتلاشت عن مسمعيه كل المؤثرات المحيطة به، فانفصل عمّا حوله، ليتوغل في غابات التذكر منطلقا من تلك الصرخة الأولى، التي لم تفارق فضاءه الداخلي لحظة خفق قلبه لولادته، وتذكر القبلة الأولى فوق جبينه، وهمسه أول كلمة في أذنه الصغيرة، وإطباق يده الضخمة على إصبعه الصغير، وأخذت لوعته تكبر كلما كبرت الذكريات وتعددت، وفجأة توقف عند توقف السرعة العجيبة للحقيقة التي باتت لا شيء. فقد أنفق الدهر كل أوقاته الجميلة، ولم يبق له إلا دموعا تنساب فوق شحوب وجهه، وحزنا تختزنه تجاعيده، وجسدا تأكل جوفه لوعة الحرمان والحسرات، وشعر بعجز مخيلته وهزيمتها، وبات عليه النظر إلى المرآة، فلا جديد بعد اليوم.

لثرثرة الجدة نعمت فوائدها أحيانا، فقد تسللت إلى ذهنه وبدأت تستعيده إلى محيطه تدريجيا، فنهض، وارتدى ملابسه، ولحق براجي، تنخر رأسه سوسة الاستسلام لجفاف حل بموسم أمانيه لدرجة أنه ما أعار عثمان أي انتباه حين مر بجانبه، وهو ينزوي عند مدخل الدار، يسيل اللعاب من شفتيه، وينساب فوق لحيته الفوضوية.

نهض الآخر مبتسما، وقد تدلى لسانه أمام أنفه، كعادة لازمته منذ رأته العيون في المدينة، ورفرف برمشيه معبرا عن فرحه. وتعالى سعال أبي سهيل، فأتبعته الجدة تأنيبها المعهود: "هذا بسبب السم الذي تعب منه كل يوم" وتأكيدا لرأيها بصق أبو سهيل ولعن الدخان وساعته، ثم نف أنفه مزيلا مخاطه بإصبعيه، ومسحهما بعامود البوابة الخارجية، مشى قليلا ثم التفت خلفه ليتبين أنه تجاهل عثمان، فعاد وتحدث إليه:

ـ ها، أراك نشيطا هذا الصباح. أترافقني إلى المفحمة؟

وهز الآخر رأسه موافقا، وعرج خلفه يتأتئ محاولا الغناء "عينك... عينك...".

أطلت سمية من النافذة عندما سمعت صوته، وقد داخلتها السخرية، والإشفاق لحالة الحب التي يحملها لها هذا المسكين.

وظل عثمان يسير خلف أبي سهيل مغنيا، يسأله أبو سهيل ممازحا:

ـ ماذا تغني يا عثمان؟

ويستمر الأخير بسيره وغنائه، جارا قدمه التي تعرج خلفه، ويسحبها فوق الشوك، والحصى، وغيرهما دون أن تظهر على محياه أية ملامح للألم، فلقد تصلب جلدها وباتت كخف الجمل.

كانت الرياح العنيفة تملأ صدر عثمان بالفرح، في الوقت الذي يزداد فيه الحزن والهم فوق صدر أبي سهيل كلما اشتد عويلها، فبدت له الأشجار كأنها تعيش معركة عنيفة ضد هذه الرياح، كتلك الملصقات التي لم تتمكن أجهزة الأمن من معرفة من أوصلها للناس، لكنها فجرت غضبها وحقدها بانتزاعها عن الجدران، وتمزيقها، وأشبعت من خرج من داره صدفة أو عمدا، ضربا وشتما، ولمح خلالها ولده حنين، يعبر كالسهم زقاقا يؤدي إلى خارج المدينة، وبات ليلته تلك على إبر القلق والهواجس خوفا عليه، لكنه عاد ليلعن العمر الذي أفناه في جمع أكوام الحطب، ودفنها.

ثم التفت إلى عثمان الذي كان يمشي خلفه، وسأله أثناء عبورهما الطريق المندسة بين الأشجار وصولا إلى موقع العمل:

- أتعرف حنين يا عثمان؟

وهز الآخر رأسه بالإيجاب، وراح يتذكر طيب المعاملة التي كان يمنحه ولده عثمان كلما قابله.

كان راجي يبدي للمسكين نظرات الوداعة، والمحبة، ما جعل عثمان يشعر بالإحراج والخوف حين رآه يطل من بين أكوام الحطب المجهزة للاشتعال، فهو زوج سمية التي يشعر نحوها عثمان بما لا يعلمه إلا الله وهو فقط.

رحب راجي بعثمان بحرارة، وامتنانا من الآخر ركض نحوه، وتناول منه الحطب الذي كان يطوقه بذراعيه، ووضعه في المكان الذي أشار إليه راجي، فأعلن راجي إتمامه لعمله، وأخبرهما بأنه سيعد إبريق شاي، فقد حان موعد الغداء، وخطا مصغيا لكلام أبيه:

- أعوذ بالله من شدة الرياح خارج الغابة، فكأن الدنيا تقف على كف مارد يشخر أثناء نومه.

أعد راجي موقدا صغيرا، وصفّ العيدان الدقيقة داخله، وأشعل النار، وانحنى ينفخ فيها لتشتعل، وهو يقول:

كانت الرياح خفيفة في الصباح الباكر هنا، ثم تحول الطقس إلى ما هو عليه الآن، صمت وسكينة.

ثم وضع الإبريق الذي صبغ السواد جنباته، الذي كان قد فقد غطاء فوهته منذ زمن، واستبدلت لاقطته بسلك معدني، وجلس ينظر لأبيه وهو يقوم بجولته المعتادة بين أكوام الحطب، يتبعه عثمان منفذا ما يؤمر به من أبي سهيل.

الحاجة لأشعة الشمس في الصباحيات الباردة كحاجة المؤلف للفكرة، لذا تجمع الثلاثة حول الجمر المتبقي في الموقد الصغير.

تناول أبو سهيل لقمته الأولى وراح يمضغها ببطء متناه، مراقبا المكان، وطفرت دمعة من عين راجي حين عض طرف لسانه وهو يأكل، فأشاح بوجهه كي لا يثير شجن والده، إن لمح دموعه.

ولقد حرمت الطبيعة عثمان من النطق، والوعي الذهني، إلا أنها لم تحرمه شفافية الإحساس، والتعاطف، لذا ظل يتناول الطعام خجلا، محاذرا بشدة.

بلع أبو سهيل لقمته، ونقر بطرف سبابته اليمنى على حافة إبريق الشاي، ثم دس يده في جيب سترته وتناول علبة سجائره وأخذ يلف سيجارة ويتحدث:

- راجي أرجو أن تفهم ما سأحدثك به.

واستغرب لهجة الرجاء في صوت أبيه، واستولت عليه ارتيابات مقلقة، فقد تهدج صوت والده، وتغلف بنبرة من الحزن، وتنفس الأب بعمق عب خلاله كل الدخان الذي امتصه من السيجارة، ثم

طرده ليختصر به على المسامع جفاف السنوات ومرارتها، وهربت عيناه من عيني ولده، وشردت في المجهول، وقال:

- لم يكن أخوك أوفر حظا منك في حبي لكما، فأنتما فلذتا كبدي، لكن الظروف التي أحاطت حياته، والتي أقصته عني، جعلتني أتنفس مشاعري نحوه بالحديث عنه، وتذكري المستمر له ولخصاله، وقدر المحرومين من الحب المباشر شوق يجعلنا نترقب لقاءهم حتى لو كان ذلك في الحياة الثانية. أما أنت فبقربك مني كنت تشعرني بطمأنينة حلوة. واليوم لم يعد بميسوري التفكير إلا به، فلا تتخذ موقفا مني على إطالتي النظر إلى صورته في الجدار. ولا تشعرني بالغيرة من الصغير حنين، الذي يعوضني عنه، وذلك لأمر بسيط فأنت بجانبي، وأراك دائما، وأحس بأنفاسك.

وعب من سيجارته ما يكفي لنشر السرطان في أجساد سكان الأرض كافة، ثم نظر إلى ولده الذي انقطع عن الطعام وراح يحدق في الأرض، وينكش التراب بعود ثم رفع رأسه ليتدارك سيلان مخاطه، فراع الأب لحظتها انحدار الدمع من مقلتيه، ومسح الابن بردنه الأيمن أنفه، ثم أجهش باكيا، وهو يقول:

- أتظنني أفكر في نفسي أكثر من تفكيري بأخي والحال التي آلت إليه أموره؟ الغباء صفة لا يلغي وجودها الشعور بحب الآخرين.

ونهض منزعجا، وآخر ما توقعه أن تدفع تصرفاته بأبيه إلى اتهامه بالغيرة من أخيه، وربما توهم أنه تمنى موته. وحمل الرفش وراح يرفع التراب فوق جنبات الأكوام القريبة من مجلسهم.

أطرق الأب، وقد شعر بقسوته على ولده الذي طالما نعت بالبلادة، والغباء، حتى أن حنين الصغير كان يرى هذه الصفات في أبيه، ثم انتقل لرفع أكياس أوراق الأشجار، التي تنتشر فوق الأكوام، وكلف عثمان بإحضار حجارة، ليحيط بها تكورها، وعاد ليحضر أغصانا غضة، ويغطي بها الأوراق، اليابسة، لمنع تسرب الهواء

إلى جوف الكومة، ثم غطى الأغصان بالتراب استعدادا لخنق الحطب المدفون فيها.

انسحب أبو سهيل إلى حيث اتكئ على جذع شجرة، وتناول علبة سجائره، ليمارس عادته المزمنة، وطلب من عثمان إحضار وعاء الماء، فجلبه الآخر وهو يتمتم ولسانه خارج فمه:

- أنا ليد.

ففهم أبو سهيل قصده، وقدم له السيجارة التي كانت في يده، وهو يقول:

- تفضل يا سيدي. ثم حمّله واحدة لراجي، وأشعل هو الثالثة.

توقف عثمان ينتظر نزول راجي عن إحدى الكومات، التي كان يصمم فوهتها، ويعلن أنها باتت جاهزة لإشعالها. لكن الأب طلب منه تجهيز كل الكومات، واستغرب راجي طلب أبيه، فهناك مشكلة في جمع الفحم بعد أن ينضج. لكن الأب طمأنه بأنه سيحضر عمالا للمساعدة.

في طريق العودة إلى البيت تذكر أبو سهيل والبرد يلسع وجهه، أن الجدة نعمت قد لا تعيش إلى مطلع الربيع القادم، وأحس أنه يحسدها، فطالما تمنى الموت ليرى ولده. وكانت الطبيعة تكتسي بالشحوب مع بدايات توغل الظلام في محيط المدينة، وخيم الصمت إلا من أصوات تصدر من أواني الطعام الني في الكيس الذي يحمله راجي. كانت سمية تساعد الجدة في حفظ ما تبقى من قشور مسحوقة في كيس شمعي، ثم ربطت الكيس، وعلقته في الزاوية عن يمين الباب، وراحت الشمطاء ترفع نتف المسحوق عن الأرض، وتحك بحجرٍ الأماكن التي اصطبغت من يدها لتزيل عنها بقايا اللون.

كانت دوافع عثمان كافية للدخول، فهو يحمل بعض الحطب، وقد عاد توا من العمل معهم، لذا تجاوز البوابة الخارجية، وهو يختلس النظر مرة تلو الأخر إلى سمية، التي كانت تتناول الأغراض التي بحوزة زوجها، وجلس أبو سهيل فوق حافة الباب عند العتبة، يفك رباط حذائه، يفصله عن محيطه تعلقه بولده المفقود.

جلس عثمان كلغم مؤقت، صمامه الرغبة بسمية، وتنفسه يتعالى، موجها بذلك رسالة إليها، إلا أنها رغم نزعة لديها تدفعها للهو معه انطلاقا من مفهوم أنه أهبل، ظلت تتصرف تجاهه بحذر.

تناول راجي إبريق الماء من يدها، ليسكب لوالده كي يغسل يديه ورجليه، فيغادر الماء الإبريق زلالا، ليخرج من كفي أبي سهيل بنيا يحمل معه أتربة، لازمت كفيه طوال النهار، ثم جلس يغسل مستعينا بعثمان الذي فرح لهذا الطلب، فسيمكنه من الوقوف مقابل الباب، وبذلك ينظر براحة.

تعالى صوت راجي طالبا من عثمان سكب الماء، والآخر منشغل بمراقبة سمية، التي جلست خلف طشت الماء كاشفة عن ساقيها، ما جعل لعابه يسيل، غير آبه لنداءات راجي الذي بدأت عيناه تحرقانه من الصابون الذي تغلغل فيها، فلكمه بكوعه على ساقه، فاستفاق المسكين من حلم تمنى أن يطول إلى ما لا نهاية.

دخل راجي البيت، وجلس عثمان عند عتبة الباب، وبريق الشهوة يلمع في عينيه، ما جعل سمية تشعر بقشعريرة الأنثى، وانتابها شعور حمى الكيد، فتساوى عندها عثمان وراجي، لا بل كاد الأول يفوقه منزلة عندها، فدفعها فضولها للكشف أكثر عن فخذيها، وعثمان يتلوى كالأفعى بحرقته، وظلت على هذه الحال، إلى أن قدم أبو سهيل ليتناول علبة أعواد الكبريت، فأجفلت من نفسها وسترت ما أبدت لعثمان، عاد أبو سهيل إلى الغرفة دون أن يلحظ بقاء عثمان عند الباب، وعادت سمية إلى ما كانت عليه، باتت نظرات عثمان

بالنسبة إليها الحد الفاصل بين عثمان الأبله، وعثمان الذكر، وتعمدت المبالغة في ما عادت إليه، ففاجأها احتقان الدمع في عيني عثمان، الي بدتا كجمرتين في أوج لمعانهما، وكان لثوبها الأحمر المنساب فوق اكتناز أنوثتها حز الموسى في نفس عثمان الأمارة بالسوء، نتيجة غلاف الحرمان الذي كساها منذ ولادتها، فقد ولد أبلها، وفقد أمه وأباه في سنين طفولته الأولى، لذا دمعت عيناه حين وجد من يحتاجه وهو المستهلك نبذا.

انحنت سمية، وظهر بعض من حمالة صدرها المتعبة من حملها الدسم، فتعالت في أعماق نفسه أمنية رؤية مساحة أوسع، لكنها أسقطت كل أحلامه حين نهضت من مكانها، وقد أكملت ما بدأت.

عادت سمية تحمل رغيفا لفت به حبة مسلوقة من البطاطس، وقدمتها لعثمان هامسة في إذنه تعال غدا صباحا، أما الآن فانصرف، يخالجها الحذر من أن يفضح أمرها هذا المخلوق الساذج.

حشر عثمان الرغيف تحت أنفه، وبدأ التهامه، ثم ترك لخفيه العنان في التهام الدرب باتجاه وسط المدينة، حيث تختنق حجرته المتعفنة بين أكوام البيوت المكتظة. تضاءل حجمه المغادر، ليتنامى حجم حنين الصغير العائد من المدرسة كلما اقترب من مكان وقوف أمه التي اجتاحها إحساس الريبة حين لمحت ولدها يسير مطأطئ الرأس، فجرت إليه فاتحة ذراعيها، وأمطرته بوابل من الأسئلة، كان أهمها:

- لم أنت حزين يا روحي؟

- لا أدري فقط أشعر بالتعب، والجو يدفعني إلى الحزن.

انتفضت سمية تحت تأثير شحنة الرعب التي اجتاحتها عندما لمحت في مخيلتها وجه الشبه بين فلذة كبدها وعمه حنين. لذا

ضغطت بأسنانها على بعضها البعض، وتوعدت نفسها بألا تدعه يلعق الكثير من تلك الأفكار التي غرمت عمه حياته، وراودتها رغبة إيقافه عن الدراسة، لكنها تهالكت أمام مقارنة مستقبله بواقع والده، وخشيت عليه من الغد المعتم الذي سيعجز حتى المتعلمون عن الرؤية بوضوح فيه. وبقيت تتخبط بأفكارها أمام تفتح هذا البرعم، الذي لبى نداء الجد من الداخل وبادر الحديث إليه:

- ها، هل حصلت على علامة كاملة اليوم؟ إذا لم تكن عشرون على عشرين فلا تكلمني.

- اطمئن، كما تحب. قالها حنين بهدوء واتزان اعتادت عليه العائلة فيه.

وصاح الجد بأعلى صوته:

- تعال، تعال، وارتم هنا فوق هذا الصدر الخشبي. فيهر صدره هرير القطط جراء ضحكه.

ويرتمي الصغير على صدر جده صامتا، شاردا، ويستنتج الآخر أن حفيده بات يستنشق كمية أكبر من هواء الحياة المحيطة، ولم يبدي استغرابا، فقد ألف ذلك في ولده السابق، وهو يعتقد أن الحفيد سيخلف عمه.

بدا راجي كأنه شحنة من النوم والتعب الشديدين، لذا ما إن وضع رأسه فوق الوسادة، حتى سرى في جسده أفيون النعاس وغط في نوم عميق. وانشغلت سمية بتساؤلات سرية مشمئزة:

- أي حياة هذه؟ زوج كثير العمل، كثير النوم، قليل الكلام والاهتمام بزوجته وولده؟

وانشغلت الجدة نعمت في ثرثرتها، وهي تقرفص أمام الباب، وقد أدارت ظهرها لهم، وراحت تبول، وتتوعدهم بالرحيل للعمل في

مزرعة شفيق الجزار، الذي كان أيام شبابها يستأجر العمال للعمل في أراضي الإقطاعيين، وهذا ما يحدث لها من فترة لأخرى، فقد بدأت تظهر عليها ملامح أرذل العمر. وهزت سمية برأسها لأنها كانت تعلم كما الجميع مقدار حبها للحياة، وخوفها من الموت، لذا لم يناقشها أحد بالأمر. وما هي إلا لحظات حتى يبدأ أهل هذه المدينة المسكتين باعتلاف النوم مبكرا، ما دامت اليقظة لا تجلب إلا الويلات.

* * *

البصل ينمو بسرعة غريبة في هذه المدينة. هذا هو ما يشغل تفكير ابن زلفة الذي انقطع عن الأطفال لأيام خلت، تاركا تساؤلاتهم في تشنج التخمين، والاستغراب، إلى أن قرر الصغار البدء بالبحث عنه.

في صباح اليوم التالي، ضرب موعد عند مدخل المدرسة مع نهاية الدوام، ولحسن حظهم أنهم خرجوا مبكرا، وتطايرت في الفضاء سمفونية الصياح اليومية التي يطلقها الصغار مع قرع جرس انتهاء الدوام كل يوم. ولو توغل السامع في الإصغاء لها، لقرأ في ثناياها مقدار كبتهم نتيجة للفاقة، مما يصقل في نفوسهم نغمة الإنسانية. فأي قراطيس يمكنها استيعاب آلامهم؟ ما دامت قواميسهم تبحث عن الكلمة الضائعة (الرغيف)، لذا كانت تتحول دفاترهم بعد مرور أيام قليلة من بداية العام الدراسي، إلى تصاميم أحلامهم المستحيلة، فذاك يصنع منها طائرة، وتلك كرة، وآخر حولها لصاروخ، وغيره لروبوت يشبه البشر، وهاتيك مروحة هوائية، وثمن كل تلك الألعاب جلدة في المساء، عند متابعة الآباء، وغالبا ما ينتهي الأمر بقرار عدم صلاحية الفاعل للعلم، لذا يوقف محولا إلى الشقاء اليومي قسرا. فكل ما حول هؤلاء الناس يتضاءل، ويضمحل، ويضمر، إلا الجوع فهو يزداد عافية كلما ازدادوا مرضا.

ويبقى السؤال الباحث عن إجابة: ما هو الأمر الذي يربط ناصر بهؤلاء الصغار؟ هذا ما بات يشغل أذهان الكثير من أذهان سكان هذه المدينة، أفليس داء الجائعين التشاغل بخصوصيات الآخرين؟ وتسويق النميمة حتى إذا وقعت مصيبة هبوا شامتين. وأكثر المتحمسين لهذه الإجابة هو جاسر الخرسة، صاحب أشهر حانة لهو في المدينة، فلكم دبر المكائد لصيد نقود الشباب، واغتيال أحلامهم بحانته التي كان يغطيها ويساندها أمنيا كبار ضباط الأمن من جيش الاحتلال الشرقي، فقد كان يغدق عليهم العطاء كلما احتاجوا، ثم

ينقض عليهم مطالبا سداد ديونه، ومن يعجز عن ذلك يكون مصيره سجون أولئك الضباط، ليخرجوا بعدها وقد جندوا عملاء لصالحها، أو ينخرطون في حزبها، ومن يردع جاسرا، وخمرته ومخدراته تتلف كل يوم عقول المستفيدين، وهو الذي أقسم أن يجعل قبورهم تفوح منها رائحة العربدة إرضاء لأولئك الضباط، وهو يعرف ثمن كل واحد منهم، ويملك التسعيرات لهذا الأمن الرخيص من نساء ومال مهما غلا ثمنه، وله خيال لا يعجز في أحلك الظروف عن حياكة أحداث، وأكاذيب، بغية الفوز بابتسامة تمكنه من الاستمرار. وبالأمس تشاجر مع ابن زلفة الذي دأب الدخول كواعظ إلى حانته، وكان على ما يبدو شرسا هذه المرة في هجومه، حين تلا خطبته التحريضية، والتي أدهشت جاسر لدرجة أنه ظل مصغيا حتى نهايتها:

- البصل يتنامى بسرعة أكثر في هذه المدينة، ونزاهة الأطفال تزداد تلفا. اعذروني، فصندوق ضميري في حالة إقفال منذ زمن، لكني أعمل بآلية العادة، فقد تعودت إضاءة الزوايا المعتمة، وأنتم تشربون طوال الليل ما ينفخ مثاناتكم، وتدلكون أفخاذا تمقت فحولتكم المصطنعة، وتنوح بشدة الضياع بحثا عن ساعة الضياء، ثم تغادرون باحثين عن أقرب زاوية لبولكم، وألسنتكم تنشر فلسفة توقعون من خلالها على صك دناءتكم، وتظل خلفكم عبوات نشواتكم فارغة، تتقيأ رائحة ما تعبون، وتبول أسرتكم الآنية على بلاغتكم الناطقة. "أنت أيتها المومس جليلة بذهنك، عريقة بصدرك الذي يتسع لملايين الأحاديث والقصص. لكني ألمح يا عزيزتي المخدوعة بهؤلاء الماجنين أن شفتك باتت رثة، ونهديك يخذلان حمالتيهما مع استمرار ضمورهما".

ثم اقترب من إحداهن محدقا في وجهها نافثا صوته كالسم:

- لم يبق من أنوثتك سوى فتحة التبول، لذا أنصحك بالابتعاد عن شاعرية النقيق.

ثم خرج وهو يردد: "لم يبق من الإنسانية إلا بعض جسد" .

وعلا صراخه في فضاءات الطرقات، يتسلل صدى عباراته ـ ممزقا صمت الليل، ويعبر النوافذ والشخاريب، ثم يعود إليه تردد صوته، فيفر منه إلى سواد الليل وفي مخيلته ألف لقطة للوجوه الباردة التي خلفها وراءه، دون أن يخطر لباله ما قد يلاقيه انتقاما لأفعاله.

استيقظ جاسر باكرا هذا اليوم وعلى غير عادته، وخرج لينتظر الصغار عند مدخل المدرسة، وقت انتهاء الدوام، وهم يتوافدون إلى مكان تجمعهم اليومي، ومكثوا في انتظار قدوم مائدة هادئين إلى أن أطلت برأسها وسط حشد الطلاب كأنها أحد صغار الطير الخارج توا من قصره الأبيض الرقيق في موسم التكاثر، بوجنتيها المحمرتين جراء الزحام، ومشت رافعة بيدها خصلة الشعر عن جبينها العالق فوق انحداره حبيبات عرق كأنها تاج من لؤلؤ تدلى، وقالت: هيا بنا. وهم الجميع باللحاق بها لولا أن صفع حنين رغبتهم بسؤاله عن جهتهم التي سيقصدونها. فصمت الجميع، وراح كل ينقب في ذهنه عن شيء يساهم في تقديم إجابة مقنعة. وتضاربت الاعتقادات حول مكان ابن زلفة، وكانت فرصة لا تعوض لجاسر كي يحشر أنفه معبرا عن قدرته على المساعدة فتحسس الصغار من هذا الغريب الفضولي، وتحول الأمر إلى قلق حين حدقوا في وجهه، حيث بدا بنظارته المستديرة العدسات، ذات الإطار الأسود، وبشعره الخفيف الأشيب، يلتصق بانحدار رأسه، وكانت ملامح وجهه أقل إشراقا وانسجاما مع ملابسه الأنيقة السوداء، تفوح منها رائحة العطور، وببريق حذائه المتناسق مع لمعان شعره المطلي بمرطب الشعر. وكما تحدث الحداثة من انعكاسات مشوشة ومربكة في النفوس البدائية، كانت غرابة مظهره وتدخله دافعا لهم للعزوف عن مكان اجتماعهم، فمشوا ملتفتين إلى الوراء ليجدوه يتتبع خطاهم قائلا:

سأدلكم على مكانه. وحاول الصغار اظهر اللامبالاة لكلامه، إلا أنهم أبطؤوا السير، ثم توقفوا غير ناظرين إليه، وتجرأت مائدة على سؤاله بصوت متوتر: أين هو؟

وكان جاسر على حنكة ودهاء مما جعله يتجنب استفزاز استغراب الصغار، لذا أجاب على الفور:

- هو عند المستنقع، رأيته باكرا يتجه شمالا.

وكانت حاجة الصغار للقاء ابن زلفة أقوى من قراءة ما وراء فضوله الأنيق.

انطلقوا مسرعين متجاوزين الشارع الذي يمر قبالة المدرسة، عابرين الزقاق الذي راح يبتلعهم باتجاه وسط المدينة، حيث تتكئ دكاكين الباعة الصغيرة بعضها على بعض مع طول امتداد الشارع، وتبدوا لمراقبها كأنها بعتمتها الخريفية من الداخل قطيع ماعز يسير في ظهرية شاحبة، مدمنة على الحزن.

التجارة في كل مكان أداة قتل حضارية، إلا في هذا الشارع الذي رغم أنه أحدث شارع في المدينة، إلا أنه يبدو زقاقا لو قارنته بكسارات الطمأنينة الجماعية. فأصحاب هذه الدكاكين قد لا يصل بهم الربح حد اكتفاء حاجاتهم المعيشية. ليس للصغار حاجة في هذه الدكاكين، أكثر من تخزين صورها في مخيلاتهم أثناء مرورهم بها تجاه أحد الأزقة، المؤدي إلى تبعثر البيوت عند أطراف المدينة شمالا. كانت خطاهم خالية من التسكع الذي يسمح للعين بمراقبة أدق لما يقفز فوقه البصر أثناء الطريق، وبسبب إسراعهم لم يتسن لأحدهم النظر خلفه، خاصة أثناء توغلهم في الخلاء الذي يفصل المدينة عن المستنقع، المتقوقع بين غابات البردي والقصب.

توقف الصغار متوجسين للحظات قبل الولوج في أمواج الأعشاب، التي عليهم اجتيازها، وراق لهم الحفيف المحدث

خشخشة كجلال موعظة ، وشدهم للحيظات نفور بعض الطيور المختبئة بين طيات أوراقها.

سار الصغار بمحاذاة السور الذي يشكله تنامي القصب بحثا عن سرداب يعبرونه. حتى اكتشفوا موطئ قدم، يتلاشى على بعد خطوات، فقرر آصف الولوج به. وتبعه سامر، ولحق بهما حنين ورجوة ومائدة. وما أن اجتازت الصغيرتان خطوتين حتى أخذت تصدر عنهما أنات بسبب الجروح الناتجة عن انغراز شطب القصب في سيقانهما العارية.

ظل آصف يعتمد في طريقه على التخمين، وينشد ثقة الجميع به مشجعهم على ذلك بقوله:

- اتبعوني، لا تقلقوا.

نظر حنين خلفه حين راعه السكون وتطاول القصب، وهجست نفسه أمام تحجم مسار بصره، فرفعه نحو الأعلى، لير الممر الضيق الذي يفصل رؤوس أعشاب القصب عن قطيع الغيوم السارح في فضائهم الشرقي.

كاد القلق يحملهم على اليأس أثناء تجاوز هذه المسافة، لولا أن عيدان القصب راح يتناقص طولها، فاستبشروا بأرض مكشوفة، لذا واصلوا سيرهم بين تنافر الخوف من المكان، والرغبة ببلوغ النهاية. حتى نفذوا إلى باحة صغيرة تراكض فيها الصغار فرحين بمياه المستنقع التي لمعت صفحتها المتسعة لانعكاسات صفحة السماء المطلة عليها. وهي أوسع مما ظنوه حين شاهدوها من سفح الجبل يوم زاروا المغارة. وكانت الدهشة أمام صمت المكان وسكون صفحة المياه اللامعة، البادية كصلعة مدرس الرياضيات، أو هكذا بدت لسامر الذي قهقه وردد: "إنها كصلعة الأستاذ نعيم. انظروا إلى تلك القصيبات المنتشرة فيها، أليست كخصل الشعر

التي طلاها الأستاذ نعيم بدهون الشعر فتطايرت مع الهواء كأعمدة دخان في عمق صحراء غلفها السراب؟".

انشغلت رجوة بمراقبة نفور الضفادع أثناء انتقال أقدام هؤلاء الغرباء فوق أراضيها حول هذا المستنقع. وابتسمت للدوائر التي أحدثتها عند قفزها إلى الماء، فيما راحت مائدة تدنو من الضفة وتحدق بحثا عن إحداها بين الأعشاب النابتة على حافتها، عندها فاجأها توقيت موحد لصرخة ودفعة خفيفة بكتفها، فصاحت فزعة وتراجعت للوراء.

كان حنين يمزق النظر ذات اليمين وذات الشمال بحثا عن ابن زلفة حتى راح يخطو لا إراديا تجاه ما استقطب بصره وقد لفت انتباهه ذلك الشيء المكور المتهشم وضوحه من خلال النظر إليه بين القصب الذي يحجب اكتمال شكله. وظل يقترب حذرا حتى وجد أنه جسد ابن زلفة يأخذ قسطا من النوم. فانسحب بحذر إلى حيث الأصدقاء، وأخبرهم بمكانه، فقرروا التسلل والجلوس قربه إلى أن يستيقظ: وبين السير على رؤوس الأقدام والتنفس بحذر، بلغ الصغار مرقده، وتوزعوا حوله، وجلسوا ناظرين في وجوه بعضهم البعض. إلا أن سامر لم يستطع كبت الرغبة التي اجتاحته، لذا تناول ورقة قصب، وراح يمررها فوق أذنه، كاتما ضحكه أمام ردود أفعاله.

أفاق ابن زلفة مذعورا، فتعالى ضحكهم، وقال لهم حين رآهم:

- أي شيطان حب هذا الذي أحضركم إلى مذبح القنوط، واللاجدوى، وبهتان حجة الثيران البليدة؟

لكنه شعر بقيمة الدفء الودي الذي يستمده منهم، وبحلقت عيناه بوجوه المتضاحكين، ثم خرجت صرخته المعتادة:

- سأقتلع كل البصل، ولن أتركه يتنامى بعد اليوم.

واستغرب الصغار هذه العبارات التي يصعب عليهم إدراكها، لكنهم بقوا على صلة بحرارة اللقاء الذي كان رغبة جامحة لدى الجميع قبل هذه اللحظة.

- ولكن كيف عرفتم مكاني؟

- أخبرنا عنك شخص ما عرفناه قبل اليوم. أجاب حنين وهو يبعد خصلة الشعر كعادته عن عينيه. فاستغرب ناصر وسأل دون ترقب:

- كيف ذلك؟

- لم نسأله، بل هو أخبرنا من تلقاء نفسه. ردت رجوة بعد أن تركت نظراتها تمشي فوق صفحة المياه العاكسة صورة السماء، والغيوم، وعيدان القصب. فتفاقم استغرابه، وحدق قليلا في وجه المستنقع الذي بدا له جراء الظلمة التي حلت في رأسه كحطام زجاج يبص تحت ضوء القمر، ومط شفته السفلى، وقذف الحصاة التي كانت بيمينه، لتلغي الدوائر المتشكلة جراءها ما كان يتخيله، ثم سأل:

- وكيف عرف أنكم تفتشون عني؟!

حك آصف ساقه الأيسر الذي جرحته أعواد القصب، وأجاب:

- أظنه سمعنا، نتساءل عن مكان وجودك. وقال أنه شاهدك صباحا تتجه شمالا.

- صفوه لي. ماذا كان يرتدي؟

قال سامر الذي كان يهمس في أذن مائدة:

- كان يرتدي ثيابا أنيقة، وبدا أنه غريب عن المدينة بنظارته التي تطل من خلفها عينان صغيرتان.

وعاد ناصر ليسأل سامرا، دون أن يرمش بطرفه:

- قلت أنه يضع نظارة، أمستديرة العدسات؟

- أجل.

- إطارها أسود؟

- أجل.

صمت الصغار أمام شروده، وبعد قليل ارتسمت ابتسامة فاترة فوق شفتيه المنزويتين تحت شاربيه الكثيفين، ثم هز رأسه، وتغيرت ملامحه، وردد بهدوء:

- لا بأس، لا بأس.

ظل الصغار يتأملون الحشرات الزاحفة منها والطائرة، والتي يتوهم بعضها إمكانية الوقوف فوق المياه فتتبلل أجنحتها، وتظل تجذف بها دون جدوى، فيردد ساخرا منها:

- حمقاء، كباقي الكثيرين من أبناء جلدتي. انظروا إليها، فأي معجزة تحتاجها لتخرجها من مشكلتها؟

- ولم لا نخرجها نحن؟ سؤال طرحته مائدة عليه.

فهز برأسه، وابتسم بفتور، والجميع من حوله ينتظرون قراره، لكنه فاجأهم بانصرافه لعد الرقع الحمراء الموزعة فوق معطفه الأسود، ثم أخرج زفرة باتجاه شاربيه، ما أثار استغرابهم، فردد:

- حشرات، حشرات. لماذا سميت هكذا؟ أتعرفون؟ أصل الكلمة من الفعل حشر، وهو يعني ما من داع لوجود هذا الشيء، بل إن وجوده يسبب انزعاجا.

ثم غرز أصابعه في الطين، واستقطع جزء منه وقذفه إلى الماء، حيث لا حركة فيه، إلا لأجنحة الحشرات المتورطة هناك. فارتاب الصغار من فعلته، لكنه أكمل كلامه:

- لا مجال، الضعف هو الضعف، اعلموا أن حماية القذرات يعني تغذيتها، والحشرات أي كانت في وضعها الحقيقي أو في شكل خلايا بشرية، مضرة لا بل إن ضررها في عالمنا أشد منها هنا. لذا فالأناقة أناقة الفكر، والسلوك، وليس تنسيق ألوان، وأغذية، وأطعمة، فلقد رأيتم غريبا يبهر بأناقته، ويجذب بعفة روائح عطوره، وليتكم تعرفون، وتفهمون أي نوع من البشر هو، وما نوع عمله. وكان الصغار منشدين لحديثه بحيرة، وهو يكمل: عندما تكبرون ستعرفون نوع عمله الذي لا استطيع أخباركم عنه، لأني أؤمن بتكريس العادة أيا كان نوعها، لكني لا أرى عمله أنيقا، ولا أفكاره، ولا وجوده كليا في المدينة. ثم بصق في وجه المستنقع، وهو يردد "المستنقع أوسع مما ترونه".

المطر المتساقط رذاذا كأنه مسبحة الآلهة الموسمية، تبعثرت حباتها لتصيب ببركتها حقول الفقراء، فتنبت شقائق النعمان، ليقرأ بها الأطفال طالعهم.

بقي ابن زلفة يراقب سطح المستنقع البادي كغربال مائع، بينما راح سامر يفتح فمه ويجعله تحت حبات المطر لتسقط فيه فيتذوق طعمها، وفتحت مائدة كفيها جامعة فيها بعض حبيبات المياه المتساقطة، وانشغل حنين في تجريد قضيب قصب من أوراقه لا لشيء. فأعلن ابن زلفة أن الجلسة بدأت تتصف بالملل، لذا نهض ولف قطعة الجلد وأتم ما ألف من عاداته المعروفة، ثم نظر إلى الماء قائلا:

- يخشى المرء التنفس بعمق أمام هذا المستنفع، وإن ما يزيد حيرتي هو كيف نتمكن من التنفس ونحن نعيش فيه؟

بصقت رجوة فوق صفحة المياه وظلت تتأمل تهاديها حتى علقت بأعقاب القصب، فرفع ابن زلفة بصره إلى السماء ناظرا في الغيوم التي راح بعضها يتخطى بعض، وقال:

- هيا بنا. وخطا في طريق العودة.

كانت مراسم عودتهم كأنها حالة اختزال لجدل عقيم، فلقد وفر الجميع على أنفسهم عناء الإحراج، لذا التزموا الصمت، مما ساهم في استفزاز تركيز ناصر المبعثر، وزاد من تحفيزه لتسجيل كمية هائلة من الرموز والصور، فطالما كان مقتنعا بأهمية كل ما يقع تحت بصره، وبصيرته. وفاجأه سامر بسؤال:

- بم تفكر؟

- لنقل بالتدريب على عمل مسرحي. وكان آخر ما فكر به ناصر لحظة تحليل عقله للسؤال.

وحثت رجوة خطاها لتحاذيه وسألته:

- وهل سنمثل؟

ومط شفتيه إلى الأمام ثم ركز نظره على شاربه الكث، حتى بدا كأنه أحول، وردد:

- نعم، ستمثلون، لأنكم أجدر من يستحق الإصغاء.

فاستفزت عبارته إصغاء حنين لذلك أمسك مائدة من ظهرها، وشدها بحركة لا شعورية، ثم تجاوزها وهو يقول:

- ماذا تعني بذلك؟

- ولد نبيه.

تمتم ابن زلفة بهذه العبارة، وتوقف، وصمت قليلا، ثم استدار لينظر في وجوههم وقال:

- الموهبة المصقولة مهما حاولت، لا يمكنها تجاوز التجربة الشخصية. فإما باكية لعجز، أو ضاحكة لسخرية، والمبدع في حديثه عن الحزن، فمن خلال تعميم ذكي للوعة خاصة، ووصف الفرح مكابرة دنيئة، لأنه يعاش ولا يوصف، ونحن كبشر يمكننا وصف المآسي أكثر من السعادة، لأنها أشد أصالة وأكثر انتشارا في الجنس البشري. أعلم أنكم قد تقعون في لبس جراء ما أقول إلا أن مواهبكم تحكي وجهة النظر الحقيقية، وليس المقصودة.

ثم أصدر عواء كالذئب، وقال:

أنتم أكبر من أي ثرثرة، وهذا ما يدفعني للغناء، وقفز يغني:

"مستنقع وجفاء

في جعبة الضعفاء

والحلم في صدري

أعطيته درري

جوفاء كالسخفاء"

وراح الصغار يحاولون مجاراة نشاز صوته وظل هو يغني، ويقفز كجندب تارة، ويتثنى كقرد طورا، ثم يحاول الطيران كعصفور كسر جناحه، وظل على هذه الحال برهة من الزمن، ثم أطبق شفتيه، وتنفس بعمق، وقوة من أنفه، فجحظت عيناه، وبدا عليه التعب، فالتف حوله الصغار حذرين، صامتين كقطط تقلصت أجسادها استعدادا للوثب، ولم يعد يسمع غير صوت المطر الذي ينقر بحباته أوراق وعيدان القصب.

استمرت سمفونية الهذيان المر في تناميها إلى أن احمرت عيناه وفاضت دمعا كسا الوجوه الصغيرة بثوب الجلال والحزن الشتويين، ثم ارتجفت شفتاه كأنهما نقوش دف عذبه الدفاف، وأجهش في البكاء والنحيب، وتهدجت أوصاله، وخرج نحيبه من خلل بحة، توزع الريبة والغرابة على أرواح سامعيها، فسكن التفاجؤ أذهان رفاقه الصغار حين راح يردد:

- حشرات، حشرات. وهي نوعان ضار، وغير ضار ولكن ليس نافعا، وتبقى جميعها حشرات، والحماقة الميؤوس من شفائها، تحولنا ببطء محسوس إلى حشرات، تتعفن في هذه الأمازونية الرطبة، والنحل فقط هو الكائن الوحيد الذي يجيد الاستفادة من الإيحاء للاستمرار، ذلك لأنه يحب الموت ويوزعه بعدالة دنيئة، هي كفاءة الحاجة التي تدفع للهراء.

حري بكم أيها الصغار أن ترتدوا شحوب الوجوه، ورجاحة البؤس، فالمطر فقط يروي حدائق القصور، والفيض يصيب أنهار الشهوات. وتظل حدود مدينتكم من ضفة المستنقع إلى مدخل المقبرة. وأغانيها في هزيع الليل نعيب البوم، وصرير الأبواب القديمة، ولهاث الأطفال الموبوئين، وفحيح الأسرة المختمرة عفنة رغباتها.

اثنان ينعمان بألق النور، اثنان فقط: غني، ومجنون. لذا كونوا أغنياء ضعفاء، أو مجانين أقوياء. وانشروا إيقاع رقصاتكم عند مغط طائر الفري، في مطل الربيع. لكن احذروا أن تتطأ أقدامكم قشور بيوضها فتسحقها، وتتلوث بنبيذ الحياة، فتثقل ولا تقوى على السير.

اصنعوا ناياتكم من عظام جثث الحصار، واعزفوا لتحكي ألحانها نفور أرواحهم من أكياس اللحوم اعزفوا لتطرب نعاج مدينتكم، وتلتم على موائدكم كلاب الحراسة. وأبدعوا العزف كي تبول على

أذيالها عطشا. ولكن احذروا العزف بين أروقة المصلين، كي لا تفسدوا عليهم صلاتهم، فيمطرونكم غضب دعائهم، فتبتلون بالخوف. واعلموا أن أغبى الخلق هو الإنسان لأنه إذا شعر بالضعف لجأ للغريزة، أولم يعجزه الفأر؟ فصمم له المصيدة. وأعجزته الطريدة فاخترع السهام، وأعجزه المعدن فأوجد النار، وأعجزته نفسه فابتكر القتل، وأعجزته الحيلة فصك النقود حتى إذا أعجزته نفسه، أوجد الانتحار.

وشرع يبكي بصوت عال. ويلعن ويشتم، ويشد بيساره على كتبه التي يتأبطها، واختنق صوته وتشنجت عضلات وجهه. ثم واصل يهمس باكيا "كلنا أبناء زنى، ولسنا أبناء للحياة. فلقد ضاجع آباؤنا أمهاتنا في لحظة نزوة، وليس إرادة باستمرار أبناء جلدتنا. أجل نحن أبناء متعة وشهوة. ولسنا أبناء حب وانتماء. لا زلت أشتم ولادتي ورائحة السفالة في مضاجع البشر".

انتفض فجأة، فكأنه أدرك بوعيه ما تطل عليه حواسه الخمس، وأخذ يمسح بطرف كمه الأيمن عينه، وأنفه الزبد المتسلق جانبي فمه، وتنفس بعمق مبتسما، وعلق بصره على تلاشي الرؤية. ثم التفت صوب الصغار الذين لاحقوه بعفوية، ورقصوا معه في حلبة التطهر. فبكوا وتوتروا، وتلاشى الكره من دواخلهم، ثم وقفوا حوله بشكل دائري. فصفق وقال:

- هكذا ستمثلون، هل أعجبكم تمثيلي؟

وكان الاستغراب رد فعل الصغار وتبسمت مائدة، وأدار حنين رأسه مستغربا ثم قذف بهزة اعتادها من رأسه خصلة الشعر الذهبية المتسكعة فوق جبينه، وفركت رجوة كفيها معبرة عن فرحها بما سمعت، وصفق البقية لابن زلفة الذي كان يخزه الشعور بالذنب، لأنه يكذب على نفسه.

خلفوا المستنقع وراء ظهورهم، ومضوا، وظلت عيناه تقرآن تفاصيل الإنسان في سطوح القبور الموزعة حتى حدود غيوم الغروب المسمرة هناك عند منتهى النهار.

كانت المؤانسة أشد تغلغلا من تأثير انزواء البيوت المنتشرة كقطيع ماعز يؤوب مساءً مأواه.

خزائن الذاكرة تصبغ السطوح بألوان خاصة. لذا بدت لحنين أعمدة الدخان المتصاعد من مداخن البيوت كأنها حقل استخراج الفحم الذي سكنته يوميات جده منذ زمن بعيد، وسط الصمت، وسكينة الركام، فبدت عودتهم كأنها جزء من طقس جنائزي.

وكما تجمعوا عند مصب الأزقة، عادوا لتبتلعهم باتجاهات مختلفة كلما ازداد ظل الأكوام ليختفي كل منهم في ظلمته الخاصة. إلا سامر ومائدة اللذان ترافقا بحكم تجاور منزليهما، وسارا على جانبي القناة المكشوفة والغاصة بمياه آسنة يمازجها وحول، وبول وبراز الصغار، ومخاط العجزة وفقاعات الصابون. وفجأة مد كل منهما يده ليمسك يد الآخر، ورأى ابن زلفة تلك الحركة من موقعه عند أول الزقاق، فردد:

- هكذا دائما يكون حب الفقراء ضحية على رصيف الأوساخ، والأقذار.

وظل يتأمل صامتا إلى أن قطع عليه سلاسة الاستمتاع بهذا الحب البريء، العائم فوق النتانة الاجتماعية، صوت آصف الذي دلف في الزقاق المقابل، من الجهة الثانية والذي كان يرافق انحدار القناة نحو خراج المدينة قائلا: إلى اللقاء.

تابع حنين ورجوة سيرهما بجانب ابن زلفة الذي سأل رجوة:

- والدك ماذا يعمل. وما اسمه؟

- عماد، وهو بائع خضار خلف عربة.

- أظنني أعرفه.

- الكل يعرفه، لأنه دائما في تجوال خلف عربته. قالتها رجوة وهي تقفز فوق بقعة مياه اعترض دربها.

ضحك ناصر لحركتها، ورفع يده ليودعها عندما قالت:

- من هنا الطريق إلى بيتنا. إلى اللقاء.

وركضت باتجاه امرأة لفت وقوفها انتباه ابن زلفة، حيث لوحت الأخرى بيدها للصغرى. فأيقن أنها الأم فابتسم وواصل سيره بصمت إلى أن دنا من مطلع الدرب المؤدية إلى بيت حنين أحس برغبة الغوص في هذا الاتجاه، فنظر إلى السماء ثم إلى الخلف بحثا عن شيء، أحس بوجوده من دون أن يراه. فاستدار ليفاجئه، ثم همس لحنين :

- استدر إلى الخلف بهدوء، ولاحظ ذلك الشخص دون أن تقوم بأية حركة.

فنفذ حنين المطلوب بدقة، فلمح رجلا، يقطع زقاقا من جهة إلى أخرى، محاولا الاختفاء خلف أحد الجدران. ثم همس سائلا:

- ما الأمر يا ابن زلفة؟

- أهذا هو الرجل الذي أرشدكم إلى مكان وجودي؟

- لم أره جيدا، لكني أظنه هو. وفتح عينيه محدقا في مكان اختبائه.

ظل يتمتم هازا رأسه، مبتسما بقرف، فقد تملكته رغبة التقيؤ. "هكذا إذن يا جاسر! هذا أنت!".

وسأله حنين: ومن يكون جاسر هذا؟

- هو حشرة. تشاجرت معه بالأمس، وأظنه يتتبعني.

ثم بصق باتجاه مخبئه، واستدارا وسارا، قاصدين منزل أبي سهيل. وكان لا بد من انتهاك حرمة المسافة المتبقية، فالمستفزات كثيرة رغم هدوء هذه الأمسية التي بدأ الغيم يفارق فيها سماء المدينة، فاسحا المجال للظلمة، ما زاد الطرقات جلاء.

كان منزل أبي سهيل يقتطع موقعه من منفى جنوب المدينة. وهو يتكور بنشيج الألفة، والمؤانسة الحزينة.

عندما كانت سمية لا تزال ترابط أمام الباب ناشرة عيونها ترقبا لإطلالة صغيرها، الذي بدأ يعتاد التأخر أثناء طريق العودة من المدرسة، ليذكر الجميع بعادة ألفوها في عمه حنين. وإذا سئل عن سبب تأخره أبدى امتعاضه من فضول السائل.

نزل الصغير الدرجة الوحيدة عند باب الحديقة الخشبي المتصدع كأطراف الجدة نعمت وهو يلح على ابن زلفة بالدخول، والأم يعمر قلبها بالفرح من تصرف الصغير المبشر برجولة مبكرة، ولاحظ ناصر ابتسامتها فشعر بارتياح لموافقة الأم على استضافته من قبل ابنها.

وتعالى صوت الجد من الداخل كأنه تردد صدى من فراغ:

- من هذا يا سمية؟

- حنين ومعه ضيف.

وما إن سمع الجد كلمة ضيف، حتى توتر وتسارعت ضربات قلبه، وازداد رهافة راجيا أن يكون مع هذا الضيف خبرا ما، لذا لم يستطع الانتظار في الداخل ونهض وهو يسعل، وقد حشر شاربه خلف يمناه التي راح يعبئ فيها سعاله، ثم رفع صوته:

- تفضل يا أخي.

دخل ابن زلفة شاكرا، وفي نفسه رغبة الاعتذار والانسحاب، إلا أن إلحاح الجد والعائلة عليه بالجلوس، وتناول كوب شاي منعه من ذلك. فازداد حنين زهوا لما أبدته أسرته من احترام نحو ضيفه، ففهم الجد إحساس الحفيد فقال له:

- أنت سيد الكل يا حنين.

دخل الجميع وصادف جلوس ابن زلفة أمام الجدة نعمت، فسارعت لسؤاله:

- من أنت؟

هز رأسه فرحا وقال: "ناصر ابن زلفة".

- من جاسر الملعون هذا؟! ردت الجدة.

فقهقه عاليا وأدار رأسه يمينا وشمالا، وهو يقول: "جميل، جميل!".

ثم نهض تاركا الجدة تثرثر، وحالها كحال باب الحديقة الذي يظل طوال الليل يتأرجح، ناشرا صريره في أرجاء المحيط، ودخل حيث أشار أبو سهيل نحو الغرفة الداخلية. وجلس عند يمين المدخل قبالة المصباح الزيتي، المعلق في الزاوية الداخلية. واستقر في جلوسه غير آبه بإلحاح أبي سهيل المكرر:

- يا رجل لا تجلس هنا. ادخل إلى الداخل، هذا لا يجوز.

إلا أن ابن زلفة سحره شحوب الضوء في تلك الزاوية، وشغله عمَا حوله ولم لا، فاي بشر يمكنه استيعاب أو تصور أحلام هذا البوهيمي؟

كانت سمية قد أشعلت النار تحت إبريق الشاي. وقلبت وعاء فارغا وجلست فوقه، تراقب اختمار الشاي، وراحت تنتقل لتسافر بمخيلتها بين خلل البخار المتصاعد من عنق إبريق الشاي، وواصلت رحلتها إلى تذكر اليوم الذي حضر فيه حنين الأكبر وأحضر معه أحد أصدقائه في ساعة متأخرة من الليل، وأيقظها لتعد لهما طعاما، ولفحت دواخلها نسمة جافة من الحزن، فلقد تعلمت منه الكثير في بداية حياتها، وكادت تظل في انقطاعها اللاواعي تجتر الذكريات إلا أن غليان المياه في الإبريق صعد من كثافة البخار، وراحت ترقّص غطاءه، فيصدر عنه صوت عفوي، عانق بعذوبته اللحظة التي سكنتها.

أطلقت تأففها الحزين، ونهضت تجهز ما ستقدمه لولدها وضيفه، والجد، فهي وبالرغم من كل القلق الذي ينتابها بشكل ماجن كلما لاحظت الشبه بينه وبين عمه حنين، وبالرغم من الخوف الذي يخالجها على هذا الحيز الوجداني والمادي في حياتها، إلا أنها كانت تجد متعة جزلة بتنامي أحلام هذا الصغير في ملامحه، والمتفرد عن أترابه بكثير من المزايا.

- حماتك تحبك.

بهذه العبارة استقبلت سمية زوجها راجي الذي دخل لتوه، وقد كانت تضع طبق القش الذي رتبت فوقه بعض أواني الطعام. ثم نفضت كفيها وابتسمت له حين علق سترته، إلى المسمار المثبت في الجدار، واقتربت منه حذرة فهي لا تريد لفت الانتباه لما ستفعله. سحبته من يده إلى الزاوية وهي تعرّض ابتسامتها كاكتمال هلال في سماء صيف صافية، وهمست في أذنه:

- آه يا عمري لو رأيت حنين قبل قليل، عندما كان يلح على ضيفه ليدخل، لا أصدق. لقد كبر فجأة وغدا له رفاق وأصدقاء، يصحبهم إلى المنزل.

وأتاها رد راجي بآخ تعبه اليومي، وهو يخلع حذاءه:

- مبروك، ولكن من سيعيد ضيفه إلى أهله ليلا؟

وتعالت ضحكات سمية ثم عادت لتكتمها بوضع كفها فوق فمها، ودفعت إليه بطشت الغسيل وقالت:

- سيعود بمفرده.

وغطس راجي قدميه في الوعاء وبدأ يدلكها معلقا:

- الليلة مظلمة وباردة، فهل سندع طفلا صغيرا يعود بمفرده إلى أهل؟ فلينم هنا الليلة.

حملت سمية طبق الطعام وقالت دون أن تلتفت إلى راجي وهي في طريقها إلى غرفة الجلوس:

- لا تتأخر، الجميع ينتظرونك لتناول الطعام.

وضعت الطعام أمام ابن زلفة، وزحف أبو سهيل على مؤخرته ليقترب من الطبق مرحبا:

- أهلا وسهلا بك وبحنين.

ابتسم ناصر لراجي عند قدومه، وتفاجأ الأخير لرؤيته، وتبادل الاثنان السلام، وبعد أن اكتمل تحلق الجميع حول الطعام، بدأ ناصر دون حاجة لإلحاح أو مجاملة يتناول ما يشتهي من أطعمة مضيافه الذي أسعده بارتياحه وتصرفه بتلقائية.

إلا أنه ولد دهشة لدى الجميع عندما توقف فجأة عن تناول الطعام. ما دفع الجميع إلى تبادل نظرات الارتياب، خاصة سمية التي طالما حرصت على نظافة طعامها، فانحنت وراحت تحدق في

الأطباق بحثا عن سبب توقفه، ولكن ابن زلفة الذي ظل مبتسما، محدقا في حنين، استفاق من شروده عندما سأله أبو سهيل:

- لماذا لا تأكل يا رجل؟

فابتسم وهو ينقر بسبابته فوق حافة طبق القش:

- لأنكم تصرفتم معي كغريب، وهذا حق الغريب في طعامك قد أكلته، تذوقت طعامكم .

- ماذا بدر؟ وأي كلام هذا؟ غريب؟ قريب؟ أنا لا أفهمك؟

مسح براحته اليمنى رأس حنين الجالس إلى جانبه، ثم قال:

- لماذا لم تأتي الجدة، وأم حنين للجلوس معنا إلى المائدة؟

- هذه أصول الضيافة. قال أبو سهيل وقد هدأ روعه استفسار ابن زلفة.

- لهذا أقول لكم أني لست كالمواد التي تتغير وتتخذ شكل مشكلها بالإلحاح والتكرار.

فشعر الجميع بغرابة رده وطباعه، إلا أن أبا سهيل ما كانت تنقصه الفراسة لذلك توقف عن الطعام مرددا: الحمد لله. ثم رمق راجي وحفيده بنظرة استغراب، والتزم الكف عن الطعام رغم جوعه الشديد، فيما اسند الصغير ظهره إلى الجدار بجانب جده. وبمقت الأم التي لا يخطئ حدسها رد الفعل، نهضت سمية ورفعت طبق الطعام، وقد تجهم وجهها، وفي داخلها أكثر من رغبة أفضحها رغبة رحيل هذا الغريب الغريب، ولينتظر حنين تأنيبا قاسيا، وليذهب أبو سهيل وتسلطه إلى الجحيم، وحده راجي راح ضحية هذه اللحظات الباهتة، لأنه لا شك جائع.

التزم أبو سهيل الصمت وأمسك علبة سجائره بعد أن سحبها من تحت حافة الفراش الذي يجلس فوقه، وأخذ يلف سيجارة، وهو يحدث ابن زلفة :

- الدخان عادة ورغبة أصيلة عندي. فأنا أحب هذه الملعونة منذ خمسة وستين عاما، ولست أجد أمتع من صحبتها.

ثم قرب السيجارة من طرف لسانه وقام بتمريرها فوقه، و قضم بأسنانه بعضا من طرفها المبتل، ثم قام بلصقها لتلتف كاملة، وضغط طرفيها بإصبعيه، وقطع قليلا من أسفلها وقذفها كعادته. وضع السيجارة في فمه وراحت يده تتحسس مكان الولاعة، إلى أن اهتدت إليها في عمق طرف سترته، بعد أن انزلقت عبر ثقب في جيبها الداخلي، فتناولها بإصبعيه، فيما ناصر يتأمل هذه القداحة الاسطوانية المعدنية، والتي يتدلى منها فتيل كتاني أصفر اللون، وأبو سهيل يعمل يده وفمه في تدوير دولاب قدح الشرر وينفخ على فتيل الكتان ليتأجج، ثم قربها من السيجارة ومج نفسا عميقا دمعت له عيناه عندما زفر دخانه من فمه.

بدأ ابن زلفة يشعر بالتثاقل من نفسه، وانتابه إحساس أنه بات من الأفضل له ترك المكان بعد كل ما حدث، وانتقل ليحدق في الجدة نعمت مراقباً تصرفاتها الشاذة عما يدور في المحيط، فهي منشغلة بكيس قماشي مليء بما لا يعلمه أحد سواها، وبيدها بضع خيوط وقطع قماش تخرجها منه ثم تدخلها، وكأنها تبحث عن معين ومحدد دون أن تمل أو تتأفف، بل تتصرف بمنتهى الهدوء والألفة.

ودار في ذهنه سؤال، وقد تحول بنظره إلى حنين الذي يقرأ:

- أتراها تقلق من الموت وهي أقربنا منه، و أكثرنا إحساسا به؟

وأطال تحديقه دون أن يرف له جفن محاولا امتصاص غبار رحلة العمر البطيئة في يوميات الذين يعيشون عزلة فقط ولا شيء سواها،

لا شيء. فلفجوة الحنان في حياته بعدا لا يمكن الإطلال منه إلا إذا دنت فكرة الزوال من نقطة البداية، وفي آفاق تكرار الأيام والساعات، يزداد جوعه لفكرة ملاشاة إرثه البدني من نطفة والده.

نهض وفي عنقه احتقان غصة، ودون أن ينطق ببنت شفة استدار وخطا في الممر المؤدي إلى الخارج، مخلفا شظايا نظرات الاستغراب تتطاير في أرجاء المكان الشاحبة.

عبأ أبو سهيل جرعة من الدخان في صدره. وزم خلفها شفتيه علها تتمكن من تخدير لواعج روحه الراجفة حزنا باستمرار. ونظر راجي إلى سمية التي وقفت في الباب تنتظر حنين الذي لفتت انتباهه لا أبلية الجدة بما يجري ثم خطت سمية إلى الداخل وجلست إلى جانب راجي وفي عينيها حقد أمومي على حنين، ثم قالت:

- أين تعرفت على هذا المجنون؟

انفجرت حنجرة أبي سهيل بالسعال الذي خرج عن السيطرة بحدته وعنفه العميق المصدر، فربما كان مصدره ذكريات أيام الشباب، أو معاناة الحرمان أيام الطفولة، وطال تفجر سعاله، وسال لعاب فمه، ورشحت ذؤابتا أنفه، واحمرت عيناه، واغرورقتا، وظل يتلوى أثناء ذلك حتى أسند رأسه على ركبتيه، ثم شهق بقوة، ونظر إلى الجميع، وألقى رأسه إلى الجدار مغمضا عينيه تاركاً دمع التعب يغادرها بهدوء.

كان حنين يراقب الجد المتعب، وظلت سمية تتمتم خلسة، فيما كان راجي يشرب آخر ما بقي في كوب الشاي. فتح أبو سهيل عينيه، وعدل من استقامة رأسه ثم نظر إلى حفيده مبتسما، وعاد ليلتفت إلى سمية، ثم راح يتأمل ظاهر يديه ويحكها وقال:

- لقد تسرعت في الحكم على الرجل، والانتقاد بعد رحيله غير لائق.

فاستفزت كلماته هدوء راجي فانتفض من تمدده، وخرج عن صمته:

- لا بل مجنون، وقليل الأخلاق. ثم وجه كلامه إلى ابنه: إن رأيتك تسير معه ثانية سأسلخ جلدك.

دهش أبو سهيل من رد فعل راجي، فقطب جبينه، ونهره بجبروته المألوف:

- ولد. فالتفت راجي مصغيا.

- الرجل لم يخطئ، وعدم خبرتك بأصناف البشر يجعلك تفصح عن وجهك.

فتكالبت في الزوج راجي حمية الدفاع عن رجولته فأجاب بجرأة:

- أنا أبوه، وأنا المسؤول عن تربيته، ثم ماذا أعرف أنا، و ماذا تعرف أنت عن هذا الغريب المعتوه؟

وأخذ صوته يرتفع تدريجيا وهو لا يرى أمامه إلا الدفاع عن رجولته:

- هذه نتيجة استهتارك، ولينك في توجيهه، ودلالك له أوصله إلى حماقة تصرفاته، فبات لا يرجع إلى المنزل إلا ساعة يشاء، ويصاحب هذا الصنف من البشر، وهو لم يتجاوز بعد حجم البصقة.

ثم استدار وخرج من الغرفة، وظلت سمية تحاذر النظر في غير الأرض، ولم تحاول وهي المتسببة بكل ما حصل. وعلق حنين بصره على الجد الذي ردد مبتسماً:

- أنت أبوه، وأنت المسؤول عن تربيته؟

وفغر فاه مستغربا، ومتعجبا، وأكمل:

- ترى كيف فاتني ذلك، تبا لتغير الجسد، فقد بدا عليّ الهرم، وشاخت أفكاري.

ثم قهقه مرددا: الأفكار بالأجساد، والعقول بالأشكال.

ثم تمدد ورمى برأسه فوق الوسادة وتكور وهو يطلب مواراته بغطاء قبل أن يجن. نهضت سمية مسرعة وتناولت غطاء، ووضعته فوق حماها، وهي تكاد تختنق من شدة الحرج، ودمعت عينا الصغير، وتحاشى البكاء، لكن كلمات الجدة نعمت جعلته يشمئز وهي تردد:

-أنت يا صعلوك سبب كل المشاكل التي تحدث في هذا البيت. ينبغي سلخ جلدك.

فنهض متوترا، وانزلق في فراش جده، فاحتضنه الآخر، وضمه وقال:

- أتسمع ما في صدري؟ غدا ستعرف إن توقف الحب والكره في صدر جدك، فلا تحزن لذلك، بل افرح لي لأني سأرتاح.

* * *

في الكره متعة، لا يستسيغ مذاقها إلا من استأنس صوت إلحاح الضعف في ذاته. تلك هي بذرة هزيمة فكر الإنسان.

نوال التي لم تنجب إلا رجوة، لا زالت حبلى منذ سنوات بالصبر. وهو ما ترثه النسوة بهدوء يومي عبر ما يسمى بأناقة الخلق والتحمل والدين في مجتمعات لا تتقن إلا قهر النساء. خاصة أن هذه المجتمعات باتت تفقد الكثير من أحلامها الجماعية ، لا بل تكاد تنقرض، لتحل محلها النزعات الفردية، حتى غدا العالم جسدا ، تعشق أعضاؤه الرئيسية الإفراط بالسمنة، ليختنق بذلك العقل والقلب من تعفن روابط الأخوة. فكل شيء في تنام وازدهار إلا الحب في تناقص، وهذا ما تعانيه نوال، التي باتت تزور قبر أمها كثيرا شاكية من تنامي الكراهية والكبر من حولها، مترحمة على طفولة كانت تضيق بمساحات المحبة. فأين تكمن المشكلة؟ سؤال ضج به مضجعها، وأعيت عماد محاولات تحديد مكان المشكلة أفي القلب أم في العقل؟ فهل يقابل نمو العقل واتساعه، ضيق في القلب وتضاؤل كلما تقدم العمر بالإنسان؟

كانت رجوة تلحظ كل يوم ازدياد ملامح الشرود في وجه أمها، وتلسعها تنهدات محرقة، كلما أفاقت من شرودها، دون أن يدفعها فضولها للاستفسار عن السبب الكامن وراء هذه الحالة.

يبدو اليوم شتويا بكل أجزائه ومكوناته وملامحه، فليلة الأمس أمطرت السماء بحنق، وظلت الريح تولول، وتصرخ طوال الوقت، وأفاق الناس على اجتياح الضباب لمدينتهم، حيث امتلأت أزقتها وشوارعها وفراغاتها بتلك الخلل من بياضه الذي يجعل الطفولة في أحياء الفقر تعيش ذروة فرحها به.

تحجم حجم كل شيء، وتحجمت حدود الرؤية، فكأن الناظر لا يرى من خلال هذا الضباب إلا ما يشبه ما يراه خلف شفافية فستان زفاف

استهلكه العوز فما أبقى من جماله أية تفاصيل إلا بياضه، وتكثف الفضاء وضاق حتى بدى كأنه يلامس كل شيء لا بل كل فكرة.

وأسرة عماد لا يتعدى تفكيرها أكثر من بضع كيلوغرامات من البندورة، وأكثر أو أقل من الخيار، ومثيلها من الملفوف والبرتقال، وكلها ليست للاستهلاك من قبل الأسرة، بل لتحملها عربة عماد ذات العجلات الثلاثة بمقودها الخشبي، الذي أمسكت به يدا عماد منذ طفولته فأكسبته نعومتها، وأكسبها جفافه، حتى بلغ النشاف بها أنها أخذت تذوي يوما بعد يوم، وتنحل وتتضح رجفتها متى ما أمسك به، وقد بلغ الإعياء منه ما جعله يكتم حاله عن نوال، إلى أن سقط أمامها أثناء حمله صندوق الخيار هذا الصباح.

أدخلته بعدما احتارت كيف تفعل ذلك، وظلت تتخيل لأكثر من ساعة ما حصل محاولة إيجاد تفسير لما حدث، ولكن دون جدوى، ما جعلها تتبنى حدس نبوءة تهدم جدار الطمأنينة الذي أحاط بها منذ تزوجت عماد.

مددته فوق فراشه الذي لا زال على ما كان عليه لحظة أن غادره عماد، وكذلك بقيت العربة في الخارج، وانتزعت حذاءه من قدميه، وغطته بعد أن لاحظت تراقص كل مساحات جسده بردا، وخيل إليها أن تراقص أجزاء جسده أشد سرعة من إبرة ماكينة الخياطة التي ورثتها عن أم عماد.

وراحت نوال تتمتم مع نفسها أدعية الاستغفار، وطلب العون من الله، ومنثور هواجسها يحاول تشخيص الحالة كما تحاول عصا الأعمى تلمس طريق حاملها في صحراء لا يدرك البصير جهاتها ثم سألته بحرقة، وقلق كسيرين كإطار الصورة القديمة المعلقة في الجدار:

- ما الذي يحدث؟

وأخذت تهدأ حالة ارتجافه أثناء مسحها جبينه المتصبب عرقا بالمنشفة، ففتح عماد عيناه لترى نوال آفة الطمأنينة تأكل كل آمالها بشفائه، فقد اغرورقت عيناه بالدمع رضوخا للا حول. ثم قامت برفع الشال الذي يلفه حول عنقه، وتذكرت كم طوقته بعناقها، وهو ينعم بذلك قائلا:

- شدي.

وتردد: سأجعلك تبكي، سأميتك.

وتراءى لها أن الخطل دب فيه حين قال لها:

- كان الله في عونك، وعون رجوة، أعانكما الله.

وكظمت قلقها وعضت على شفتها السفلى بقوة الإصرار على طرد مثل هذه الهلوسة من رأسه، لا بل من رأسها، وتابع هو كلامه:

- انتبهي لنفسك وللبنت، ليتني لم أوصلكما معي إلى هذه الحالة.

إلا أن نوال لم تحتمل المزيد من هذه التهديدات القدرية، لذا ردت عليه رغم صراخها الداخلي الرافض لكل ما تخبئه الحياة:

- كفى أرجوك، لا تقل هذا، سنكون بخير.

واستدارت وقد انفجرت بالبكاء، كما تنفجر مدافئ الفقراء في يوم عاصف، وقد غصت بالماء الذي خالط نفطها، وتلفظ غطاءها العلوي، لتنثر سوادها في أرجاء المكان.

فهي منذ أن خسرت أمها، وخسرت بعدها أمين وإلى الأبد، ثم خسرت أخويها زيدا وهاشما، غدت تصنف نفسها في صفوف المتسولين، فهي بصمتها تتسول الصبر لدفع إلحاح المصائب، و تتسول الابتسامة والضحك والألفة لحياتها التي لم تشعر ولو للحظة واحدة بأنها ستطول كثيرا.

ولكم كرهت وتكره الترجي، هذا الدنس الذي يبتز الدفء في روح المرء، ويعبئه بالتجاذبات والتنافر كتلك الإشاعة التي جالت أنحاء المدينة منذ سنوات، عن الصعود إلى الفضاء والنزول على سطح المريخ، وراح بسطاء وأميو المدينة يرددون الاستغفار، خشية مما ستؤول إليه الحال.

وكم عذبها، ويعذبها، أن تظل ترى نفسها تنظر إلى أعلى، أما آن لها أن ترنو إلى البعيد هناك على مستوى نظرها، أيعقل أن تمضي حياتها إما تنظر إلى الأسفل صمتا وإطراقا، وإما إلى الأعلى رجاء ودعاء؟ وكادت تطرد بحثها الملح عن حل، وإجابة إلى الأمس البعيد، أمس الطفولة حين كانت تأكل وأخويها بصحن واحد، وينامون في فراش واحد، ولكم شاجرت أمها التي تلبسها من سراويل أخوتها الداخلية، وتقنعها أمها:

- لا بأس فأنتم أخوة، وأنت فتاة بالنسبة لك وللناس، أما بالنسبة لي فأنت ولدي كما هما ولديّ، ثم من سيرى ما تلبسين تحت ثيابك؟ ثم تقبلها وتحضنها لتسكت معها تمرد الصغيرة.

وكانت أحلامهم تسكن فضاء الغرفة الوحيدة التي سكنوها، بينما اليوم تضيق مساحات الفضاء والأرض بفكرة الكره والحقد، لا بل بدأت تحقد على قلة الساعات التي تنامها وهي تنشد من خلالها الراحة، إلا أن عماد أيقظها من شرودها بسؤاله:

- أنا لم أتوقع أن تستسلمي للبكاء، أو لن تفكري في أمريكما؟

وتلاطمت جدران الكتمان عندها بفكرة الصراخ والشتم، تعبيرا عن القرف والدناءة والضعف عن قول كل ما في نفسها، لا بل وارت كل ذلك عنه وبادرت النظر إليه بابتسامة مزيفة، كتلك التي يلقى بها رجال التحقيق متهميهم، وقالت:

- لا شر عليك، إن شاء الله شدة وتزول، أظنها وعكة عابرة وتنتهي.

وبالرغم من جهل عماد لحقيقة مرضه، إلا أن مخزونه الداخلي من الهواجس كان كفيلا بأن يوفر له ما يعزز قلقه وخوفه من أنها ليست مجرد وعكة، وتذكر أن مثل هذه الرجفة مرت به عدة فترات في الصيف، لذا صمت، وحدق في سقف الغرفة الذي تشوهت صورته أمام عينيه، حين غادره إلى ما تمناه من أوهام. وانزلقت من عينيه دمعتان، واستقرتا عند أرنبتي أنفه، اثناء سماعه صوت الحركة الناتج عن استيقاظ رجوة، فقد كانت له مع غد هذه الصغيرة وعود شتى قطعها على نفسه، وها هو يخشى ألا يفي بأي منها بعد ليوم.

كان لا بد من التبجح بعبارات وصيغ الطمأنينة، لأنه لاحظ أن الصغيرة تكتشف سفالة الحظ مع والدها، لذا قال:

- صباح الخير. لقد قررت اليوم أن أرتاح، وأن أبقى في البيت حتى تستيقظي لألقي عليك السلام، وأحصل على قبلة الصباح، أين هي؟

وما أسهل نشر السلام والابتسامة في وجوه الصغار، فتقدمت منه رجوة وتراخت أطرافها كسلا، وارتمت في حضنه الذي لم يكن يحميه من ضراوة القسوة في هذه الحياة إلا بضعة كيلوغرامات من الخضار شحذها لحماية طفلته منذ الولادة وها هو اليوم يستسلم خانعا.

انكسرت نظراته ونظرات زوجته لحظة احتضان الطفلة، واحتقنت مآقيهما بالدمع، فتداركت نوال الموقف بالطلب من الصغيرة أن تستعد للذهاب إلى المدرسة.

عادت الطفلة تبكي بعد أن غسلت وجهها، ولما سألها أبوها عن السبب أجابت:

- الماء بارد جدا.

ودوت في جمجمته أمنية أن تكون برودة الماء أقسى ما ستواجهينه من محن الدنيا يا عزيزتي، وشعر بالضعف يستبد به، لكنه ربت على ظهرها وطلب منها أن تنهض لترتدي ملابس المدرسة، وقال وهو يتظاهر بوداعة الحياة في عروقه:

أريد أن أرى نعجتي الصغيرة بأناقة التلاميذ.

وعاد إلى عزلته مع نفسه التي ينهشها الحزن ويبدد طمأنينتها، وشعر كأنه يغرق في بحر من الصمت، فيتسرب إليه من أذنيه وأنفه، فيسمعه كما لو أنه أشبه بصوت ارتطام المطر برمال صحراء ما شهدت من قبل مرور غيم ماطر فوقها، فسد أذنيه بسبابتيه خوفا من أن يسمع وقع خطى الموت قادمة.

* * *

بدت رجوة لزملائها على غير عادتها هذا الصباح ، فقد ألفوها فرحة نشيطة، لكنها تطل اليوم بمحياها المتعب، والقلق يسكن محياها، غير آبهة بالألفة الصاخبة التي تسود صباحيات الأطفال في المدارس.

حاول آصف معالجة الأمر معها وسانده في ذلك بقية الأصحاب، وراحوا يبتكرون ببراءة الوسيلة تلو الأخرى بهدف الثرثرة وإضاعة الوقت، فيما ظل حنين يقف ساكنا محاولا تحفيظ ملامح الصديقة الصغيرة في ذاكرته؟

كانت ساعات الدراسة كعادتها مملة، وهي لم تكن في قسوتها ارحم من الفقر والبرد داخل غرف الدراسة، وكان المطر يهطل بغزارة، مما سرع في مسألة انصراف الطلاب، فلقد منعهم سقوط المطر من الانشغال بالأحاديث واللهو بعد الانصراف.

وصلت رجوة إلى رواق الدار مبللة، وانسدل شعرها على كتفيها مبللا متثاقلا، فالتصقت بعض خصلاته حول عنقها وفوق خديها وعلى جبينها ، وظلال الحزن تنعكس في عينيها، ما يشير إلى اتساع غرفة الذاكرة في رأسها كغيرها من البشر، فمن عذريات الطفولة سلامة النسيان، ومن شوائب النضوج تهشم نقاء الاسترخاء.

استبدلت نوال ملابس ابنتها، وأدخلتها الغرفة الممدد فيها أبوها، ودثرتها بغطاء وقربتها من موقد الحطب المحشور في الزاوية إلى يمين عماد، الذي كان يغطي وجهه باللحاف ويصدر أنينا، دفع الطفلة لإرهاف سمعها، وراحت ترتب الاستنتاج من خلال الربط بين ملامح أمها وأنين أبيها.

كانت نوال تمشي باحترافية توازي احترافية مشاة الحبال في حلبات السيرك، فتنتقل داخل دهاليز الذكريات المؤثثة بحيوية

الطفولة، وشبق التأمل في اقتراب موعد نفاذ مرحلة الصبر، وما يليها من عمر كامل من اليأس والشيخوخة المبكرة.

بقليل من الإيحاء السلبي يمكن إحاطة عالم الطفولة بالخوف. تسمرت رجوة متخلية عن عادتها التي كانت تمطر أبويها بوابل من الأسئلة التي كانت ترسلها إلى مسامع أمها لحظة مرورها ببالها، وتنتقل من فكرة لأخرى ومن حديث لآخر مغنية راقصة، أو مأرجحة رجليها أثناء الجلوس. إلا أنها اليوم تصرفت كقطة ترابط أمام جحر فأر، ثم فاجأت أمها بسؤال تجنبت الأم طرحه على نفسها قسطا من الزمن:

- لماذا لا يزورنا خالي هاشم وخالي زيد؟

- اخرسي.

جاء رد الأم كالبرق، وقد تركت إبريق الشاي مكشوف الغطاء فوق بابور الكاز، والتفتت إلى ابنتها لتكمل:

- إياك أن تسألي هذا السؤال ثانية.

فجعت رجوة بحدة رد فعل أمها، وتعكر مزاجها، وشبهت ارتطام كلام أمها برأسها بذلك الطير الذي ارتطم ذات يوم بزجاج نافذة الصف في المدرسة ما أثار هلع الطلاب. وكشف عماد الغطاء عن رأسه ليقول:

- باللين يا نوال، باللين.

والتفت إلى طفلته مبتسما، فلمحت الصغيرة وجهه المتصبب عرقا، وقد امتقع لونه وتغير عن عادته، وبات شاحبا كأوراق الأشجار التي تراها تتساقط من حولها كل خريف. وبحثت عن تفسير لحبيبات الماء فوق جبينه، ولكنها تراجعت أمام تسلل الخوف إليها، واستسلمت للذهول.

عادة يهتم الأطفال بالنتائج والظواهر، لا بالتحليلات التنويرية التي تسبق اكتمال الأشكال. فأدركت رجوة أن لأبيها مسحة من الثقل الكمي الذي تحدث عنه ناصر في أكثر من مرة، دون أن تفهم مغزى كلامه، وشعرت بعدم الرغبة بتناول الطعام الذي وضعته والدتها أمامها، ولم تناقش الأم معها أسباب عزوفها عن تناوله، وتنفس عماد بشرايين كآبته الصامتة حالة ابنته التي توحي بصدق الانتماء لإرهاصات الأسرة.

الليل واحة خبث. رغم ما قيل عنه فوق ألسنة العشاق والشعراء والمبتهلين، إلا أنه يظل واحة خبث لما يحدث فيه من دنو القاصي في الأحلام؛ ففيه تصمت العقول، وتستفحل الشهوات، وتحيى تحت ذلك الستر الذي يمتص كل عيوب ونواقص الأشياء، فمع قدوم الليل راحت خبائث المرض في جسد عماد تزحف بحثا عن تلكؤ أكثر في الإقبال على النهار. وأفاقت نوال على ثرثرة وهذيان وهلوسة زوجها تحت تأثير تلاعب درجات الحرارة في جسده، وسمعته يصرخ:

- رجوة احذري التقصير في المقاصد.

اقتربت منه وهي تزحف ومعها يزحف كسل جسدها المثقل بالنعاس الذي كانت تفرغ وتعب منه في فراشها وسألته:

- عماد. عماد ما بك؟ أتحلم؟

وظل هو يتمتم ما اختلط في عقله من إنذارات مكثفة وغير محددة، راحت تضخها نواحي جسده المبتلى بالحمى:

- نوال أوقفي العربة جيدا، إنها تتدحرج، لم تفتحين الباب؟ إذا سأل عني أمين قولي له إني عاتب عليه.

واستصرخت جملته الأخيرة كوامنها النفسية، ففغرت فاها، وسال لعاب فمها عند سماع اسم أمين. ورقصت في رأسها تداخلات شتى بين أسئلة واستنتاجات:

- ما الذي ذكرك به الآن؟ ماذا أصابك يا عماد؟ أتراه يحلم أم يهذي؟

فنهضت منتفضة ، ورفعت فتيل المصباح، ليفضح النور ما أرعبها في تشنج ملامحه، وتكثف العرق فوق وجهه، وتسمر جفنيه عن عينين مفتوحتين، وتراكم الزبد حول حافتي فمه، فخطت مسرعة نحوه وأمسكت بالمنشفة من على جانب فراشه، وراحت تجفف جبينه وتتحدث إليه بإيقاع لفظي ينسجم مع إيقاع انتفاض جسده المهتز كذبيحة لحظة نحرها.

واستيقظت رجوة على حوار لا ترابط بين جمله، ومضمونه، وهدفه، وطوقت جسدها بذراعيها جراء الخوف والبرد، واقتربت من أمها، التي كانت تبكي، وتتوسل عماد أن يهدأ، ويتماثل للشفاء، ولكن حاله كان يزداد نفورا من كل رجاءاتها.

واشتد عليه الحال، وازداد هذيانه، ونداءاته، خاصة لأولئك الذين باتوا مجرد أسماء في قاموسه التجريدي، واستسلمت رجوة لتنفيذ أوامر أمها دون تردد، أو تحليل، فتارة تحضر كوب ماء، وأخرى قطعة قماش، ومرة وعاء ماء بارد، وطورا غطاء إضافيا، وكل هذه المحاولات لم تخفف من تراقص جسده تحت تأثير الحمى. وتكثفت ملامح التعب في محياه، وتكثفت معها حيرة نوال وبلغ عجزها تثاقل يديها عن الحركة، وتثاقل عقلها عن تدبر الحال، فلا دواء، ولا طبيب في هذه المدينة الأمية السكان. والمشفى أبعد من مناهلها، والطقس العاصف يلهو بريحه كما يشاء في المكان، ولم يبق أمامها إلا أن تشعل الموقد عسى أن يغير الله حاله، وتشتت نظراتها بين النفخ في الموقد والنظر إلى عماد، دمعت عيناها من كليهما معا، إلى أن بدأت النار تثرثر في الموقد.

العبور بإعيائنا من شفير العجلة والتعجل، إلى هضبة الصبر والتكيف يمكن تشبيهه بمجرى التفاوتات في طبقة الصوت حسب مقاطع الكلام، لكن إشعاع انشطار آهاتها ينعكس باتجاه ضمور تحملنا لها.

عبر عماد تلك الليلة بآلامه وعائلته بين تلاطمات شتى، من الأنين والأفكار والغفوة والاستيقاظ وأنهك البرد والتعب والقلق رجوة فحشرت جسدها تحت اللحاف، بعد أن شرد ذهنها مع ذؤابات نور المصباح، ومع ثرثرات اللهيب في الموقد، فغطت في نوم عميق.

وكما يحدث مع انبلاج كل صباح لدى كل المتعبين حدث مع عماد، فقد تجاوز المرض حدود جهازه العصبي، فأسكت مركز الأوامر في دماغه، وغط في نوم كأنه الجمر تحت الرماد.

* * *

التكاثر المحموم في هذه المدينة يصنع التردي. فالغرائز والأمراض والجوع والديون والفاقة كلها منابت أحادية المغزى وهو الإشباع فقط، وإذا كان التكاثر المحموم يسببها، فالوسيلة محببة، وهي الوحيدة من متع الدنيا في متناول سكان هذه المدينة.

لعماد تسوس مزمن في جذور دراهم وقايته البيضاء، لذلك صارت بالية في لياليه السوداء. واتضح أنه بحاجة لعلاج مكلف وطويل الأمد، فالنقود في هذه المدينة كأخبار الصحف متوفرة لكنها لا تسمن ولا تغني من جوع. ولهذا لزم فراشه ولازمه أنينه، فاضطرت نوال إلى بدء الاستفسارات عن مدى قدرتهم على التحمل في مثل هذه الحالة، ومثل هذه الأيام، حتى كان لا بد مما رأته ابنتها في صباح أحد الأيام ، عندما أفاقت لترى الموقد المتقوقع في الزاوية، يقرأ مقاطع الحروف المتقطعة، والجمل والصور الطفولية في كتبها قراءة لن تتبعها قراءة بعد الآن. فنفرت إلى الغرفة المجاورة، لترى والدتها تكنس وتزيل الماء الذي رشح من جوانب الباب، حافية القدمين تستلقي على إحداها وترفع الأخرى ثم تقوم باستبدالهما، كأنها ترقص على إيقاعات الصقيع، فسألتها الصغرى:

- أهذه كتبي في الموقد؟!

- أجل إنها هي.

أجابتها دون أدنى اكتراث واهتمام، ولم تستوعب رجوة ما سمعت، فألحقت سؤالها بآخر:

- ولكن لم فعلت هذا؟!

وكان رد نوال فاترا، لا يقل عن سابقه:

- لأنك لن تذهبي إلى المدرسة بعد اليوم، وسننزل أنا وأنت إلى السوق بدلا عن أبيك.

ولم يكن لدى الصغيرة رغبة في نقاش الأمر، أو مقارنة المدرسة بالسوق، وهي لم تكن بحاجة إلى أكثر من إجابة على استفسارها، لا بل ربما كان النزول إلى السوق أحب إلى نفسها من الذهاب إلى المدرسة، فلن يرهق قائمة الفقراء زيادة اسم آخر في نهايتها، لا بل قد تكون لا زالت في اتساع.

كانت العربة تقف بجانب الدار، تحت مظلة حديدية صنعها عماد بعد أن شق برميلين فارغين، وحولهما لوحين مسطحين، ألقى بهما على قطع من الخشب جمع أجزاءها من النفايات المرمية في الأزقة أثناء مروره بها، وقام بربطها بأسلاك وحبال ومسامير، ثم ثقلها بالحجارة، لتعصى على الريح كلما عصفت بها. واستفاد من سطحها لتخزين ما يفيض عن حاجته اليومية من صناديق بلاستيكية وخشبية.

تأملت نوال العربة، والمكان للحظات، بحثا عن نقطة البداية في هذا العمل، ثم أمسكت بعصا المقود، وسحبتها إلى ساحة الدار، وقامت رجوة بمساعدتها، وأخذتا تنتقيان الخضار والفاكهة المناسبة للبيع، غطت نوال العربة بقطع الخيش المبللة، ثم راحت ترصف البضاعة فوقها وتوضبها بعد أن تتناولها من رجوة التي كانت فرحة باللا مألوف في يومها هذا، وأحضرت الأم الميزان، ووضعته في مكانه الذي كانت ترى عماد قد خصصه له، وجلبت الأكياس اللازمة لاحتياجات الزبائن، ثم ألقت كلتاهما نظرة فاحصة استعدادا لإعلان الانطلاق، وأمسكتا بالمقود والتوتر يخالجهما خشية الفشل، فلكم حاولت نوال حين كان عماد في عافيته، أن تجرها أمامه دون أن تفلح، إلا أنها تذكرت أن الاتكالية ربما كانت السبب في ذلك، أما الآن فالحال مختلف.

تنفست بعمق، ودفعت العربة، فبرم دولابها ببطء، تجاه الباب المؤدي إلى الشارع، فتعرقل سيرها بسبب قناة المياه الصغيرة، إلا أنها أشارت لرجوة بالعمل على سحبها من الأمام، فخرجت

عجلاتها، وانطلقت أمامهما عبر الزقاق الرمادي بسبب تلبد السماء بالغيوم وتكاسل الظلام في الانسحاب من المدينة.

بدأت الأشياء والأشكال تزداد وضوحا مع اكتمال ولادة نهار جديد، وازداد مع ذلك القلق لدى نوال، فهذه تجربتها الأولى، والتي لم تكن في حسبانها يوما، لذا حدثتها نفسها في تناقضات شتى، وراحت تطرح استفسارات عدة، وساد مناخ الإحباط على حديثها مع نفسها، فلولا شدة العوز، واستشراس الحاجة لأوقفت العربة مكانها، وطفقت عائدة إلى دارها، إلا أنها لم تفعل ذلك إلا بعد السوق، فقد عبرت بها حفرا، ومطبات، وغرزت قدماها جراء ذلك في وحول ومياه آسنة.

كانت حين تعبر هذه الأزقة في ما مضى، تمر بها مراقبة الناس والحوانيت المتكئة على جنباتها، مستمتعة بعفوية هذه الممرات وحركة وأصوات الناس فيها، لكنها اليوم لم تعبأ سوى بعجلات العربة، ومكان عبورها، وبالبضاعة التي عليها، ولم يدر في خلدها سوى أمنية بلوغ ساحة الباعة، لتجد موقفا ملائما لعربتها قبل اكتظاظ المكان بالمنافسين.

انتابها شعور لطيف حين مرت بسوق الأقمشة، وقد تذكرت زيارتها الأولى له، وأدركت سبب النظرات الغريبة في عيون بعض المجتمعين أمام باب المخبز الراقد عند الزاوية اليسرى، في الجهة الشرقية، وأحست بالخشية، لكن نظرات المرض التي تسقط حزم الحياة الذابلة من عيني عماد، كانت أشد حاجة وإلحاحا. لذا ظلت تخطو خلف العربة لاهثة، تعض على شفتها السفلى، حتى أطلت على الساحة المنشودة، وأحست برعشة النجاح، حين وجدت نفسها من المبكرين بالحضور، حيث لم يسبقها سوى قليل من الباعة، الذين أشعلوا نارا بالقرب من عربة العم تيسير، التي تتوسط الساحة، وأفلت الباعة تحديقهم بالنار المشتعلة في الوعاء المعدني المثقب الجوانب، والتفتوا إلى عربة عماد مرتابين، وانسحب العم

تيسير من بينهم وخطا صوب نوال ورجوة اللتين كانتا تحاولان صف العربة، وتقدم منها يساعدها سائلا:

- يا ابنتي، أليست هذه عربة عماد؟

وانتاب رجوة فرح مصدره ألفة أبيها بين الناس، فيما كانت نوال تتأمل العجوز الأشعث، بقامته القصيرة، وعينيه الواسعتين، وأنفه الأفطس المتربع وسط خدين بارزين، كأنهما بالشعر النابت فوقهما مجمرتا نار لطخهما السواد، يلف حول عنقه شالا أسود، يتدلى طرفه فوق سترته الخاكية، التي تحيط بسرواله الأسود، الذي انتفخ عند ركبتيه لانحشاره تحت ساقي جزمته المطاطية السوداء الملطخة بطين الشوارع، ونفايات الخضار، وقشور الفاكهة، وأجابته:

- أنا زوجته.

وتلمست مخيلة تيسير احتمالية وجود ظرف قاسي، دفعها للخروج بالعربة إلى السوق، لذا سألها:

- وأين زوجك؟

أجابته نوال، وهي تمسح ما سال فوق جبينها من حبيبات العرق بطرف شالها:

- إنه طريح الفراش منذ أيام، وجئت مكانه اليوم لأنك بالتأكيد تعرف حال العاملين في مهنتكم.

ولأن لأرواح الطيبين في الأرض مساحات، تتنفس عبرها حب الخير بصدق أشد من سواها، ولأن تيسير واحد من أولئك، تفهم الوضع، عزز يقظة حبه للخير وجود الصغيرة إلى جانب أمها، لذا خطا نحو العربة وهو يقول:

- ابتعدي، لأجعلها حيث اعتاد الناس مكان وقوف زوجك.

تناول المقود، وضغط عليه قليلا للأسفل، وقد أسنده خاصرته، فارتفعت مقدمة العربة، وضم شفتيه ليحبس أنفاسه كعادته، ودفعها، فانطلقت أمامه مرنة رشيقة، تتجه حيثما يريد. أوقفها إلى جانب عربته المحملة بالملفوف، والزهرة، ثم أسند إلى إحدى عجلاتها حجرا لضمان ثباتها، وكشف عن الخضار، وأعاد تنظيمها من جديد، لتنسجم مع رغبة الناظرين إليها، ثم زفر أنفاسه بقوة وقال:

- ما زال الوقت مبكرا، تعالي أنت والطفلة، لتقفا قرب النار، فأنا بمقام أبيك وهؤلاء أخوتك.

كانت نوال بحاجة للاحتكاك بالجميع علها تأمن شر ما تتوقعه، فلحقت به وسلمت على الجميع، فيما كان تيسير يعرفها بأسمائهم: "يوسف تاجر صابون، هاني بائع ملابس شعبية، رباح بائع خضار، جودت تاجر خردة، إسماعيل مصلح أدوات كهربائية، وهو لا يعمل منذ فترة". ثم التفت إلى الرجال الصامتين، وقال:

- هذه زوجة عماد جاءت طلبا للرزق بعد أن طرح المرض زوجها في فراشه.

رحب الجميع بها مؤكدين على أخوتهم لها، وأفصحوا عن استعدادهم للمساعدة، فتسللت حرارة كلماتهم إلى نفسها تسلل الدفء المنبعث من النار، التي قربها إسماعيل منها بقدمه، وهو يعزز تفاؤلها مرددا:

- لن تعودي إلى دارك إلا وقد بعت البضاعة كلها بإذن الله.

وتناول هاني إبريق الشاي، الذي لم يكن يفارقه أينما ذهب، وأخرج من جيب سترته كوبا، وسكب فيه لها، ثم طلب ممن أنهى كوبه، ليسكب للطفلة.

تناولت رجوة الكوب مبتسمة، فقد أثار هذا الرجل الفرح فيها، ولاحظت أنه يرتدي عدة سترات فوق بعضها البعض بألوان متناقضة، ويظهر تحتها حول عنقه عدة ياقات لقمصان متعددة، وخمنت في نفسها، أنه بالتأكيد يرتدي عدة سراويل. ثم بحثت لتتأكد من أنه لا ينتعل عدة أحذية أيضا، ولم لا ما دام هو بائع الملابس الشعبية المستعملة.

خلعت نوال الحذاء من قدمها، وراحت تدني قدمها من النار، لتجفف الجوارب، لكنها عادت وخلعت الجوارب، وعصرتها مما امتصته من مياه، وقربتها من النار لتجف، فيما كانت رجوة تنشر طرف ثوبها بيدها قرب النار، متأملة بوداعة ودهشة ما يحفل به هذا العالم، الذي تدلف إليه لأول مرة منذ ولدت.

انقشعت خيوط الفجر المتكاسلة مع إشراقة شمس اليوم الجديد، فلبست نوال جواربها، والحذاء، وراحت تتفحص المحيط بنظرها، وبدأ الباعة ينسلون الواحد تلو الآخر إلى عرباتهم، وأطلت وجوه بعض المشترين، وبدأ المكان يزدحم شيئا فشيئا. لكن السؤال الذي قفز إلى ذهنها فجأة : "ماذا علي أن أفعل الآن؟" وقفت بجانب بضاعتها صامتة، مراقبة، تنتظر أن يقترب منها أحد الزبائن، وهي ترتب بحركة جانبية التركيز على ما هو فوق العربة، كرد فعل طبيعي على قلقها.

اكتظ المكان بالناس، وتعالت أصوات وحوارات، وتقاطعت كلمات، وتداخلت اتجاهات حتى بات من الصعب فهم ما يسمع، وارتفعت أصوات الباعة، وتميز صوت تيسير عن سواه:

- ملفوف، زهرة، بلدي يا الملفوووووووووف.

تتالت الأصوات عابرة فضاء المكان إلى مسامع القاصدين، وبدا للأم وابنتها أن الناس قد اعتادت مثل هذه المشهدية، وأخذ الباعة يتبادلون الأدوار بالإعلان عن بضائعهم كما لو أنهم فرقة موسيقية

عرف كل عازف فيها دوره وتوقيت بداية ونهاية عزفه، وأخذ بعضهم يلون في صوته ممازحا، أو منافسا.

بدأت تتشكل تجمعات حول العربة، وراحت الأيدي تندس في ما بين المعروضات، مختارة، ومنتقية، أو متفحصة، ودون شراء.

حاولت رجوة التطاول برأسها لترى ما يحصل، وعززت ذلك بالوقوف على رؤوس أصابع قدميها، تستند بيدها على حافة العربة، ولكن دون جدوى، ولاحظت الأم حيرة ابنتها، فرفعتها، وأوقفتها فوق العربة، عند زاويتها الأمامية، وشعرت الصغيرة بالذهول عند مراقبتها بحث القادمين عن حاجاتهم، وتعدد مقاصدهم، وكيف يتحركون بآلية قلما يحصل فيها تصادم خلال عبورهم وتقاطع ممراتهم، ثم يشدها مصدر صوت، فتنتقل بحثا عنه، ويجذبها نداء آخر، وثالث، والقلق يخالج أمها بعد أن لاحظت عدم اقتراب أي من الزبائن من عربتها حتى اللحظة، وقد بدأت تدور حول العربة بحركة لا إرادية، تبدي توترها، وهي تفكر بخشية: "ترى هل عليها رفع صوتها بالنداء، أم تلتزم صمتها، أم تفعل...؟"، إلى أن سالت دمعتها بشكل لا إرادي، حين نهش الحب روحها، عند سماعها لصوت ألفته كلما تعالى أثناء اللعب:

- بندورة، خيار، يوسف أفندي.

إنه صوت ابنتها رجوة، رمقتها بعينها الدامعة وكتمت رد فعلها، ثم ابتسمت حين مازح الصغيرة العم يوسف مشجعا لها بترداده: "رخيص، ونظيف، للغني وللفقير، تعالوا إلى أصغر بائعي السوق، تجدون كل طازج".

احمر وجه نوال، واتسعت ابتسامة بريئة على ثغر الطفلة، ثم التفتت لأمها مستفسرة بنظراتها عن رد فعلها، فأشارت لها الأخرى بالإيجاب، وجاءها مطمئنا صوت تيسير:

- بوركت، أنت بألف صبي تنبل. وضحك مكملا عمله.

مسحت نوال دموعها بطرف شالها، وانطلقت رجوة في مناداتها، لا بل أضافت إليها حركات بيديها، فبدت كأنها تقف على خشبة مسرح، ما دفع الباعة والناس إلى التوقف، والالتفات إلى مكان الطفلة، التي تعتلي عربة شبه منبوذة من المشترين، ودفعهم الفضول إلى الاقتراب صوبها، وخفتت معظم الأصوات ليتعالى صوت الصغيرة، التي تصر على لفت انتباه الجميع، فهي أعرف الناس بحال أسرتهم، وأربكها اقتراب صوت طفولي آخر يدنو من المكان، مناديا:

- كيس، يا كيس، نايلون، ورق، يا كيس.

التفتت إلى مصدره، لترى صبيا لا يتجاوز العاشرة، ينتعل حذاء ضخما، اتسع على قدميه، ويتأبط حزمة من الأكياس، يسير ببطء، يشع اللطف من وجهه الجميل، الذي تكسوه مسحة حزن، ترافقه أينما سار أو اتجه، وتتشظى فوق شعره الأشقر خيوط الشمس، فابتسمت له، وتنبه العم تيسير لما يجري، فقال:

- هذا نادر، وهذه رجوة يا نادر زميلتك الجديدة.

ثم قهقه عاليا وانصرف إلى عمله. ضحكت نوال، التي بدأت تنشغل في تلبية طلبات الزبائن، وفي وزن ما ينتقون، والبحث عن فكة لترد لهم الباقي، وبدا أن الأمور تسير على ما يرام، ولم لا فالحاجة تعزز فينا سرعة التعلم والتكيف، فراحت تطيب خاطر هذا الزبون، وترضي ذاك، وتكرم آخر.

راح نادر يتجول في السوق بين الناس، منتقلا من عربة لأخرى، تراقبه رجوة بين الحين والآخر لتستمد من حضوره الألفة والشجاعة والاعتياد على هذا اليوم المختلف، بعد أن وجدت في وجوده ما يخفف اضطرابها، وفجأة سكتت عن المناداة، حين لفت

انتباهها سقوط نادر أرضا، ولم تتبين في البداية سبب سقوطه، إلى أن لمحت رجلا أنيقا، يرتدي ملابس تبدو جديدة، بطريقة لم ترى مثلها من قبل.

اقترب الأنيق من بائع الأكياس الصغير، والممدد في مكان سقوطه، متأملا ما التصق بأناقته من طين، ولاحظت من مكانها حركات الرجل التي تبدو مهددة، فنزلت عن العربة، وراحت تشق طريقها بين الأكياس المعلقة إلى الأيدي، وتبعد الحقائب التي في سواعد الناس، حتى بلغت مكان تجمع الناس حول ذلك الصغير، واندست برأسها بين الوقوف، لترى نادر مستندا على جانبه الأيسر في الوحول، والرجل الأنيق ينتصب أمامه شاتما لاعنا متوعدا مرددا:

- أنذال حقراء.

وفهمت من خلال تداخل التحليلات والأحاديث، أن نادر دس يده في جيب سترة الرجل محاولا سرقته، وتقدم أحد الناس من الطفل وفتشه، فلم يجد معه شيئا، وسأله عن سبب طرحه من هذا الغريب أرضا، فرد الصغير بغضب ومقت:

- لقد داس على رجلي، ما جعل حذائي يعلق في الطين، فدفعته لأنبهه، فثار وادعى أني سرقته.

وارتفع صراخ الرجل الأنيق بطريقة لا تتناسب مع أناقة مظهره، وصاح:

- سارق وكذاب؟ أي وقاحة هذه؟

وبهدوء وتركيز بانا على نادر، رد من موقعه:

- لست كاذبا ولا سارقا، وإني أحذرك.

فقد اطمأن إلى تعاطف الناس معه، واستلهم خطة للهرب، فيما لو اضطر لذلك. ثم التفت جانبا ليلمح غمزة عين من إسماعيل الكهربائي، فاستوعب مغزاها، واستعد لما سيحصل، ثم نظر إلى المتأفف، وهو لا يزال يشتمه، ويسبه، ويطالبه بنقوده، وبهدوء غير مثير للانتباه، قبض بشدة على الأكياس، وأعد نفسه لحركة، وتظاهر أنه ينكش بيده الطين، فملأ قبضته منها، وبلمح البصر قذف الرجل بها، وفر جريا، باتجاه إسماعيل، الذي فتح له منفذا بين الناس، فاختفى مخلفا وراءه الأنيق، يحار في نقطة البدء بمسح ما التصق به من الطين، لاعنا، سابا، راجيا الناس كي يمسكوا بالصغير. وتعالى ضحك المحتشدين حوله، ثم انصرفوا كل إلى عمله، وعادت رجوة إلى عربتها مفكرة باستغراب فيما حدث، ومندهشة من جرأة هذا الفتى الشيطاني، الذي خلف وراءه فردة حذائه، فاحتفظت بها له، متمنية أن يرجع لتعرف أسرق الأنيق ماله، أم لا؟

كانت نوال قد تفقدت رجوة، واطمأنت لماكن وجودها مع العم تيسير. وحين عادت الصغيرة، سألتها وهي توضب ما تبقى فوق العربة من بضاعة:

- لقد شارفنا على الانتهاء، فأين كنت؟

وردت رجوة وهي تدس الحذاء بين عجلة العربة وهيكلها:

- ذهبت لأعرف ماذا يحصل.

- وماذا اكتشفت؟

فروت لها ما جرى بالتفصيل، ثم صعدت فوق العربة، لتواصل مناداتها.

إن أكثر أمور الحياة غرابة، هي اكتشاف أوجه التباين فيها، لقد بيعت كل البضائع التي كانت على العربات صباحا. والعجيب أن يستهلك البشر كل هذه الكميات في كل يوم، ومثلها أو أكثر منها. التاجر يجلبه من المزارع، والمزارع يستجديه من الأرض، والأرض لا تعرف أن تبخل، كل هذه الاستفزازات جعلت عقل رجوة يلوكها، محاولا اكتشاف جديد من خلالها، إلى أن أوقفه صوت الأم المخترق للأذن الصغيرة، معبرا عن رغبة العودة إلى المنزل.

كان الوقت قد شارف على العصر، بدأت الساحة تستعيد صمتها وهدوءها، بعد أن لفظت كل القادمين إليها، وبعضا من الباعة، فيما كانت نوال تستفسر من تيسير عن مصدر تزودها ببضائع للغد، فاتفقا على أن يستيقظا مبكرا، ويترافقا إلى مدخل المدينة، حيث يجتمع المزارعون الوافدون كل صباح مع منتجاتهم، التي جلبوها من حقولهم في القرى والأرياف.

* * *

الإنسانية مفردة لفظية قديمة عثر عليها في كشاكيل الانتهازية اللغوية، لكن الأطفال وحدهم، هم الذين يقرؤونها بعفوية سويعات حياتهم، إلى أن تقتلع أبدانهم من هذه السويعات، حين تولد فيهم رغبة معاشرة المحسوس، عندها تختزل أول ما تختزل ذاكرتهم هذه المفردة.

كانت الحرب لا تزال بعيدة عن أبواب تلك المدينة، طيلة السنوات الماضية، ورغم تناهي أخبارها إلى مسامع الأطفال، سواء كانت من أحاديث المعلمين والتلاميذ في المدرسة، أو من أحاديث الكبار في البيوت والشوارع، إلا أنهم لم يعرفوا عنها أكثر من وصف المتحدثين لها كلاميا، حتى ظهيرة ذلك اليوم، حين جمع المدير التلاميذ في باحة المدرسة، وأعلن بداية إضراب، وإغلاق المدرسة دفاعا عن هذا الوطن. عندها اقتحم ابن زلفة الباحة صارخا محتجا:

إضراب عمال، أو سائقين، أو موظفين، أو حتى جميعهم، أمر يمكن للعقل نقاشه في سبيل الوطن، أما إضراب المدرسة، فأي صلة بينه وبين حماية الوطن؟ فهل سلاح الجهل يحمي الوطن، أم أن حجم قدرة المرء على الكتابة تعزل الخطاب السياسي؟ العمل بعث الحياة في البشرية، فأي وطن تبنيه مدارس مقفلة؟

واشمأز المدير والمدرسون من كلامه، وانهالت عليه الشتائم من كل حدب وصوب، حتى بلغ الأمر اتهامه بالجاسوسية، وعداوة الأمة، وحاول جعل صوته يعلوا على أصوات الجميع، إلا أنه فشل أمام رغبات معلمين أعمى بصائرهم حرمانهم من حقوقهم، ورغبات طلاب يستهويهم اللهو واللعب، لذا تجمع حوله بعضهم، وهو لا يزال يردد شعاراته، وحاصروه، وسدوا عليه كل منافذ النجاة، وانهالوا عليه ضربا، وركلا، حتى أسقطوه أرضا، ثم تقدمت منه مجموعة من ضخام الأجساد، وسحبته حتى ألقت به خارج باب المدرسة. وخرج الطلاب من الباحة ممزقين الفضاء بهتافاتهم

وصياحهم وزهوهم بالانتصار على ابن زلفة عدو الأمة، ثم أقفلت بوابتها الرئيسية، وبذلك انقطع الطلاب عن أخباره، لا بل بات مكانه مجهولا، وما من أحد يستطيع تحديد إقامته.

ظل حنين يمر على المدرسة كل يوم، ليعلم إن كان الإضراب قد انتهى أم لا زال مستمرا، وفي كل مرة يرجع حاملا بيده منشورات، تتحدث عن أحلام ومشاكل ناشريها الخاصة، الذين حولوها لأخطار تهدد السلامة والأمن العالميين، ولم ينس أن يقف أمام المدرسة، لبعض الوقت، آملا في ظهور ابن زلفة، الذي علمه البحث عن الحب في كل شيء.

كان يوما مشمسا، ومعتدلا في حرارته، لذلك قرر حنين عند استيقاظه النزول إلى المدينة، ليعرج على بيت رجوة، بعد أن يمر بالمدرسة.

خرج تاركا الأهل يجلسون خلف المنزل من الجهة الشرقية، ناشدين أشعة الشمس الدافئة، وأخذ يتنقل كالغزال فوق الأحجار الصغيرة، تجنبا للوحول والمياه، وأحس أثناء سيره بشيء من الحيوية، والفرح، فأخذ يصفر لحنا اعتاد سماعه عبر مذياع جده، الذي لا يعمل إلا إذا لطمه عدة لطمات، وراح يوزع الخطى على إيقاع اللحن الذي يدندنه، رافعا بانتفاضة من رأسه تارة، أو بيده طورا، خصلة الشعر الشقراء التي لطالما تكاسلت، وتدلت فوق جبينه.

* * *

لجيل هذا الزمن همومه وأحلامه، وأحزانه التي لا تتسع لها خزانات العالم ومستودعاته. حتى أن الواحد منهم يقطع مسير ساعات غارقا في نفسه، لا يستيقظ من ترحاله الفكري والنفسي إلا عند الضرورة القصوى. وكم من واحد منهم يمضي الوقت كالفئران التي تقرض حبوب البيادر دون ملل، يقرض أحلامه ومناه. وحنين واحد منهم، وتكاد تمزق جلده، وفروة رأسه الرغبات، فتطارد الفكرة الأخرى، فتتولد أفكار وتذوي أخرى، فيما يستمر المناخ القطبي بتخديره لها، حتى تصبح المصانع المنتجة لقماش الخام، والمعاول التي تعمل في فتح نفق مستطيل، يكفي لمواراة ملايين النطف التي يتلفها مرور السنين، أكثر ضرورة وأهمية من سواها.

كان قد وصل إلى باب المدرسة، فاقترب منه ليقرأ ما ألصق عليه. وكانت عبارة قديمة قدم الإنسان ألا وهي (الدعوة للقتال من أجل الحياة) فهز برأسه، مقرا بما يردده ابن زلفة "إنها فكرة سخيفة"، واستدار واضعاً يديه في جيب سرواله، وطأطأ رأسه ليبصق جانبا، ثم ركل قارورة فارغة، بعنف وغضب، وواصل سيره عبر الشارع المؤدي إلى منزل رجوة.

يوما بعد يوم تنبعث أفكار ورغبات، ولحنين منذ أيام رغبة التمتع بأبسط التفاصيل التي تقع تحت ناظريه، لذا كان أثناء مروره في الزقاق الممتد من الشارع الرئيسي إلى وسط المدينة، يراقب التداخلات الحياتية، التي تنسجها يوميات هذه المدينة، ويبتسم لها، شاعرا بحب لا يحمل خصوصية أشد وضوحا من خصوصية الانتماء. فهنا امرأة على يمينه فتحت باب منزلها المطل على الزقاق، وأمسكت بيدها حديدة مبسطة صلبة، وراحت تحف بها كعب قدمها، مزيلة ما تلف من جلدها الخارجي، وعل فخذها السمين يغفو طفلها الذي لم يبن منه إلا شعر رأسه الأجعد الشديد السواد، والتفت إلى اليسار ليرى امرأة بدينة وفي حضنها يتدلى رأس ابنتها وقد حلت جدائل شعرها، لتفتش ما بينه عن القمل والصيبان، وأدرك

حنين أن خلف كل باب ألف مشهد وقصة، فتلك تنشر ملابس لا تحتمل الرتق بعد الآن، لذا تظهر وفوقها الرقع كأنها ملابس رسوم طفل عفوية، وتلك تفرم البصل والبطاطا، وتحضر لتطهو، وهناك فضولية تراقب من قرفصائها وجوه المارة، وذاك عجوز يلف سيجارته، وبجانبه رفيقة عمر تفصل حبوب العدس عن شوائبها، فخطر لبال حنين أنها قد تكون ضعيفة البصر لذا تراها ترمي بحبوب العدس وتبقى على الشوائب، ما أثار ضحكه، وتلك تغسل جسد صغيرها عاريا خارج الباب على قارعة الطريق رغم لسعة البرد، وكل همها ألا يفوتها من أشعة الشمس نصيب، ولتوفر بعضا من الحطب أو الوقود، وصغار يتناثرون أمام البيوت، وعلى جنبات الزقاق ووسطه، بعضهم حفاة، وبعضهم بلا سراويل، فذاك بال على ساقه أثناء جريه وما توقف لذلك، وآخر يتذوق بطرف لسانه مخاط أنفه السائل فوق شفته العليا.

كل هذا يحدث بهدوء، وانسجام، لا مثيل له، والرابط الوحيد بين كل ذلك، هو غياب التفاوت بينهم، حتى بلغ التشابه في أسمائهم.

رفع حنين بصره متنهدا، فجذبت ناظريه أعمدة الدخان المتلوية كأفاع تصعد صوب السماء، من فوق أسطح أكواخ تربض هنا منذ زمن ولكن قد لا يطول بها الوقت إذا ما حلت الحرب هنا.

حين أطل على الشارع العريض الذي يتوسط المدينة، نظر إلى ما ينتهي به طرفاه أمامه ووراءه، فخيل عليه أنه كتاب سجل الغيابات الذي يحضره معه المراقب كل صباح ليحصي الحضور والغياب، فأهل مدينته يدونون حضورهم أو غيابهم على جدران هذا الكتاب الكبير يوميا، منذ أن شق هذا الشارع، وإلى أن يكتشفوا عدم جدوى حضورهم بعدها.

عبر الفتى الصغير الشارع، وانزلق في الزقاق المؤدي إلى بيت رجوة، وظل يراقب بابه الموصد في نهاية الزقاق، حيث يبدوا

للرائي أنه نهاية تنقطع عندها كل البدايات، فيما كان الباب يعرض ويتسع كلما دنا منه، وظهر له مع بلوغه نقطة النهاية ممر صغير على جانبيه ثلاثة أبواب لا صوت خلفها، فداخلته الريبة، حين رأى صفا طويلا من جدران البيوت لا مداخل لها، وفسر لنفسه الأمر باحتمال وجود مداخل من الجهة المقابلة.

استدار ووضع عن يمينه زاوية الباب المؤدي إلى باحة دار عماد، ونظر إلى الداخل، فلم يرى شيئا، مما اضطره الدخول إلى الباحة، فظهر له الباب الموصد الذي رآه من بعيد، فتوقف أمامه، وقرعه بيد معدنية كانت تتدلى من أعلى وسطه، فلم يلق جوابا، ثم كرر المحاولة، وعاد ليستدير، ويسند ظهره للباب.

أخذ حنين يتأمل عفوية الأيام في الزقاق، فرغم أنه لا شيء يثير الفضول فيه، ولا ملامح للفوضى توحي بانقلاب، إلا أن الابتسامة مرت بشفتيه رغم أنها كانت ركيكة، كرأس مال سكان هذه المدينة التوبيخية.

أحس برغبة شديدة لرؤية ابن زلفة، فهو الذي أطلق عليها هذه التسمية "المدينة التوبيخية" لأن الحياة فيها أشبه بحالة توبيخ دائم.

طال انتظاره أمام الباب، ودون أن يتوصل إلى أي احتمال حول مكان ساكنيه؟ وكادت توقعات سوداوية، تخيم على أفكاره، إلا أنه أرجأ ذلك، وقرر الانتظار، وبما أن قرارات الأطفال تنسف قرارت، لذلك قرر فجأة المرور ببقية المجموعة. نهض من قرفصائه، وأدخل يديه في جيوب سرواله، وانطلق عائدا، في الزقاق الذي أتى منه، ولم يتوقف إلا عند زاويته، حيث يركن بيت سامر، نظر في كافة الاتجاهات، التي تبتلع تناهي الدروب، ثم أطرق قليلا، ثم عبر الشارع المؤدي إلى السوق الشعبي بحثا عن لا شيء، بل ربما لالتقاط صور تبعث في نفسه الاطمئنان الذي تقل نسبته كثيرا في حياة أبناء جيله.

عرج على الزقاق الضيق الذي تنحشر فيه دكاكين بائعي التوابل والبهارات، والذي طالما قصده ليستنشق روائحه التي تعزز فيه رغبة العطس، وكذلك ليشعر أن مدينته لا زالت تتنفس من رئتها هذه. فأحس بوخز محزن نغص عليه بهجته، فأهل مدينته، قلما يستعملون التوابل، بسبب رتابة أصناف الأطعمة المحدودة، وبسبب انعدام شهية سكانها الفقراء للأكل.

الوجوه القابعة خلف شوالات التوابل، وصناديق البهارات، تبدو تراثية التراكيب، باختلاط خطوط الزمن المتعب فيها، وانسجامه مع بياض شعر الحاجب، أو الشارب، أو اللحى عند بعض الباعة، فمن النادر أن تجد باعة شبانا يبيعون التوابل، لأنها تتطلب قدرا كبيرا من الخبرة.

وأحس بأن حركة الناس قليلة هذا اليوم، ولفت انتباهه ذاك العجوز الذي يمسك بيده كتابا، ويدفن عينيه فيه من خلف النظارت المستديرة العدسات، المتربع فوق بساط شديد الحمرة، خلف مبخرة نحاسية تبص فيها جمار معدودة، وتفوح منها روائح عطرة.

اقترب من البسطة الصغيرة أمام الدكان، ونظر فيها، فلم يرى إلا كومة حجارة صغيرة هنا، وهناك قطع من جذور أشجار، أو من لحائها، ونباتات، وأشياء لم يسبق له أن صادفها، لذا تراجع خطوات قليلة، ورفع رأسه ليقرأ اليافتة التي تحمل اسم المحل (حانوت العطار غندور) وشعر بالرهبة لما قرأه، وتمنى لو أنه يسمح لفضوله بمجالسة هذا الرجل، أو التحدث، أو الاستماع إليه، لكثرة ما سمع عنه، وعن قدراته العجيبة في السحر والشعوذة، والتي يعتقد البعض فيها حل لمشاكلهم.

تمكن حنين من أن يشطح في مخيلته وللحظات، فتخيل أن غندور رفعه بعيدا إلى مدينة النمل، قرب مواقف الغربان، عند جبال القطط، حيث تقدم ملايين الأفكار، كذبائح لا يصد عنها حي أو

ميت، وأفاق من شروده فجأة، لتفاجئه عيون غندور المحدقة فيه، دون أن يرف لها جفن، فتتقلص وتتمدد عضلاتها، مما يوحي للواقع تحت تأثيرها بالرعب، والانجذاب القصري.

انتعشت رعشة الذهول في جسد حنين، حين تهدج صوت غندور قائلا:

- تعال يا ولدي. تعال لنذهب سويا في رحلة صغيرة إلى بستان النور. اقترب، لا تخف.

وخطا حنين لا شعوريا، وتجاوز باب الحانوت، وتوقف بجانب كيس صغير، يستند إلى آخر عند جانب الممر المتعرج داخل الدكان.

ابتسم له غندور، ونزع عن عينيه نظارته الصغيرة، لتظل مدلاة بخيطها الأسود حول عنقه، ومسح عينه اليسر، ثم قال:

- أظن أن اسمك غريب نوعا ما؟ وإذا صدق محدثي فاسمك حنين؟

تراجع حنين برأسه، وصدره فزعا، وفغر فاه، فاتحا عينيه لشدة اندهاشه، ساحبا يديه من جيبه، والرجل يكمل قوله:

- وأنت وحيد أبويك، لكننك تتوسط جمعا كبيرا، وتمتد حروف اسمك لمساحات، وتكون أمك سمية في مكان غير مكانك. اقترب واجلس.

ظل حنين ينصت بشغف إلى حديث هذا الرجل الإيحائي، بالرغم مما في داخله من نداءات التذكير بالسحرة والعرافين، وأفعالهم، وما يلحقون بالناس من سوء، وما روته جدته عن سواها من قصص الاختطاف والسرقة التي تمت عن طريق السحر، وتنازعت فيه رغبتان، إحداهما تدعوه أن يستسلم لغندور، والثانية تجعله يتوجس خيفة من احتمالية حدوث ما لا تحمد عقباه، إلا أن الحاج غندور شده

إلى قربه، وهو يحدثه بيقين من تعارف إلى جليسه، وكاد الصغير يجلس ليستوعب بحيوية الطفولة ما يسمعه، إلا أن غندور استودعه بدفء صوته الورع قائلا:

- لا تجلس هنا، بل اصعد إلى هناك.

وأشار بإصبعه إلى باحة صغيرة، مفروشة ببساط أخضر، نشرت فوقه أشياء عدة، لم يركز حنين بصره عليها، لانشغاله بحركة العجوز الفجائية، فقد أمسكه من يده ، وجره إلى حيث أجلسه، وأسند ظهره إلى الجدار، ثم جلب عدة كتب، وقلما، وأوراقا، وصحنا أثار بما فيه انتباه الصغير، وأخر فيه ماء، وتربع أمام حنين الذي راح يتأمل هذا الرجل بسرواله الأبيض، ذي السرج الواسع، وسترته البنية، فوق قميصه الأبيض، يلف حول عنقه شالا أخضر، إلا أن صوته قطع عليه قراءة تفاصيله، حين قال:

- اغسل يديك، وامسح وجهك، ورأسك بالماء وحاذر أن تنقط منه على الأرض لأنه ماء مقدس.

نفذ الصبي الأوامر، ويده ترتجف من الحذر، فاستوقفه غندور قائلا:

- ابدأ باليمين.

تصرف الصبي مع الأوامر بذكاء، ثم أبعد العجوز الوعاء جانبا، ليضع مكانه آخر أصغر منه، وقد ملأه بالزيت، وغطس سبابته اليمنى فيه، وتمتم بما لا يفهم بسهولة، ثم مسح ظاهر جفنيه، وقال:

- أمدد يمناك مستقيمة إلى الأمام.

ثم أمره بفتح الأصابع، وتفريقها عن بعضها البعض، فلمح الصغير تجمع الناس أمام الحانوت، يراقبون ويتفرجون، وطلب العجوز منه التركيز على عملهم وعدم الانتباه لهم، ثم تناول قلما، وبدأ يكتب أحرفا، ويرسم رموزا بأشكال هندسية من مثلثات ونجوم، وأخرى

على شكل أفعى، فوق أصابع يد الصغير، ثم راح يقرأ ويتمتم ماسحا بيده الساعد والكف، وتحتد ملامحه، وتظهر عليه إمارات الغضب، وتشير سبابته محذرة، ومنذرة.

أحس الصغير بالثقل في يده، وامتد التشنج إلى مفصل كتفه، وشعر كأنها انفصلت عن جسده، وبدأ يدب فيه التراخي، والنعاس، وجاهدا حاول الحفاظ على يقظته، ولكن دون جدوى.

وظهرت على الجمهور المرصوص أمام المحل علامات الدهشة، والاستغراب، وتعالت عبارات التهليل، والتكبير، وكل هذا بسبب بضع إشارات من سبابة غندور ليد الصغير كي ترتفع أو تنخفض، ثم أمرها بالارتفاع إلى أن استقرت فوق عينيه، عندها التفت إلى الناس، الذين أقروا بالصمت، والهدوء.

وأمسك حبيبات البخور من وعاء كان فوق الرف، ورشها فوق النار المتجمرة، فتعالت رائحتها، وراح ينتقي من أصناف وزعها في الأوعية على اختلافها، والناس في جهل بأسمائها، وعملها، ويرش منها فوق النار، ثم أمسك بورقة، وقبض عليها يمناه، ومدها فوق رأس الصبي، الثابت كتمثال بوذا، وبدأ يسأله:

- أرأيت النور؟

- نعم أراه يسقط عاموديا فوق رأسي.

- أهو واضح، أم مشوش؟

- واضح.

ثم أنزل يده إلى أمام عينيه، وسأله:

- والآن أين هو؟

- إنه أمام عيني، وهو قوي، ويكاد يؤذيني.

ابتسم غندور، ونظر إلى الناس المندهشين، بين شك ويقين، ثم طلب من الصغير إنزال يده عن عينيه، فرد عليه قائلا:

- لا أستطيع، إنها مثبتة إلى وجهي.

وابتسم غندور مجددا، وقال:

من منكم يرغب بمحاولة رفعها أو تحريكها؟

وتنقلت العيون والرغبات بحثا عن متطوع، ولم يبن، عندها استدار نحو الفتى، وبدأ يتمتم، ويشير بسبابته، ثم قال:

- يمكنك رفعها الآن.

ورفعها حنين، لكن عينيه بقيت مغمضتين. فأمره بفتحهما، ففعل الصبي، دون أن يرمش له جفن، وسأله العجوز:

- ماذا ترى؟

- لا أرى شيئا.

ودار اللغط والهمهمة، بين الناس، وطلب غندور من الفتى أن ينظر في وعاء الزيت.

فانحنى الصبي، ونظر في الزيت، فبانت على محياه إمارات الفرح والسرور، فسأله:

- ماذا ترى؟

- أرى مدرستي، والأطفال يلعبون.

ضم غندور أصابع يده، وقرب يمناه من فمه، وقرأ ما لم يسمعه أحد، ثم نفضها فوق الزيت، فتغيرت ملامح الصغير، وأجفل برأسه إلى الوراء قائلا:

- النار تشتعل، وهي هائلة الارتفاع، والمساحة التي تلتهمها واسعة جدا.

وارتجفت تقاسيم وجهه، ورشح العرق من صدغيه، فتناول غندور وعاء البخور، ومر به على شكل دائرة فوق رأس حنين، الذي بدأ يهدأ، ثم طلب منه تعديل رأسه، وإغماض عينيه، وعادت يمناه لترتفع مجددا، فيما يد العجوز تأمرها، حتى استقرت فوق عينيه، وهو يواصل القراءة، والتمتمة، ويهدد بسبابته، فإذا بيد الصغير تنزل، وفتح عينيه، والعجوز لا يتوقف عن القراءة، حتى ظهرت على الصبي ملامح الارتياح، فأمسك بوعاء الماء، وبلل كفه، ومسح رأسه، ثم وجهه، وظل يراقبه مبتسما، فيما الناس يكيلونه مدحا ودعاء.

نهض الرجل حاملا وعاء البخور، وانتعل نعاله، وتوجه نحو الناس، يمرر البخور أمامهم وفوقهم، وهم يتدافعون طلبا للبركة، فهو كما شاع شيخ مبارك، وبعد أن انصرفوا، نهض الصبي، يريد الانصراف، فقال له غندور بحزم:

- يجب أن تمر بي كل يوم اثنين، أو أربعاء مساء، فأنت بركة رائعة، وسأعلمك هذا السر.

وتناول ورقة، ودسها في كيس قماشي صغير يكاد يصلح طربوشا لرأس عصفور، وأخاط فتحته، ومرر بطرفه دبوسا، وطلب من الصبي أن يحمله معه في ساعده الأيمن أينما ذهب، وأوصاه بالحرص عليه.

تناوله حنين متأملا فيه، وسأل:

- ما فائدته؟

- إنه معينك في الشدائد، واعلم أنك ستمر بامتحان قاس جدا، وقريبا.

ثبت الفتى التميمة إلى يمينه داخل ثيابه، وغادر شاعرا بقوة من امتلك سر القوة كلها. وسار وسط تأشيرات سبابات أصحاب المحلات والحوانيت، يداخله إحساسا الحرص على التعويذة، وشعوره بأنه شخص مهم، وسوف تستهدفه أحاديث الناس لوقت من الزمن، وأي شعور ألطف مما ينتج عن تناقل أخبار الآخرين هروبا من هموم الفقر والعوز.

إذن لقد نسي حنين مقصده بعد جلسته مع غندور، وظل يسير تحت تأثير هذا الحدث، غير آبه بالمحيط، ومحتواه، حتى استوقفه شجار لقطط، ازدحم تجمعها أمام دكان اللحام، بعد أن قذف بقطعة من العظام إلى الشارع، وظل يراقب من خلف زجاج واجهة حانوته الخشبية، ما جعل حنين يتخيله خلف الزجاج كأنه صورة مكبرة، وتعالى مواء القطط، واحتدت غرائزها، وتداخلت الرؤوس والقوائم، والأذيال، وتشكلت لوحة دائرية متنوعة الألوان من أجسادها، وبات من الصعب تحديد ذيل هذا الجسد أو رأسه، وغدا المنظر كبقايا أوراق قذفها رسام، أعياه بحثه عن فكرة، كل هذه الشراسة حول عظمة، لا يتجاوز ما تحتويه من بقايا لحم ما يشبع جرذ صغير. تبا للغرائز فهي ذاتها في كل المخلوقات حين تستفحل.

كاد الصغير يصرف نظره عن المراقبة، إلا أنه غير رأيه، عندما لاحظ قدوما مفاجئا لهر أسود كبير الحجم، يفوق بحجمه بقية القطط، وقد قدم من خلال شق يفصل حانوت اللحام عن حانوت المنجد، فأدهشته سرعة توثبه وجريانه، خاصة عندما قفز بكل ما أوتي من شراسة فوق جمع القطط، وأسقط نفسه فوق ظهورها، فأصيبت بالذعر، والاضطراب، وتراجعت تاركة العظمة، فالتقطتها بفكيه، وقوس ظهره إلى أعلى، وانتصب وبر جسده، وبانت على وجهه استماتته للقتال من أجلها.

فهرهرت المجموعة، وهمهمت مبدية اعتراضها واستياءها، وبات بالنسبة للمراقب مشوقا ما سيحدث، فوضع الهر الأسود العظمة جانبا، ووقف فوقها فاتحا ساقيه الأماميتين، وقد انخفض بصدره تأهبا، ثم كشر عن أنيابه وأسنانه، ونفخ بطريقة أجفلت جميع القطط وحنين معهم، فتراجعت القطط وأعاد الكرة مع استدارة، فخفت مواؤها، ثم كتمت صوتها، عندها التقط العظمة بفكيه، ونشب مخالبه في مكان وقوفه، وعيناه تراقبان بثبات لا يقل عن ثبات عيني غندور، ثم قفز عاليا، فتفرقت القطط، وولت الأدبار، ونزل هو خلف قط صغير، ظل واقفا، ربما لأنه لا يعلم سبب بقائه أمصدره شجاعة، أم انبهار بما حصل، لكن القط الضخم مضى من حيث أتى، دالفا في الشق، وعادت مجموعة القطط لتموء وتشم الأرض بحثا عن بقايا.

نظر حنين إلى اللّحام الذي تغشاه الضحك خلف الزجاج، وهز برأسه مبتسما، ثم تحسس التعويذة، وواصل سيره باتجاه السوق القديم المسقوف بصفائح معدنية، تآكل معظمها، ورتقت بأخرى عدة مرات، حتى غدت كحذاء الطنبوري، وتخترق خيوط الشمس فتحاتها، فتنشر سقوطها المليء بالغبار الضوئي المتراقص في حبال من النور، وعلى جانبي السوق تتدافع، وتتكئ حوانيت الباعة إلى بعضها البعض، فتتآلف الألوان فيه وتتنافر، فهنا تتدلى أقمشة، وهناك ثياب، وتلك حقائب، وغيرها.

ينعدم اتضاح الرؤية مع الانتقال من النور إلى الظلمة، لذلك سار الصغير بضع خطوات على هداه، لا يرى شيئا، حتى ارتطم بأحد الواقفين أمام بسطة كتب، فوقف يفرك عينيه، عله يرى بوضوح، فكان أول ما سرق نظره حزم النور الرقيقة، فتسلقها بنظره، حتى بانت له الأقواس والجسور التي تحمل الصفائح المعدنية القديمة، واستقر نظره عند وقوف طيور الحمام وفراخها التي تسكن ما بنته من أعشاش في فراغ هذه التراكيب الهندسية، والتي بدا أن الباعة قد

ألفوا وجودها هناك، لا بل إن بعضهم اعتاد أن يجلب لها معه حبوبا، يرشها لها في نهاية اليوم بعد أن يقفل السوق، فتنزل لتأكلها. وظل حنين يتابع تناثر قذاراتها على مضلعات الحديد والجسور، وعلى الجدران، حتى أيقظه من تأمله صوت بائع قدم من داخل المحل الذي توقف أمامه:

- هيه أنت، أيها الصبي، ماذا تريد؟

فالتفت إليه محاولا معرفة إن كان يوجه الكلام إليه أم لسواه، فأتى كلامه:

- أجل، أنت، أنت إلام تنظر؟

- أتأمل أعشاش الطيور في الأعلى.

وقفزت إلى مخيلته صورة ابن زلفة ليلة سهر عندهم، حين استغرب الأهل سلوكه وطباعه. تفحص حنين وجه صاحب المحل باحثا عن الرابط بين ما قاله، وما تذكره، عندما سمع كلامه، فتذكر ما علمه ناصر "أن الباعة لا يعرفون إلا المراوغة، كي يوقع بالزبون، فالنفوس التي ألفت تراكم الأعداد، والأرقام النقدية، وأزمن فيها سلوك الربح والخسارة، تقتات بفعل التجريب بوادر الشك بكل أسهمه. وتتفاعل مع أشد الجوانب غموضا، لاتقاء أي طارئ مهما كان دقيقا، وبسيطا، حرصا منها على عدم السقوط في إسفنج التهور الذي يمتص كل مغفل".

ابتعد الفتى مشمئزا عن المكان، وحاول استرجاع نشوة فقدها مع صوت هذا البائع، لكن تأثير المكان والزمان كان قد لاشاها، فتذكر الأحداث مرتبطا بإيحاءات اللحظة الزمنكانية.

سار الولد اعتباطيا، يوزع نظراته تارة في ملامح الوجوه، وطورا في ألوان الأقمشة، وما يجذبه من أنيق البضائع، حتى وجد

نفسه ملقى على كومة من الملابس القديمة، بعد أن صدمه أحدهم بكتفه.

وقف من سقوطه، ليرى ما حصل، فراح يميل برأسه يمينا، ويسارا، متابعا حركة اندفاع الناس فتبين له أن هناك من يجري مسرعا بين المارة، وقد تعالى اللغط في السوق، وازدادت عوامل إثارة الصبي وتحفيزه للبحث عن مزيد، ليعلم ما يحصل، فالرؤوس تتطاول، والألسن تجتهد، لذا اندفع جاريا بضع خطوات، ليقترب من موقع الحدث، فإذ بالناس يتراجعون للوراء، وسدت ممرات السوق، واندس حنين بين الواقفين، بعد أن حشر رأسه، ليرى فسحة خلت من الناس إلا من اثنين، أحدهما شاب يافع الملامح، تتهدم جمالية تقاطيع وجهه، وتتفتت رعبا وهلعا مع تغير ردود أفعاله أمام الآخر الذي كان ضخم البنية، أسمر البشرة، يلف حول عنقه شالا أسود، وفي يمينه قنينة زجاج فارغة، يتحين الفرصة، ليضرب بها خصمه الذي يتمسك بآخر خيوط الشجاعة، إلا أنه ومما لا شك فيه، كان يعب من نهر من الخوف دون ارتواء، واستغرب الصغير عزوف الجميع عن التدخل للتهدئة، لا بل إن الصمت الذي اكتنف المكان قد زاد المشهد قسوة ورعبا، وسمح للهاث الخصمين بإسماع أدق التفاصيل، رغم اختلاف دوافعه في كل منهما، وجحظت عينا المتسلح بالقنينة، وومضت في عيني الآخر رغبة الاستنجاد والتوسل، والاستغاثة، إلا أن خوفه كتم صوته، ومنعه تخاذل رأفة المشاهدين، وحقد خصمه من البكاء، حتى صفع أذهان الجميع طرق المهاجم أسفل القنينة ببلاط السوق، فتشظى قعرها، وبقية فوهتها، وما نتأ عنها في قبضته الضخمة، والتي هي في الأصل ليست بحاجة للقنينة لتحطيم الشاب المحطم رعبا، والذي تراجع، وقد بدأت أوداجه ترتجف، ونظره يتراقص بين اليد المصرة على طعنه، وبين الوجوه التي يبحث فيها عن منقذ، حتى اصطدم بظهره بمدخل حانوت مغلق، وتلمست يده المكان بحثا عن شيء تستند إليه أو يدافع فيه عن نفسه، ولكن قبل أن يتسنى له التقاط قطعة الحديد التي

لمحها عند أسفل الباب، انهالت عليه يد الخصم بطعنات في صدره، جعلت الدم ينفر، وقد نفر لتطايره الحمام في سقف السوق، والناس المجتمعين بضع خطوات إلى الخلف، وكتم الشاب صراخه، وأنينه، ما زاد من حنق القاتل، فراح يكيله الطعنة تلوى الأخرى، وهو يعض على شفته السفلى، والعرق يتصبب منه، حتى سقط الشاب أرضا، وتناثرت قطرات الدم في المكان وعلى وجه المهاجم وثيابه، حتى بلغ بعض قطراتها وجوه الواقفين، وثيابهم، وأحذيتهم، وأنهر الدم فوق أرض السوق، وتسلل بين حواف البلاط، وارتسمت على وجه الجاني ابتسامة النشوة بالانتصار، وزينت له نصره الأبصار المفجوعة بما جرى، فاستدار، والدم يقطر من كفه، ومن أطراف نتوءات الزجاجة، وبدأ يزمجر مهاجما الناس، وهم يفرون منه مرعوبين مولولين، حتى خرج من بينهم، وانطلق راكضا، وظل يفعل إلى أن اختفى، دون أن يطارده، أو يستوقفه للسؤال أحد.

اقترب الناس بحذر من الجثة المتكورة عند أسفل المكان، وتقدم الصغير مرتعدا، ليلمح عينين في أشد حالات انفتاحهما، ونظرة ثابتة كأنها محفورة في عين من حجر، وفما تعلوه ابتسامة صفراء، كأنها تسخر من كل من ينظر إليه، وثقوبا في صدره، ترتفع فوقها فقاعات دموية شفافة ويدا نشبت أظفارها بين حافات الحجارة التي رصفت بها أرض السوق، وساقين تخلتا عن السير بين أرجل تحمل أجسادا بأفواه ستلوك قصته طويلا.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها الصغير شرحا واقعيا وافيا لحالة سبق أن علل له جده أسبابها، حين كان ينام في حضنه، فقد سمع ضربات قلبه المنتظمة، ولما سأله عنها، أجابه "أنها ضربات القلب الذي يحبك، واعلم أنها عندما تتوقف، يتوقف الحب مع توقفها في هذا الجسد".

أحس برغبة الصراخ، لا بل بالبكاء، وأشد منها لدرجة الجنون، أو التصرف بشكل جنوني وعنيف، عله ينفس غضبه، وتوتره

الحادين، لكن جل ما قام به، أنه أطلق العنان لقدميه وانطلق جاريا في الطريق التي قدم منها، كان يركض هاربا، غير عابئ باتجاه هروبه، كل ما يعنيه هو عدم التوقف، والاستمرار في الجري بين تدافع الناس، والقفز فوق أغراض الباعة التي ما عاد يهتم لتفحصها، أو النظر فيها، ويجب عليه الاستمرار في الجري، لماذا؟ لأن رغبة جشعة تدفعه لذلك بغية التخلص من التوتر المرير الذي يعجز عن استيعابه كل البكاء، والصراخ، والشتم، والتصرف بعنف، لا بل كلها مجتمعة لن تجديه نفعا، وظل يجري، وقطع الشارع العريض، الذي يفصل الأزقة والأسواق التجارية، التي يقصدها سكان جنوب المدينة، وواصل جريه في الأزقة التي تعدى الشارع العريض إليها، حيث ظل يقفز من فوق بعض أوعية الناس المنتشرين على جنباتها، ومن فوق الأطفال أحيانا ومسالك المياه، وبقع المستنقعات التي توزع حولها الصغار لاهين، وهو لا يعلم إن كان يسلك الاتجاه الصحيح الذي يريده أم لا، إلا أنه واصل ركضه، وعبر مدخل الزقاق المؤدي إلى بيت رجوة، دون أن يلتفت نحو دارها، وقطع الطريق العريض الفاصل بناء المدرسة عن أزقة المدينة، وظل يركض لاهثا، حتى وصل مدخل الطريق المؤدي إلى دار جده أبي سهيل هناك جنوب شرقي المدينة.

قاسية جدا تجربة الانتماء لآلام الآخرين، ورغم ندرة الذين يمرون بها، إلا أن لهذا الصغير نصيب منها.

توقف عند شجرة الياسمين على يمين الشارع، وتناقلت وداعة امتداد أغصانها شحوب نظراته المتخمة، ثم استدار بسرعة، ونظر خلفه، حيث لا زالت تتشظى في أذنيه زجاجات القنينة، ويتطاير مع لهاثه القلق لهاث الجثة التي لن تزول من ذاكرته مهما عاش من أهوال بعد هذا اليوم، رفع بصره إلى السماء، ثم نظر إلى امتداد الطريق، وخطا مواصلا مسيره نحو المنزل، فيما وفاؤه للتذكر يعيد رسم ما جرى في مخيلته، حتى انفجر في بكاء حاد، وشعر بأنه لا

يبكي تطهرا كما كان يحل معه سابقا، بل يبكي نتيجة خوفه، وارتقائه إلى مستوى الكره الحقيقي، إنه حقا يشعر برغبة الكره، رغم عدم قدرته على تحديد اتجاهها، لكنها واضحة المعالم، واسعة التعابير، وسالت دموعه من عينين حديثتي العهد بهذه المشاهدات، وتدحرجت فوق خدين رقيقي الحمرة، وسال أنفه، ودنا خليطهما من شفتيه، وأحس بملوحته، فمد يده إلى أحد الأغصان، واقتطع ورقة، ومسح بها أنفه، واستمر يجهش بالبكاء.

أحلام الصغار، وآلام الكبار، وآهات العاشقين، ونظرات الشبقي، وحسرات المحتاج، وقلق المنتظر، كلها أراجيف إذلال، واستفزاز لأصحابها غداة تفشي تفاصيلها في الجسد، فما أن دخل الفتى المنزل، حتى انهالت عليه الاستفسارات، والأسئلة، وبعد أن لمحت أمه احمرار عينيه، استشفت ضبابية ملامحه، وسوء حالته. نهضت الجدة نعمت من مجلسها أمام الباب، وجاءت بإيقاع ثلاثة أرباع، تتكئ على عكازها مرددة:

- تجدينه تشاجر مع أحدهم، وضربه الآخر حتى أبكاه.

أدار حنين رأسه مشمئزا من هذرفة هذه العجوز، دون أن يتلفظ بحرف، ما أغاض أمه التي راحت تلح بسؤالها:

- ما الأمر أخبرني أضربك أحد أم وقعت؟ أم تراك تشكو من شيء؟ مم تشكو؟ أخبرني، أرجوك.

ولفحت وجهه أنفاس أمه المحترقة لهفة عليه، وكل رجائها أن تعرف ما سبب حزنه، فابتسم لها، وظل في صمته مبتسما، ما هدأ روعها، ولم يرح بالها، فنهضت متوترة وهي تقول:

- سأحكي لجدك، وهو يعرف كيف يحل عقدة لسانك.

ولم يكن حال أمه يعني الكثير له، فهو لا يزال ينزف قشعريرة مما رآه. وتقدمت منه الجدة متمتمة تهديداتها، وهي تقول - وقد عضت على شفتها السفلى غيضا - :

- دلع سخيف. علموك الدلع، وقلة الأخلاق.

ثم وكزته برأس عصاها في كتفه، لكنه ظل واقفا ينظر إليها بهدوء، فلقد تعلم أن يتحمل إحساسه العدواني في عديد من المواقف، خاصة المواقف المشحونة بالحنان، والعطف من جده أو أمه إليه فهي رغم تقدم سنها تغار، لأنها عبرت كل تلك السنين وحيدة، شبه معزولة، تنأى الطمأنينة عنها نأي النور عن طه.

عادت سمية يتبعها أبو سهيل، ووقفت أمام حنين وقالت:

- جدك سيعرف كيف يجبرك على الكلام.

واقترب الجد من حفيده، وحضنه، ومر بكفه الكبيرة الخشنة فوق خده الناعم، فتسللت أنفه راحة التبغ المعششة بين ثنايا جلد أصابعه، وأحست لسعة الدف المحببة إليه، لذا غارت عيناه بالدموع، فجثا الجد أمامه، ونظر إلى وجهه بإشفاق، فلقد ورث هذا الصغير عنه عادة النفور في بعض الأحيان، لذا سأله عن ناصر، وإن كان قد أصابه مكروه؟ فهز الصغير رأسه بالنفي، ثم ارتمى فوق صدر جده، وأجهش البكاء.

ظل الجميع يرتقبون بصمت، وصبر، أن يرتاح الابن، حتى يتمكن من الحديث، وتجلت في مخيلة الجد صورة ولده حنين، عم هذا الحفيد، والذي لا زالت اللوعة تتفاقم جراء حرمانه من رؤيته قبل موته في السجن، وراح يتذكر، ويقارب الأحاسيس، ويجري مقارنة هذا بذاك، فالحس المرهف، والروح الرقيقة، فكأن لا فرق بين من يحتضنه الآن ومن كان يحتضنه بالأمس، لذا ضمه إليه

بشدة، وانحدرت بين جفنيه المعتمين دمعة، ألف استقرارها فوق شاربه الكث.

وقف أبو سهيل، وقد أمسك يد حفيده، وقاده إلى جانبه، وقصدا الحائط المواجه لأشعة الشمس، للجلوس هناك، فلقد علمته الأيام كيف ينزع التوتر بحكمة.

جلس هادئا، يعب من سيجارته ما يرويه، ويحفر بعود يابس وجه التراب، دون أن يتوجه إلى حفيده بسؤال، رغبة منه في اختبار إرادة الصبي على تحمل المشاق، إلا أنه عدل عن رغبته لأنه لم يعلم حتى هذه اللحظة سبب توتره.

فرك شعره الأشقر، وأسنده فوق ذراعه، المسند إلى ركبتيه في قرفصائه، وسأله:

- أترغب التحدث؟

وهز الصبي رأسه موافقا ، فجدد العجوز هدوءه ليفهم كل كلمة يسمعها، كانت سمية تقف خلف الزاوية، وتتنفس خلسة، محاولة استراق السمع، ورفع حنين راسه وسأل جده:

- لِمَ لمْ تحدثني عن كل شيء؟ لقد تركتني اليوم أرى أبشع ما يمكن أن يراه صغير مثلي.

اعترت الدهشة الجد، ولكنه التزم الهدوء وعدم المقاطعة، وراح الصغير يروي ما رآه، حتى انتهى به الأمر لاستعادة كل ما حصل في مخيلته، وأجهش بالبكاء.

ظل أبو سهيل وديعا، يلف سيجارة تبغه التي يشتهيها، كلما أراد تقييم يوميات بني جنسه، ثم أشعلها، ومج منها ما يكفي لتلويث رئة المدينة بكاملها، وزفر ما سحبه كما لو أنه ينتهي من غوص مجهد في أعماق بحر معاناتهم هذه، بحثا عن شعاب لا تقل خطورة

التعامل معها عن خطورة اقتراف آثام الأحلام، والأوهام عند فقراء المقاعد الحجرية، على أرصفة أزقة مدينة القلق الدائم، ثم هز رأسه، ومسد شاربيه، وبدأ حديثه:

ـ كنت صغيرا، في يوم كان منذ زمن بعيد، ولا زلت أذكر أن أكبر أحلامي كان الخروج إلى ما وراء حدود هذه المدينة. وكنت ألاحظ وبسأم الخروج عن أبعاد حدود جسدي يوما بعد يوم، وظننت أن بهذا الخروج سأكون حيث أحلم، إلى أن اكتشفت ذات يوم أني لا أتفق مع أخي، وأخي لا يتفق معي، إلا أننا لم نفترق، وإن تباعدنا، وتعلمت من هذا الكثير. تعلمت منه أن كل شيء ممكن في هذه التجربة التي سترافقني إلى أن أختفي كليا. الغضب الذي يحطم الحكمة، والصمت الذي يهشم الحكماء، ويحمي الضعفاء، والفضول الذي يهلك الشجاعة، والحقد الذي يذل الحياء، والكره الذي يخنق الأماني، والصدفة التي تغير المقاصد، والنسيان الذي يجامل الأحاسيس، والطمأنينة التي تسمن الغرائز، والحرمان الذي يقتات صاحبه، والتخمة التي تقتل الفرص، واللا شيء الذي ينبت الشك، والحب الذي يدمن الإساءة. كان حلمي يومها القراءة والتعلم، إلا أنه كان جوعا خانقا سببه قحط مزمن، لذا لم أقرأ، ولم أتعلم إلا ما ستتعلمه، وربما بالأسماء نفسها، أو غيرها، المهم أن النتيجة واحدة. النقيض لرأس القمة قعر الوادي، والوصول إلى كلا المكانين مجهد، ولا يقل جهده عن الجهد المبذول لبلوغ الآخر، فالعيش سواء كان قلقا وحرمانا، أم طمأنينة وتخمة، كلاهما واحد، والشهيق والزفير وانتظام عمل القلب جميعها نتيجة واحدة، حتى تناقض الألوان لا يجدي التفكير فيه، فالأبيض، والأسود، ما كانا ليكونا غير ذلك. ثق لا حاجة بك لأن تعرف كل شيء، لأن كل ما هو عليه هو عليه، فلا شيء غريب قبل الموت، أما بعده، فتلك محنة كل منا على انفراد، وأنا أحاول الهروب من التفكير فيها، لأنها تجهدني، وتجعلني أشعر بالتخلف، فأنا لا أرى ضيرا في أن الحيوان لا يعرف أكثر من غريزة الخوف، وإني أحسده لكونه لا يفكر، ولا يجهد نفسه بالحذر،

إلا في اللحظة الضرورية، والحقيقية، على عكسنا نحن بني البشر، فلقد بالغنا في الحذر حتى لامس قبورنا.

وسكت عن الكلام، فقد سيطر عليه السعال، وفاض الدمع من عينيه، واستملكت الحفيد حالة من الاستغراب بعد ما سمعه من جده، فهذه أول مرة يتحدثان فيها بمثل هذه الصيغة، وكاد للحظة يظنه ناصر، لا جده.

مسح أبو سهيل حافتي فمه، ومقلتيه، والتفت إلى حنين، وقال:

- ليس كل ما أكرهه بعيدا عني، ولا كل ما أحبه قريبا مني، بل إني أكاد لا أفعل إلا ما أكره فبعض الكره يمكن تقبله، وبعضه لا يمكن تخيله، والنتيجة واحدة ألا وهي الخسارة، والقتل واحد من أقسى درجات الخسارة التي ينتجها الكره، لكن يا ولدي، القتل الذي شاهدته اليوم هو أرحم حالات الكره خسارة.

وتعجب الفتى من عبارات جده. لذا نظر إليه وقد رفع حاجبيه، فاختفيا بحركته هذه تحت خصلة الشعر التي لم تزعج سكونها يده بعد. وابتسم له جده، ثم تناول علبة تبغه، وفتحها وهو يقول:

- إننا نعيش تجارب القتل آلاف المرات في اللحظة الواحدة.

ولف سيجارته وجدلها، ثم دلكها، ثم قرض أطراف ورقة التبغ، وبللها، ولصقا، وأكمل:

- فكرة الفكرة نفسها هي من الخيال، وما من شيء سواء لمسناه أم تكهناه، إلا وله في الخيال أصل، الله تعالى نعرفه بخيالنا، ونحن ناس يقتل الخيال فينا كل لحظة ألف مرة، ويكاد يقتل فينا وجود الله. ألم نقتل على مذبح الظروف أكثر من مرة، ومثلها على مذبح الغرائز، وأمثالها على مذبح التناقضات؟ لشد ما كنت في صغري أقتل قرفا من مماطلة أمي معي إن طلبت منها شيئا، وكنت معروفا

بمقتي للانتظار، وبقلة صبري. وها هي كل يومياتي الآن أحياها تحت ثقل الانتظار، والصبر، أو تظن أن خسارتي اليومية أقل بكثير من خسارة الشخص الذي شاهدته اليوم؟

أشعل سيجارته التي انطفأت، ومص منها ما يشتهي وأكمل:

عموما أريدك أن تعلم أن الأحلام كالملابس التي أشتريها لك، يجب عليك أن تلبسها، وإن أجلت ذلك فقد تضيق بك، أو تتسع عليك، أو يبطل طرازها، وبكل حال منها تصبح بلا جدوى.

وقاطعه حننين سائلا:

- وهل الأحلام تشترى كالملابس؟

وتنبه الجد لحدة ذكاء حفيده، فقال:

- الثمن هو البذل الذي نبذله للحصول على ما نريد، ولا يهم نوعه، المهم أن الاختيار قائم، ثم إن أجل الأحلام يشترى. وأثمانها حسب أحجامها، حقا إن أثمانها بأحجامها، وكلما كبر الحلم كلما زاد ثمنه.

نهض أبو سهيل من مجلسه وهو يقول:

- تكلمت اليوم كثيرا، وهذا لا يليق بسنك، فالوعاء بما فيه، ولا أريدك أن تنضج قبل أوانك أو بسرعة، هيا لنتناول شيئا من طعام أمك.

قفزت سمية من مجلسها عندما سمعت قدومهما، ودخلت البيت بسرعة، وبصعوبة تجاوزت تكور الجدة نعمت أمام الباب، وقد اطمأن قلبها.

* * *

كذبت موسوعة التخمين، حين اعتقدت بجدوى الادخار، فالتوقف قائم في كافة الحركات، ولكل الخطوط نهاية، وإن عاداني إقليدس، ونعتني بالغباء، فلو أنه اكتشف خطا واحدا بلا نهاية لتبعه لينجو. إنما فضائل الجهل تصديق كل شيء، وتكذيب كل شيء، ومن رذائل العلم إلحاحه الذي يؤرق التوقعات.

هذا ما كان يكتبه ابن زلفة الذي جلس مدة من الوقت أمام باب المدرسة، ينتظر عله يرى أحدا من الصغار، ولكن دون جدوى، ومر به راشد حاجب المدرسة، فوقف أمامه مبتسما، وقال:

- أظنك لا زلت تتألم منذ تلك المرة، لذا توقفت هنا لتتذكر.

نظر ابن زلفة صامتا، وهو يثبت عينيه في عيني راشد، المعتمر قبعة ملونة، يطغى عليها اللون الأزرق، ويلبس سترة خاكية اللون كانت لعسكري ذات يوم، وقد تقطع بعض أزرارها النحاسية، ولا زالت آثار إحدى جيوبها الممزقة بادية فيها، وسروالا حشر طرفي ساقيه داخل جزمة، يمتد عنقها إلى ما فوق ركبتيه، لذا صار بداخلها كرجل آلي، ثم هز رأسه وقال:

- لو أني شككت في فهمك لما سأقول لقلت، ولكني أثق كل الثقة بأنك لن تفهم مني مهما بسطت كلامي؟

وأحس راشد بالحنق والاستفزاز في حديث ابن زلفة فرد بغضب:

- تكلم إن كنت رجلا؟

ونظر إلي ساقه اليمنى ذات القصر الواضح فيها عن رفيقتها اليسرى، وقال:

- ألا ترى حكمة الطبيعة فيك؟ فقد بخلت عليك بكمال الجسد، كي لا يسبق غباؤك أمانيك، ولتظل أمنيتك الوحيدة لو أن يمناك كيسراك.

وانصرف مرددا:

- أظن أن السماء ستمطر بغزارة اليوم.

شتمه راشد، وحاول إصابته ببصقة قذفها خلفه، وتحامل على نفسه وسار خلفه عدة خطوات، وهو يسب ويشتم، ثم عاد ليشعر بالحنين لقرفه، ومقته فرصته السخيفة، كما كان يقول عنها دائما، فتألق شجنه المزمن على محياه، وعبر عنه بانطلاقة المختال، ومضى في اتجاه المدينة.

سلك ابن زلفة الدرب المؤدية إلى دار حنين، وخلّف راشد خلفه يدخل أزقة المدينة، مفكرا في ما قاله لراشد، باحثا عن تبرير لنفسه أمام نفسه، فقد اقترف قذارة، ألغت كل حكمته، لكنه توصل إلى مقولة:

- لا بد أن ينظر المرء إلى المرآة كل صباح، وكل مساء.

من يرى ابن زلفة وهو مسرع الخطى من بعيد، يظن أنه قد تلبسته حمى الإبداع، توقف إلى جانب كومة حجارة للتبول، وأحس أثناءها برعشة تسري في جسده، فتبسم متخيلا إلهه يتبول ساعة نزول المطر، وأن الغيوم قطع ملابسه، واعتذر من حيائه، وتراجع عن تخيلاته، وأخذ يبصق لاعنا شيطانه، الذي سول له مثل هذه التخيلات. ثم انطلق في دربه، حتى قارب أن يقطع نصف المسافة، فتملكه إحساس عفوي، وفاجأته رغباته، فقرر العودة من حيث أتى، واستدار للتنفيذ، إلا أنه تذكر أنه لا بد من دعوة حنين إلى حلقة الغد في منزل أبي مازن.

كانت دار أبي سهيل موصدة الباب عند وصوله، فنظر إلى فوهة المدخنة فوق سطح البيت، قبل أن يبدأ بالتخمين، فرأى الدخان يتصاعد منها، ويلتحم بأذيال الغيوم، التي تبدو كقطعان أغنام

ترعى جنوبي سماء المدينة، فنظر إلى السحب مليا، وتأمل بهدوء شفافية بعضها، والتفاف بعضها الآخر، وتخيل كيف ينتحل الماء أربعة أشكال مختلفة، وصفق بكفيه، حين استحضرت ذاكرته كلمة ينتحل، وقهقه عاليا، مما دفع سمية لفتح الباب، فما أن لمحته، حتى تمنت طرده، ولكن قدوم أبي سهيل، حافي القدمين، وترحيبه فوت عليها فرصتها بذلك.

- تفضل يا رجل. أين كنت طوال المدة الماضية، لقد افتقدناك.

دخل ابن زلفة، وهو لا يزال مفرطا في الضحك، وعبر الباب، واستدار إلى الحائط، ثم أسند رأسه إليه، وظل كتفاه يهتزان جراء كتمه ضحكه، حتى أخذ يهدأ شيئا فشيئا. نظر حوله، فرأى الجميع مستغربين حاله، ثم نظر إلى حنين وقال:

- السلام عليكم. عذرا – ودون أن يفسح مجالا للرد – كنت أضحك لأني تخيلت أن المراوغة موجودة في شتى الكائنات، ثم ضحك وأكمل: وتخيلت أن الماء ينتحل شخصية الغيوم ليعبر خلسة حدود الدول، دون مراقبة.

وعاد للاستهتار والضحك، فيما عائلة أبي سهيل ترتاب من تصرفاته، والجدة نعمت تتمتم وتشتم لاعنة، وتنعته بالجنون، وتعلن أنها لم ترتح إليه أبدا، ثم تتظاهر بانشغالها في التفتيش داخل كيسها، فتخرج منه ما فيه، وتعيده، وتكرر ذلك دون إرادة.

توقف ناصر عن ضحكه، وحدق مراقبا سلوك هذه العجوز، وعلق أبو سهيل على كلامه:

- عذرا، أنا لست ملحدا، ولكن أفكر أحيانا بطريقة مجردة من الإيمان، لأسباب أجهلها في الغالب. ألن تجلس؟ كنت أقول أننا افتقدناك.

وسار ناصر أمامه، والتفت أبو سهيل إلى سمية وطلب منها أن تصنع لهم الشاي. ونظر على حفيده، وغمزه بعينه، ثم عض على شفته السفلى، كحركة ودية تعبيرا منه عن رغبته أن يرافق الصغير ضيفه.

جلس الثلاثة حول المدفأة، وصادفت جلسة ناصر أمام فتحة إدخال الحطب التي غصت به، فتركت مشرعة، وراح يتوغل بنظراته مطاردا التفاف اللهب، واشتقاقات ألوانه، محاولا إيجاد تفسير لتغلب اللون البرتقالي على سواه في النار.

نظر الجد إلى حفيده مبتسما، ليخفف من شدة شعوره بالإحراج، فحاول الصغير الترحيب بناصر، أثناء دخول الجدة لتنظم إليهم:

- كيف حالك؟ أين كنت طوال ما مضى من وقت؟

حك ناصر جبينه، وأنزل الكتب التي تحت إبطه، ووضعها بجانبه، ثم التفت إلى حنين، وقال:

- أمضيتها أعالج الكدمات التي حصلت عليها جراء ما تعرضت له ذاك اليوم.

ورفع أبو سهيل حاجبيه الكثيفين مستغربا، واستفسر عما تعرض له، فأخبره القصة بكاملها، فرثى لحال الناس وحاله، وتأثر بما سمع. ثم انتقل ناصر للحديث إلى حنين، واستهل ذلك بإخباره عن حال رجوة في سوق الخضار، وأنها تركت المدرسة، فتنهد الجد متأسفا لحال الفتاة، وعاد ليرد على الجدة التي أصرت أن تعرف أسباب مجيئه؟ ثم عاد ليصغي إلى أحاديث الرجل الغريب الأطوار مع حفيده، فأعجبه إصغاء وانتباه الصغير له، وتنظير الأول الذي يصعب فهم مقاصده لكثرة استرساله في الكلام، وأكمل ناصر:

- لقد مررت بجميع الصغار، ودعوتهم للحضور إلى منزل أبي مازن غدا، حيث لدينا حلقة، ستعرفون محورها غدا، ومن بعدها سيتوجه الجميع إلى بيت عماد للاطمئنان على حاله وحال رجوة.

ثم سأل حنين إن كان سيأتي؟ فتلكأ الصغير بالإجابة، إلا أن الجد قاطعه:

- سأحضر معه في الغد.

ورحب ناصر بذلك مبديا حماسه وفرحه، ثم دخلت سمية، تحمل يدها إبريق الشاي وصينية الأكواب، ثم ركعت، وأخذت تصب الشاي، وتسمع بحذر ما يجري من أحاديث.

وما أن غادر، حتى أعلنت امتعاضها من حضوره، فهي أضعف من أن تحتمل اختراق جدار طمأنينتها، خاصة وأنها تشعر بوهن مؤسستها الزوجية، كما لو أنها بيت عنكبوت، فأعلنت محاولة إظهار الاحترام لحميها أثناء تحدثها بلهجة تظهر ذلك:

- ما لهذا المتشرد، وما لنا؟

نظر الجد إليها هادئا ساكنا، مما استفزها، فقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- عماه. أنا أم، ولا أملك سواه في هذه الدنيا، وأنت تعرف هم الأبناء، وبلادنا فوق كف عفريت، وغصت بالبكاء، وأكملت:

- إن صورة عمه حنين لا زالت في ذهني، وهو يسير مهموما، حزينا.

وكقصف الرعود المباغت في ليلة كانونية لا يعكر صفوها سوى هرهرة قطط، وعسيس النار في المواقد، زلزلت كلماتها كيانه، ورشت الملح على جروح حنينه، فاحمومرت عيناه من الحزن،

والتفت إلى الصورة في الجدار، وهز رأسه متمنيا، استرجاع الماضي، والتخلص من الذكريات، إلا أن ذكريات ولده تداخلت، وامتزجت بذاكرته مع مرور الوقت، وتحولت إلى إحساس مبهم الدوافع، فلا الفرح، ولا الحزن العتيق، ولا اليأس، ولا التذكر يحدده، والتفت إلى سمية وقال:

لا ألومك. إنما الحياة تفرض علينا ترويضه، وتدريبه، وإعداده، ولا أظنك تعتقدين، ببقائه طفلا طوال الحياة، أو أنه سيظل حيا ولا يموت، ثم إنه ابن هذه الدورات المتتالية لحركة الزمن، والوقت، وما سيحدث له لن يمنعه عنه إلا قدره. وسواء أمضى المرء عمره داخل صندوق آمن، أو في سوح القتال، فالنتائج واحدة، لأن المكتوب واحد ألا وهو الموت. لذا فلنحاول، علنا نصادف ما يسعده بعدنا، وإذا تعرضنا لخسارة قد تؤلمه، فما هي إلا فرصة لإكسابه مناعة التهيؤ لمواجهة المجهول.

احتست سمية بعض الشاي، والدمع ينطق بما تسكت عنه شفتاها، وحنين ينظر إليها، وجده فرح بأول تفاهم يدرك فحواه مع هذه الأم الحنون.

* * *

حين وصل راجي من عمله، وجد الجميع يتحلقون حول الموقد صامتين، وفي أجوافهم ترادفات شتى، تنتشر على حبل التوتر المشدود إلى الشعور بالرهبة، والخوف من مساء الغد من جهة، وإلى ذكريات مؤلمة، قد تتكرر في هذا الصغير، وأمنية تبدل الحال بأحسن منه.

خلع جزمته، وعلق سترته التائه لونها بين مزيج الألوان المدبوغة فوقها جراء العمل، وأسدل فوقها شاله الرمادي المرقط بنقط سوداء، ووقف ينظر إلى سمية التي تحضر له الماء ليغسل قدميه.

وكعادتها الجدة نعمت لا تستطيع أن تكف عن الثرثرة، والتي غالبا ما سببت أذية للجميع، فما أن جلس بجانب المدفأة، ليتناول طعامه، حتى قالت له - متأتة كعجلة تكسرت مثبتاتها، فراحت تترنح في دورانها - :

- لقد جاء اليوم إلى هنا ذاك المعتوه لزيارة ابنك.

كانت يد راجي ترتفع باللقمة إلى فمه عندما سمعها، فتوقف فكاه عن التهامها، وأحس بالاستفزاز، إلا أنه ضبط أعصابه، وراح يمضغها بتوتر، وسأل ابنه:

- من الذي أتى لزيارتنا اليوم؟ هل عاد ذلك المجنون ليزعجنا؟

نظر أبو سهيل إلى الجدة، ومط شفته السفلة امتعاظا، ورمق بطرفه سمية التي كانت تفرك كفيها قلقا، ثم قال لراجي:

- نعم مر اليوم مسلّما.

- ومن سمح له بدخول المنزل، ومن دعاه؟

- أنا رأيته في المدينة، فجئت به معي.

وظل أبو سهيل هادئا في رده وحواره لابنه، فتدخلت الجدة مباشرة، وقد شدت الخيط الذي يربط كيس حاجياتها:

- لا بل جاء من نفسه، وأنت كنت هنا.

موجهة كلامها إلى أبي سهيل، الذي كاد ينفجر حنقا من هذه العجوز الثرثارة، وما منعه من الصراخ في وجهها إلا عمره، ومكانته في البيت، وحالته، ووصية زوجته له بأن يتحمل أخطاءها، إلا أن كل هذه الأمور لم تمنعه من التحديق بها راغبا أن تثقب نظراته عينيها، وتطفئ نورهما، لشدة شعوره بوقاحة تصرفها، فأشاحت بوجهها. ورد الابن في وجه أبيه:

أتدافع عنه؟ ما الذي يزينه في نظرك؟

وجاء جواب الأب هادئا:

لم أر منه إلا كل خير.

الأمر الذي زاد في توتر راجي، فاحتقنت حنجرته بالكلمات، فصاح بأعلى صوته:

لا أريد أن يدخل هذه الملعون بيتي؟

ما اضطر والده للرد عليه بشيء من الحزم، لذا استوى على ركبتيه راكعا، وقال:

حين يكون هذا بيتك حدد قائمة بأسماء المرغوب فيهم، وغير المرغوب فيهم. فما دمت أنا رب هذا البيت، ورب من فيه، لن يغلق بابه في وجه أي كان.

ولكن غوغائية التفكير في رأس الابن حملته على رد أعنف بقوله:

أتطردني من البيت لأجل لوطي.

فابتسم الأب ساخرا، فيما ظل راجي يكمل كلامه:

نعم إنه لوطي، وكل المدينة تعرف ذلك وهو يبحث عن علاقات مع الأطفال لهذا السبب.

ثم التفت إلى ابنه وصاح فيه، مما فاجأه:

اذهب إلى هذا اللوطي كي يثقب مؤخرتك، وعد بها إلى جدك مرفوع الرأس.

واستغرب الابن حدة الكلام التي تملكت أباه، وجعلته يقول ما يسمع. واندهشت سمية من حال زوجها، خاصة أنها المرة الأولى التي يتصرف فيها بهذه الطريقة أمام أبيه، وظل الجميع صامتين، وظل هو يحكي، كيف حضر إليه الرجل الذي اعتاد عماله توريد الفحم إلى محله في ما مضى، وأنه جاء خصيصا هذه المرة ليطلعه على حقيقة ناصر، وليس من أجل الفحم، وأنه رجل خطير على الأطفال، وهناك الكثير من القصص حول اصطحابه للأطفال إلى أماكن نائية لغرضه القذر.

ثم سكت عن الكلام، وفي نفسه رغبة البكاء، إلا أنه كظم غيظه، واستمر بتناول طعامه.

تناول أبو سهيل علبة التبغ، وأخذ يمارس متعته العتيقة، وهو يسأل محاولا التأكد من صحة ما رواه ابنه، ولم ينكر الصغير أنه رافقه ومجموعة من الأطفال إلى المستنقع، ثم حكى لهم زيارتهم لمغارة التوتيان برفقة ناصر، وذكر لهم خطط لزيارات عدة، ولكنه أظهر عدم فهمه لمعنى كلمة لوطي. حتى شرحه له جده، فأحس عندها بشيء من الدناءة، والحقد، وقال لأبيه:

- ما ظننت تكن إليه مثل هذا الحقد، وهو يعلمني أكثر مما تعلمني أنت وجدي والمدرسة.

وانطلق لسان راجي في وصف ناصر، وبالغ في تصور خطورة سلوكه البعيد كل البعد عما يزعم.

وصمت حنين، وأطرق الجد مفكرا، وقد ساوره الشك، وفرض عليه حب التيقن، لذا حاول طمأنة ابنه قائلا:

- ربما كذبوا عليك لغرض ما، عموما سأكتشف الحقيقة بنفسي.

* * *

للصغار أحيانا حماقات لا تقل عن شجاعة قادة الحروب. كان بعضهم قد بدأ الوصول إلى المكان المتفق عليه مع ناصر، لكن أبا سهيل تعمد التأخر عن الموعد لغرض في نفسه، وعندما وصل وحفيده كان ناصر ينتظر في الباب، فتقدم منهما مصافحا، ومرحبا، غير منتبه لدقة المراقبة في عيني أبي سهيل، الذي بات يخالجه الكثير من الظن حوله، فهو سيتفحص كل إشارة، وكل حركة تصدر عنه، ليحصل ولو على دليل صغير، يثبت صحة ما قيل عنه، سار أمامهما، وطلب منهما اللحاق به، فتوغل الجميع عبر ممر ضيق، ثم انحرفوا نزولا فوق درج خشبي، فراحت الظلمة تطبق عليهم تدريجيا، ثم تجاوزوا باحة صغيرة، تنتهي بدرجتين، نزلا الدرجتين، ودخلا بابا يضطر عابره للانحناء، كأنه يلقي التحية على القيصر، فارتطم رأس أبي سهيل، ودخل وهو يشتم ويسب.

أضيء المكان بالشموع، التي غرست كل منها في علبة معدنية مليئة بالشموع، فبدا المشهد كأنه طقس عبادة لم يألفوها من قبل. وجلس الصغار على شكل مثلث، قاعدته عند الباب، ورأسه إلى الداخل خلا من مكان يتسع لشخص واحد فقط. وخارج المثلث جلست امرأة خلف طفلتها، التي بدت بعمر حفيده حنين.

قاد ناصر حنين إلى مكانه، وجلس الجد بجانبه خارج المثلث، ثم دخل أبو مازن، وأغلق الباب، بعد أن اكتمل الجلوس، وبدأ الشك يشاغل أبا سهيل، ويقول في نفسه: "الأمر أخطر بكثير مما عرفت يا راجي".

سعل ناصر، واعتدل في جلوسه، الذي بدا كأنه إحدى جلسات اليوغا، ثم أخذ نفسا عميقا، وراح يتفحص الوجوه بوداعة بهدف استقطاب تركيزهم الكامل، ثم بدأ الكلام:

الجنون، والعقل، متناقضان. وكلاهما يتهم الآخر بالشذوذ، وليس الحال مجرد حقيقة، و إنما واقع مزمن، لذا نحن هنا اليوم.

وبدأ يعرف الحضور بنفسه، وطلب من الحاضرين أن يعرف كل عن نفسه، بعد أن انتهت مراسم التعارف، باشر القول:

ـ إذا فقد جاء كل منا بإرادته، رغم أننا لم نأت إلى الدنيا بإرادتنا، وهذا ما سأبدأ الحديث به، فهل من سؤال قبل أن أواصل حديثي؟

والتزم الجميع الصمت.

ـ كل منا يعلم، أو أنه سيعلم الآن أننا من آدم وحواء، ويتهم الرجال حواء بالخداع، وهذا ما دفعه لارتكاب الحماقات، وحين خلق الله آدم، وفضله على جميع خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له، ففعلوا، ورفض إبليس، فطرده الله من رحمته، فغضب الأخر، وامتلأ حقدا، ما دفعه للتفكير بتدبير انقلاب على الله، واستلام زمام الأمر بعده، وأمهلته حكمة الخالق، وإرادته، وطردته من الجنة، ففعل ما فعل كبداية لما يصبو إليه، وظل يلاحق أبوينا في الأرض، وتسبب بخلاف بين ولديه، وأدى الأمر بقتل أحدهما من قبل الآخر، وشاءت حكمة الخالق أن نكون أبناء القاتل.

وابتسم للحضور ثم أكمل:

ـ وراح آباؤنا، ومن قبلهم أجدادنا، يتخلون عن حقوقهم تارة، ويحلمون باستعادة ذلك الحق أخرى. وتخبط الكثير منهم بين شك ويقين حول حقيقة الله، فمنهم من حاول استرجاع ما ضاع بالرجاء، ومنهم من جرب التمني دون اللجوء إلى بحث دقيق في كيفية بلوغ ذلك. لذا حري بنا أن نعمل لأجل حقنا المفقود، فكيف ونحن أبناء من سجدت له الملائكة، نرضى أن نسجد وأُمر بالسجود لنا؟ وأي عار أرتكبه بتقديس قاتل أبي، ونفسي؟

ثم صمت، وضم كفيه في وجهه، وأطرق قليلا، ثم نبهه صوت أبي سهيل:

- ألا تظن أنك تتحدث بلغة يعجز عن فهم مغزاها من هو أفطن من هؤلاء الصغار بكثير؟

وتبسم ناصر، ثم مسح بسبابته وإبهامه شفته السفلى وقال:

- أشكرك لحسن إصغائك. أما أن تتكلم، ويفهم المصغي إليك ما تقول، ويبصر به الحقائق، ولكن أن ينبذه، ويرفضه، فتلك من أعظم المآسي. إذا فليس المهم أن يفهم هؤلاء الصغار ما أقوله حرفيا، إنما أن يمتصوا بهدوء طبائع جديدة، وسلوكا جديدا، سيبلغ بهم يوما ما التطبيق لما أقصده اليوم، فلو اعتادوا صعوبة اللغة والأسلوب والتفكير، وعظيم الهدف، بالتأكيد سيتمكنون من قيادة أهلهم وبلدهم بما لديهم مما يفوق بسيط التعابير، وجمل الاتصال البديهية. فمن اعتاد العظائم، والمكارم، جبل على حبها، ومتعة التعامل معها، ومن ألف الصغائر، يظل طوال حياته يصغر بحلمه وقدراته، وسلوكه حتى ينقرض ويختفي.

وقاطعه أبو سهيل:

- كلامك سليم وجليل، إنما كيف يمكننا تطبيقه؟

- إنما قل كيف يمكنهم تطبيقه، وليس يمكننا؛ لأننا صرنا بعيدين عن جيلهم، وأساليبهم، وقدراتهم، وفهمهم للحياة، وهم يستطيعون ذلك بثلاثة أمور: بالانقلاب على أنفسهم وما تلف من حولهم، وباعتناقهم السلوك الجديد الذي سينتج عن هذه الانقلابية، وبالحب لأنه ثمرة ما سبق من حالات. ثم عليهم بالشك دائما، وتكذيب الهلوسة، والهذيان، والحب يا أحبابي هو نبذ كل ما يحط من قيمة النفس أمام نفسها، وليس أمام سواها، والحب لا ينمو إلا بحبنا لنفوسنا الخلابة، لا باقتتالنا وقتل بعضنا لتغذية الكراهية. فقتل المجرم لا يلغي الجريمة، وإبادة السارق لا تلغي السرقة، وتدمير الشرير لا يلغي الشر، فالمشكلة في الأصل وليس في الفرع، والشر فينا، وعلينا التخلص

منه، لذا ليكن شعارنا: "فلنحيي كل يوم جانبا محبا في نفوسنا، ولنقتل جزءا من هواها، لأدنو منها أكثر". وإن كان ما خسرناه فيما مضى كثيرا، فإن ما سنجنيه في القريب أكثر، إنما بلوغ العظائم بالمخاطرة بالعظائم، لذلك كان لا بد يا أبا سهيل أن نبدأ بأبنائنا، ونخاطبهم بعمق اللغة، والنفس، والفكر، كي تتأصل فيهم العظمة والإرادة.

رفع حنين يده طالبا الحديث، ما جعل أبا سهيل يصاب بالدهشة. وقال:

- لكن لماذا يتهمونك بالجنون، واللواط؟

وتشكلت لوحة رائعة من وجوه اكتست بالارتياب، ونظر أبو مازن إلى الصبي غاضبا، وذهلت نوال من وقاحته، وتمنى جده لو أن الأرض تنشق لتبلعه، أما ناصر فقد ظل وديعا، ترتسم فوق شفتيه ابتسامة ودودة، ثم رفع سبابته اليسرى، وحك بها أرنبة أنفه قاصدا استراق انتباههم بشكل جيد. وقال:

- أما الجنون، فوالله أنا أتهم نفسي به في كثير من الأحيان، ليس لصدقي مع نفسي، بل لأن الكثير من الناس يخذل نفسه، ويتملق لشهواته.

- أما اللواط فقد سمعتها منك الآن، ولن أعلق على ذلك بأكثر من أنها محاولة من جاسر وأتباعه للنيل مني. جاسر ذاك الرجل الذي أرشدكم إلى مكاني عند المستنقع، صاحب النظارة، والأناقة، وهو أيضا صاحب دار.

إلا أنه توقف عن إكمال ما بدأه استجابة لحركة من يد أبي سهيل. وسأل ناصر حنين عن مصدر هذه المعلومات، وحين أخبره أنها من أبيه علق مشمئزا:

- الآباء دائما هكذا، يمنحون صغارهم الإيحاءات الخاطئة، ما يسهل عليهم تعليم أبنائهم الخطأ بسرعة أشد من الصح. ولن أكيل بمكيالين بشأنهما، إنما قصدت ما هو أرخص بما هو أثمن، إلا أن – يا أعزائي – ما يشكل خطورة أكبر هو مصطلح لوطي، وهو مفهوم قذر نسب إلى رجل نزيه، فقد كان فعل قوم سدوم، وما يحيرني، أن المصطلح شاع بسم رجل نزيه، ولم يؤتي منه شيئا، ولم يشع باسم سدوم، وإنما يقصد به تدمير النزاهة بكاملها، وتشويه المعايير والمصطلحات، فما أحوجنا لحركة نهوض تعمل على تصحيح المصطلحات والمعايير اللفظية، وإياكم والتهاون في الأمر، فلم لا نقول سدومي؟ ستقولون هكذا جرت العادة أرأيتم كيف نستسلم للهلاك ببساطة؟ وعن سؤالك إن كنت هكذا أم لا؟ فتلك مشكلة المالك والمملوك، والظاهر والمقصود، والغاية والوسيلة، وأعود لأدعوكم إلى الحب، فعنه ينتج الصبر، ولا صبر بلا حب، وينتج عن الصبر الوضوح في التفكير، وتنتج عن وضوح الفكر القناعة، وهي قاعدة سلوك نسعى لخلقه معا.

ثم صمت ناصر، وقد أغمض عينيه دون أن يحني رأسه، والكل يراقب ما يجري، حتى أخذ كل منهم يلتفت إلى الآخر بعد أن لمحو دموعه التي راحت تسيل على خديه، كحبات مسبحة أبي مازن التي لم تتوقف عن التراكض خلف بعضها طوال هذه الجلسة، ورفع ناصر إبهامه الأيمن وبدأ يمسح دموعه، ثم فتح عينيه، ونظر إلى الدهشة التي جعلت الجميع كتماثيل شمعية، تشبه تلك التي شاهدها في ما زاره من متاحف، باستثناء الانسجام العاطفي مع الموقف والمكان، ومجانية المشاهدة، ثم قال:

- نحن الضعفاء، أحرى بالدمع من التبول، فهناك تحت السقوف البلورية، وبين تلافيف الروائح النيروزية، إذا تملك الحزن نفسا، هرعت إلى احتساء ما يكفي ثمنه من الخمور والمهدئات لإيواء

خمسين طفلا مشردا، ثم تتوجه إلى حيث تبول بعد لحظات في مرحاض وردي اللون. وأي غرابة في أن يدفع المرء ثمن مرور محلول من فمه إلى مبولته، ما يمكنه أن يشتري به قلوبا تعبر بحبه من ظلمات قاتلة إلى نور شمعة خافت. لذلك أبكي، إن ما نملكه غال جدا، لكنه غير مطلوب، وما يملكه جاسر رخيص جدا، لكنه سلعة ضرورية لضياع يوميات آلاف الأبرياء، والشباب وسط روائح الشهوة المنبعثة من جثث الغرائز الجافة.

ثم انتقل ليتحدث إلى نوال وابنتها، وحالة عماد الصحية، وتمنى بصدق أن يكون هذا اللقاء سمر الروح في الخلوات والتلاقي، ثم مد يده إلى جيب معطفه، وأخرج قبضة نقود، ومد بها إلى نوال مصرحا أنه جمعها من جود القادرين، ووعدهما بإكمال ما بدأ لأجلهما. وقدم أبو مازن ما بحوزته، وساهم أبو سهيل، كما وعد الصغار ببذل ما يرقى بهم إلى مستوى المحاولة.

غادر الجميع المكان بهدوء، وحذر، بناء على تنبيهات ناصر، مؤكدا أن من يستثني من حساباته خطر الفوضى، يسهل على الراغبين إفشاله. فخرج حنين قبل جده، وانزوى عند ناصية الشارع متمنيا رؤية رجوة، ثم تبعه الجميع، وكان جده آخر المغادرين، فراعه تغير الطقس، بعد أن شعر كأنه انقطع عن العالم داخل ذلك القبو، فقد كان المطر يهطل غزيرا، كما لو أن الرياح تحمل الماء من البحر إليهم مباشرة، فتقذف به في أزقة المدينة، وأشباح اللامبالاة تلهو هنا وهناك فوق صفائح السطوح المعدنية.

راحت نقاط المطر تنزلق فوق شعر حنين الذهبي، فتغازل نظرية التحول في أحاسيسه بين رغبت هات وخذ.

ظل الجد ساكنا يراقب حفيده، الذي مد يده ليصافح يد الصغيرة، واطمأن لتحلق الأطفال حولهما، فقد أيقن أنهم ماضون في التآخي، ثم غادرت رجوة مودعة، ونظرت العيون في العيون، مبشرة بولادة نواة لسلوك جديد يرضي رغبة ذاك الفيلسوف المجنون.

* * *

رغم مرور الأيام لا زالت مخيلة أبي سهيل تجتر استجداءات ناصر، فضرورة استقراء استطباباته ملتهبة في جدلية هذا الفحام، وراح يسمح لنفسه بمزاولة بعض من الشطحات الفلسفية، بسطها على حد أن ربط بين طريقة تخمير الفحم، وتخمير الفكرة، وأن رطوبة القشرة الترابية التي تغطي كومة الفحم، تشبه الدموع التي أفرزتها قناعة ناصر بما يحلم.

أما الحب، فتلك كلمة لا زالت تغرورق عيناه دموعا كلما أحسها، وعايشها، أتراه عرف يوما هذه التعويذة التي ينذر ناصر نفسه لنشرها، أم تراه مازال يحيا بفطرة سكون غرائزه، تحت ضغط المكاره والهموم؟

أيام مرت، وخلوات عديدة عقدت، وأبو سهيل يرى كل يوم بذرة ناصر تنمو في هؤلاء الصغار، ويظل هو كبئر فارغ، يتردد فيه صدى كلمة حب. وظل في أمسياته اليومية يتكور في زاوية الغرفة، يقابل صورة ولده حنين، فيضغط على لسانه وجفنيه، ويطرق سمعه إلى صوت ناصر، مفتشا وبلا جدوى عن حرف واحد مما قاله ذاك المجنون، الذي لا يختلف عن المجانين بشيء سوى إصراره على المثابرة، فيخلص إلى نتيجة أنه جاهل لا يفقه شيئا، ويتراجع عن شتمه لنفسه معللا موقفه: "بأنه لو كان جاهلا، لما فهم كلام ناصر!". وهكذا يوما بعد يوم تآلفت طقوس ناصر ورغبات هذا العجوز، وصار يحضر حلقاته باستمرار إلى أن جاء مساء يوم كان يعود فيه إلى المنزل بصحبة حنين، وناصر المعتوه، كما كان يحب أن يناديه بين الحين والآخر، كانوا يسيرون بهدوء وصمت، تخترقه بين فترة وأخرى حوارات يطلقها ناصر، كأنها قادمة من سبات مدمن التنقيب في فلسفة هذه اليوميات، فتشغل بال ومخيلة أبي

سهيل، ويحمر وجهه تحت انعكاس وميض سيجارته، كلما مص منها جرعته، وكان أشد ما تعثرت به طمأنينته قول ناصر:

- القرف نسيب الهروب، والشغف وليد التجربة.

توهم أبو سهيل أنه لن يحيا إلى الوقت الذي سيمكنه فيه عقله من فهم هذه المقولة، رغم أنه فهم جزءها الأول لحظة وصوله إلى باب دراه، وبدأ يلح على ضيفه للدخول، ولمح من خلالها حركة غير طبيعية، تصدر عن سمية، وهي تجول البيت ذهابا وإيابا، فدخل مسرعا، فإذ بالجدة نعمت ممدة فوق أرض الغرفة، وقد غطتها سمية بشرشف مزركش جرت العادة على تغطية الميت به، إذا ما هموا بنقل الجثة إلى المقبرة، فقد رحلت نعمت إلى اللا مرئي، لتسكن مخمر الصور في ذاكرة من عرفوها.

تقدم أبو سهيل من الجثة، وركع بجانب رأسها، وظل يتأمل بهدوء غرابة ما يراه في وجه نعمت، وراح يبحث عن كثير مما كان يراه بالأمس فيه، فما وجد شيئا، وتساءل:

- ترى أين ملامحك الآن؟ أم أن الملامح تموت مع موت الجسد؟ لا شك أن الصمت هو الهدف الأسمى لبني البشر، لذا فهو آخر ما يمارسه الإنسان فوق التراب.

وومضت في ذهنه آلاف الحركات مما كانت تقوم به هذ الجثة الهامدة الآن، فبكى، وأحنى رأسه فوق صدرها ناحبا، وكأنه يأمل أن تحمل معه كل تعبه إلى القبر. ثم استوى راكعا، وراح يمسح براحة كفه اليسرى جبينها ويقول:

- سامحيني، وأبلغي حبي لحنين وأمه، وعتابي عليهما لرحيلهما المبكر، رغم أني ما قصرت معهما.

وصمت طويلا مطبقا جفنيه، والدمع لا يلقى ما يردعه، حتى اقترب منه ناصر، وأمسك به، وركع بجانبه، وأخذت شفتاه تطلقان ابتسامات اللوعة، والإشفاق، والأسف على حال البشرية، ثم تكلم بصوت دافئ محببا نفسه إلى الموت:

- أظنك أيتها العجوز تدركين الآن مهزلة أن نتكلم، وتصمتين، وكلك يقين بلا مبالة عدم اللافجائية، فأنت ترين أننا لا شك سنندم على ثرثرتنا، وكلي يقين أنك لا تحبين الرجوع إلينا. أتراك تفضلين تلف الملامح والأطراف على الاعتبار من صيغة اللا مفر؟ سأعتبر من أن من يألف الحياة يجب أن يألف الموت.

وسقطت من عينيه دمعة، جعلت سمية تجهش بالبكاء، غير مستوعبة ما قاله هذا المجنون غير المحبب إلى قلبها، وأقلقها جره حنين من يده، وطلبه منه أن يدنو من الجثة، وهو يقول:

- يا صاحبي هذا هو ظنك بالإنسان.

وأشار بإصبعه إلى الجثة التي كانت بضع شعرات بيضاء تبان عن جانبي وجهها الذي لا يأبه بكل ما يستعرض أمامه، وخيل للفتى مشهد الجثة التي رآها تسقط مضرجة بدمائها في وسط السوق، فأخذ يرتجف من غير أن يتنبه أحد لحاله، وناصر ينشغل في محاكاة الجثة في نفسه، ويتمنى لو انه يترك المكان ليركض مطلقا صرخاته في الفضاء الواسع، عله يلقى إجابة على سؤاله القاتل: "هل الحب في الجانب الآخر من العالم؟". ورفع بصره ليلقي نظرة على سمية، التي بدت مهزومة أمام ما ترى، والتفت إلى الصغير الذي كانت

ترتجف شفته السفلى رعبا مما يراه، ولا يرونه. فيما يغط أبو سهيل في صمت مطبق، إلى أن فاجأه بقوله:

- ترى ماذا يرث الإنسان عدا الموت في هذا العالم يا ناصر؟

ثم تمنى لو أن له معجزة إعادة النطق إلى لسانها، ليخبرهم بما يراه في هذه اللحظات، لكنه استفاق على دخول راجي الذي عاد ليقول:

- القبر جاهز.

مسح بإبهامه عينيه من الدموع، وبردن قميصه ما سال من أنفه وقد تجمع فوق شاربيه، ثم تنحنح محاولا استعادة قدرته على التصرف بعقلانية، وسأل ابنه:

- هل جلبت النعش؟

- أجل أنه في الخارج مع بعض الأشخاص.

لم تكن جنازة هذه العجوز المسكينة حدثا غير عادي في هذا البيت، أو هذه المدينة، رغم أنها ترتبط في كليهما بقوة الأصل لا الفرع.

تقدم حنين من جده طالبا منه البحث عن كيسها أثناء رفعهم للجثة إلى ما فوق النعش، فتقدمت سمية لتبحث عنه، فمدت يدها، وأمسكت عنق الثوب المثني آلاف الثنيات، واستخرجت الكيس، ومدت به إلى عمها، فأطل من عنقه، وأعاد ربطه طالبا إعادته إلى حيث كان. وطلبت سمية أن تبقيه معها كذكرى منها، فكان لأبي سهيل رأيه بأنها تركت بينهم الكثير من الذكريات طوال مكوثها بينهم، وأن لها من الذكريات ما يصعب نسيانه. فراق لناصر ما قاله

هذا العجوز، والذي لم ينطق من فراغ، متسائلا أتراها عظة، أم أنها أصالة استيعاب لما يحصل؟

ما يميز جنائز الفقراء تعجيل دفنها، وقلة السائرين خلفها، أيقظ أبو مرعي الحاضرين بعبارته التي ألف الناس سماعها منه في المآتم ألا وهي إكرام الميت دفنه. وابتسم ناصر ساخرا، فقد سبق الليل الجميع وواراها قبل التراب.

سار الموكب البسيط خلف حنين الذي أوكلت إليه مهمة السير أمامهم بمصباح زيتي، راح نوره يمزق خيوط الظلام المترامية من حولهم، ويتذكر قول ناصر: "الإحساس أسمى حالات التعبير".

ساروا وسط صمت الليل الذي كان يطبق على صمت الجثة، ما جعله سيد الموقف بين الجميع، فلا حوارات جانبية، ولا كلمات عظة، وحدها فقط أقدام السائرين التي كانت تتعثر بالحجارة والحصى، وبانحناءاتها بين أغصان الشبرق و الشيح، التي اقتلعتها الرياح، وقذفت بها إلى طريق المقبرة، وراح الجميع يتداورون على حمل النعش، فيما يرتطم فكر ناصر بتساؤلات سرعتها أشد من سرعة الطلقة أثناء اختراقها للهدف، فهو لا يأنس الاستقرار، وأحس بسعادة سوداء، وتخيل نفسه يحمل نفسه، وتخيلها أخرى تموت ولا توارى التراب، ثم انتقل إلى مراقبة أبي مرعي، والذي كان معروف بنخوته لحفر القبور، وإعدادها، وتساءل عمّا يخالجه من استفزازات فكرية أثناء قيامه بذلك، ثم خمن أنه لا شك بات يألف الأمر ويشعر معه بالطمأنينة، فهو ينال منها حسنات، وبركات، ومساعدات مالية، وبقايا ثياب من رحلوا، لذلك تراه يظهر تعاطفه مع أهل الميت، ويبذل كل ما في وسعه لإرضائهم من خلال توسيع القبر، وانتقاء حجارته، وبلاطه الذي يشرح لهم مزاياه حين يقدم

لتعزيتهم، وتذكيرهم كي لا ينسوه. وكل شيء يمكن لعقل ناصر تقبله، إلا أن يكون موت أحدهم مصدر رزق الآخر.

عند بلوغهم مدخل المقبرة كانت ظلمة القبر وظلمة الليل قد أزالتا كل فاصل بينهما، وأي موت هو هذا الذي يواكب فيه الجثة خمسة أشخاص يدفنون معها في قبر جماعي نسجه ظلام الليل؟ وضعوا النعش على الأرض، وتناول أبو مرعي المصباح، ونزل منزلقا على جنبه إلى القبر، وألقى نظرة داخله ليتأكد خلوه من الكلاب، والقطط، ثم وضع المصباح فوق بلاطة تستر نصف القبر، وطلب مناولته الجثة، وشعر ناصر برغبة التقيؤ من طبيعة هذا الرجل الذي لا يبالي وقد صار كله داخل القبر، وهو يحمل الجثة، ويطلب المساعدة، ويتحدث أثناء إغلاقه القبر، وكأنه جزء من سلوكه اليومي.

وضع آخر بلاطة فوق فتحة القبر، وانتقل إلى خلط التراب بالماء، وجبله، ثم نشره فوق بلاط القبر حتى غطاه بالكامل، ثم راح يوزع الحجارة فوق الطين، إلى أن ثبت الرمز الدال على أنوثة صاحبة القبر، ثم حمل عدته مترحما عليها، وطلب من أهلها مغادرة المقبرة فقد تأخر الوقت.

* * *

الصيف موطن مفتوح الحدود والذكريات، إذ تدخل في الشتاء سبات، لا يخرجها منه إلا نار الموقد أو ولوج الفراش مساء. والتناقض حالة قسرية تفرض على بني البشر، لذا اصطفت على رصيف اليوميات: الحداثة قبالة التقليدية، والتفاؤل أمام التشاؤم، والامتداد ليواجه الاضمحلال، والولادة لتصارع الموت، فيشعر أبو سهيل يوما بعد يوم بتلاشيه، واضمحلاله، واتساع العالم من حوله، فيما يحس حنين بتناميه، وامتداد خطاه، وضيق وصغر العالم من حوله.

حرص العجوز على التزام الصمت أمام حفيده تجنبا لفجيعة يتوقعها بين لحظة وأخرى، فالفناء لا متناه، بل هو له فناء، والأمور متعلقة بألوان العيون، وأنواع وقود الضوء الذي يمنح الأشياء ملامحها، وهناك خطان للرائي، لا ثالث لهما، واحد ينطلق نحو الغد المختلف عن اليوم، وأخر نحو الغد المطابق للأمس بكل تفاصيله. ويصنف أبو سهيل نفسه مع الفئة الثانية، ليترك رغما عنه الخط الأول لحفيده، الذي بات يتمتع بجوهر المقولة: "ليس هدفي النجاح، إنما المحاولة". وله رغبات للمحاولة وفي كل شيء، في الحب، والثقافة، وجمع المال، والجنس، والحياة، والموت، ولكن أين المتسع لها جميعها؟ لذا بات مهموما، يرافقه التعب أينما توجه.

* * *

تحولت المدينة مع مرور الوقت، من وجهة نظر أبي سهيل إلى سفينة تغرق في عرض البحر، وما من منقذ لها، والموت أرحم ما تكالب عليها لتعكير صفوها، وألفتها، فالحرمان يعبث بأفكار أهلها، وأحلام الكبير والصغير، ما اضطر القادر إلى الهجرة، والعاجز إلى اتخاذ مسلك مدمر في نهاية مطافه، كالسرقة وتعاطي المخدرات، واتباع الغش والخداع، والدعارة والسلب والنهب والاغتصاب. وبات الحديث عن جرائم تحصل أمرا لا يبعث على الاستهجان، فالنفوس مهيأة دائما لكل جديد. لا بل باتت الجريمة مطلوبة لتجديد حياة الناس، وتوفير مادة للحديث، تساعدهم في نسيان ما سبق من جرائم، أي استمرار الهروب إلى الأمام، فالقتل، والانتحار، واغتصاب الأطفال والنساء، واقتحام البيوت، وسرقة الدكاكين والحوانيت، وفرض الأتاوة والخوة، كلها توزعت حتى شملت كافة الناس، لذلك ألفوا البلاء، وأحسوا بالحميمية تجاه بعضهم البعض. إلا أن حنين بدأ ينطوي على ذاته يوما بعد يوم، ما جعله فريسة لعديد من المتاهات النفسية، فلقد بانت عليه رغبات البحث عن الجنس. لذا راح يفكر بحواء، وهي امرأة تكبره في السن، لكن الرغبة الجنسية تلغي كل الفروقات، فراح يحاور نفسه ويحثها على اللقاء بها والارتماء في أحضانها.

ومر ذات يوم بباب غرفتها التي استأجرتها من مريم العمياء، التي كانت ترث عن أبيها دارا تتكون من غرفتين سكنت إحداهما وأجرت الأخرى لمن أتاها من غرباء وعمال، ومكاتب حزبية، وفارين، ومتاجري مخدرات، إلى أن تسلل أحدهم إلى فراشها، ساعيا لمضاجعتها ذات ليلة، وقام بفض بكارتها التي حمتها لأكثر من ستين عاما، لذا توقفت عن تأجير الغرفة، وأبقتها خالية، حتى جاءت حواء بما لديها من خبث ودهاء، فثنتها عن رفضها، واستأجرت الغرفة، وأقامت فيها.

كان ذلك منتصف النهار، فقد ذللت حرارة الشمس همم معظم الناس وأجبرتهم على المكوث تحت أسقف البيوت الخاوية إلا من الظل والفيء. دخل حنين الزقاق، الذي يمر ببابها، وأخذ جسده يتأجج بالنار والرغبات، كما لو أنه كتلة من الغريزة تتدحرج باتجاه بابها، فيزداد حجم غريزته وضغطها كلما دنا من بابها خطوة، كان الباب مفتوحا على مصراعيه، عندما أخذ يسترق النظر من بعيد، ويتباطأ في سيره صوب ذلك الظل الذي يملأ فضاء غرفتها، وأخذت رائحة الأنوثة تتسلل إلى أنفه منه إلى مخيلته، فتحرضه على الدخول. فدنا من بابها، وتوقف قبالته، فيما كانت تتمدد بثوبها الرقيق الأسود، والذي يسمح لكتفيها بالظهور، ويبرز تكور نهديها، ثنايا بطنها، ويسمح برؤية فخذيها كاملين، وأي قول يختصر تكثيف الأماني في مثل هذه اللحظات، وأي رغبة هي رغبة التأمل في جسدها، المكتنز أنوثة وغرائز، وومضت في نفسه رغبة الدخول والارتماء في أحضانها، لكنه أحس برغبة البكاء والهروب إلى زاوية الحرمان والقلق. فتمطت بجسدها ذو البشرة السمراء، وقد حشرت ثوبها في التجويف الذي تمنى أن يحشر شهوته فيه، وراحت تتلاعب بخصلة الشعر حول عنقها، ثم نامت على صدرها مظهرة له وركها، ما دفعه لتوزيع نظراته في كافة أنحاء الزقاق، ليتأكد من خلوه من المارة، ورفع قدمه ليعبر عتبة الباب، فإذ به يلمح أحدهم يطل من بعيد، فاستفرغ جسده كل رغباته، واستبدلها برغبة القلق ولاذ بالفرار. تاركا للمشهد فرص التكرر في مخيلته، وليؤجج غريزته، وإصراره على عدم تفويت الفرصة على نفسه مستقبلا.

كان الفتى في منأى عن تنبه سكان البيت إلى تطور سنه وجسده وحاجاته، فأبو سهيل يرجع من عمله متأخرا، وبات أحيانا كثيرة ينام هناك منذ أن ماتت نعمت، ليراقب نضوج الفحم، وراجي منشغل في مساعدة أبيه، تارة في اقتلاع الفحم، وطورا في تسويقه خارج المدينة، وهذا ما جعله يبيت لمرات خارج المنزل، أما حنين فكان يعرج بعد خروجه من المدرسة على الأماكن التي يمكنه اللقاء

فيها بناصر، أو إلى غرفة حواء حيث اعتاد أن يمضي معها بعض الوقت، وتظل سمية وحيدة في البيت، تعيش عزلة نهارية، وليلية، وهكذا حتى تنامت لديها كل الرغبات التي يمكن للعزلة أن تحيكها، وتؤججها، فقد ثابر عثمان على زيارتها من حين لآخر ليتناول بعض الطعام ويعود من حيث أتى، ولتألف هي قدومه وتألف معه شكله الذي كانت تراه في البداية مقززا، وباتت تتعمد ابتكار انحناءات أمامه متسائلة إن كان هذا الأبله يعني، ويقصد ما يظهر عليه، أثناء مراقبته لها؟ وراحت تتعمد إثارته، غير آبهة بخطورة التورط معه، وما عاد يدور في رأسها سوى نزعة التأكد من أنه يشتهيها أم لا. وأخذت تخلع يوما بعد يوم الخصوصية التي تربطها براجي، وتبيح لعثمان أن يلهب رغباته مع كل حركة وتصرف تبديه له، فتارة تجلس كاشفة عن فخذيها، وأخرى تدخل غرفتها لتستبدل ملابسها تاركة لعثمان الباب مشقوقا بما يكفي لرؤيتها، حتى كان ذلك اليوم الذي غادر فيه أبو سهيل وراجي إلى الغابة، وانطلق حنين إلى المدينة. استيقظت متأخرة من نومها، ولجسدها رغبات تسدل عليه ثوب الكسل وتدعوه ليظل ممددا في فراشه، تحلم أن يتفتق هذا الصباح عن جديد، وظلت تتقلب، وتغرس الغطاء في حنايا شوقها، وتلف الوسادة بذراعيها، فيما مخيلتها تنسج لها آلاف الصور من تلك التي استنتجتها من ردود أفعال عثمان، وفجأة سمعت الباب يطرق، فانتفض صدرها بأمنية أن يكون الطارق عثمان، وسألت من موقع تمددها من الطارق؟ فجاءتها همهمة وتمتمة عثمان كأنها ولاء ابدي لغرائزها، فرتبت ثوبها بحيث كشفت عن مفاتنها، وظلت في فراشها، وأجابته مخفية أي توتر في صوتها، ونادته، وطلبت منه أن يغلق الباب خلفه بإحكام، وبقيت في استلقائها ترقب إطلالته لترى رد فعله حين يراها على ما هي عليه. ودخل عثمان القادم دون معطفه، ينتعل حفاية، وهي ترشده بصوتها إلى مكانها، حتى وقف المحروم في باب غرفتها، ووقع نظره عليها، فاكتسى وجهه بمئات لا بل آلاف الاستجداءات، والامتنان

والعرفان بالجميل، واستغراب ما يجري، فهي المرة الأولى التي يحصل فيها على كل هذه النعم دفعة واحدة، وتأججت في روحه وجسده نار الرغبة. وتحول وجهه إلى نافذة تطل منها رائحة الغريزة المزمنة. وراحت عيناه تدمعان بشدة، وتحمران، فكأنهما عصارة من نبيذ قاني، وارتسمت على شفتيه ابتسامة توحي بتوسله، وسكره لها نيابة عن ملايين المشردين الضعفاء أمثاله، ولم تتركه واقفا، ليراقب فقط بل نادته:

- عثمان، تعال. إلام تنتظر؟ ألم ترغب هذا منذ زمن طويل؟

وتمزقت دواخله تحت تأثير التناقضات التي عصفت به مع ندائها الأخير، وتشطرت رغباته وتمزقت دموعا، وعلا نحيبه، ثم استدار، وخرج من المنزل راكضا، دون أن يترك خلفه إلا صدى صفعه الباب، وكالثلج المخدر نزل البهتان في جسدها، وتسمرت كالجثة لا تقوى على الحركة، محاولة إيجاد تفسير لما جرى، فتوصلت إلى نتيجة واحدة ألا وهي: أنه حتى عثمان فر منها، وبالرغم من اضمحلالها أمامه، ومناداتها له، إلا أنه بان أن له من القيم ما ليس لها، فقد آثر أن يحرم نفسه على أن يغدر بالبيت الذي أكل منه.

وبدأ تخدر جسدها وعقلها يتفسخ، وبدأت أعصابها تستقبل إشارات ورموز، وتحولها إلى إدراكها الذي دفعها كي تنهض مسرعة من مكانها، وتوجهت على الفور إلى النافذة تبحث عن عثمان، لتجده يجلس خارج المنزل ينتحب، فصممت على استمالته من جديد. وقفت له بالباب تناديه، وتقدم له نفسها بحركات الإغراء، حتى بلغ منه الضعف مبلغا، فدخل معها، إلى غرفتها، وأطلق لنفسه العنان في فراشها، فتحول عثمان المجنون الأبله الضعيف المسكين، إلى عثمان يختلف عنه كليا، فقد بان أن له من الفحولة ما لا يملكه عشرات الرجال من الذين يسخرون منه، حتى أنها تمنت للحظات لو أنه زوجها الحقيقي بدلا من راجي الموتور. وفاضت الرغبات في عثمان مثنى وثلاث، وكان يعاملها كأنه خبير نساء متمرس،

ويكيلها الطعنة تلو الطعنة، حتى أحست أنها لن ترتوي من نهره المجهول المنبع. وغب عن ذهنها وذهنه كم مر من الوقت، وكم لديها منه قبل أن يحضر أحدهم، حتى هالها مرأى زوجها يقف عند باب غرفتها ينظر وكأنه عاجز عن القول أو الفعل، ونفر عثمان من مكانه باتجاه الباب حيث يقف راجي، وتمكن من حمله إلى خارج المنزل وفر هاربا عاريا من ملابسه، وراح يجري في الطريق المؤدية إلى المدينة. وراجي يقف مذهولا أيطارد عثمان لينتقم منه، أم يدخل لينتقم من زوجته، وأم ولده، ومن نفسه، وبقي على حاله في فناء الدار كالتائه، استغلت سمية الوقت، وقفزت من مكانها إلى الغرفة التي فيها أواني الطبخ والطباخ النفطي، فأمسكت بقنينة النفط التي بجانبه، وبلا أدنى تفكير في التراجع أو الخوف، أدارتها فوق شعرها وجسدها وما عليها من ثياب مزقها عثمان منذ قليل، وتناولت أعواد الكبريت، وقدحت واحدا منها وقذفت به إلى شعرها، وتكفل بدوره بتحويلها إلى كتلة من اللهب، راحت تلتهم جسدا كان اسمه سمية، وعلا صراخها جراء الألم، حين التصق الثوب المشتعل بجسدها، والذي راح يتحول إلى فقاقيع مشتعلة، ودهون تسيل فوق ما راح يبرز من لحمها. دخل راجي من الخارج مسرعا، وهاله ما رآه، ويا ليت المصيبة توقفت عند ما شاهده قبل قليل، فقد حاول أن يقترب منها ليطفئ جسدها، وحاولت هي الهرب والفرار من النار، التي ارتدتها كاملة، فحشرت نفسها في الزاوية، وتكورت، حتى اتخذت شكل منحوتة، يعجز سلفادور دالي عن تنفيذ سرياليتها، غدت سمية الإنسان مجرد كتلة سوداء نتة، يفوح منها الدخان بطريقة جعلت راجي يفر إلى الخارج مذعورا، لتغادر هي المنزل عبر نوافذه وفتحاته رائحة كريهة راحت تفوح في المنطقة ومحيطها، وظل سوادها المتفحم ساكنا بلا حياة.

ظهر في الطريق من بعيد حنين، الذي كان يرجع فرحا، لأنه التقى رجوة بعد قطيعة دامت فترة، جعلت الكثير من الأفكار تراوده حول حب هذه السنوات المبكر. وراحت مع اقترابه، تتسلل إلى أنفه

رائحة غريبة، كريهة، وأخذ يلتفت في كل اتجاه بحثا عن مصدرها، ويرد ذلك إلى حرق جيفة في مكان ما في المنطقة، إلا أنه بدأ يتلمس أنها تأتي من جهة منزلهم، وراح يتساءل عن أسبابها، ويقول في نفسه: "ربما أحضر جدي معه طريدة وهو يشويها، أو أن خالي سمير قدم من العاصمة وقد أحضر معه بعض الدجاج، وأمي تعمل على تنظيفه لتشويه."، نظر إلى الفناء من بعيد، فلم ير ما يشير إلى حركة فيه، دخل الفناء، وإذ بالرائحة تزداد نتانتها مع اقترابه من الباب، دفع الباب، وفتحه، وهم بالدخول، فصدته كثافة الدخان، والرائحة التي تخنق المكان، فتراجع إلى الخلف، وقد كمم أنفه، وأحس بدوار في رأسه، فتقيأ ما في جوفه، وراح يشهق بحثا عن هواء نقي، ولو علم مصدر هذه الرائحة، لتمنى أن يتنفسها دفعة واحدة ولو أدت إلى موته.

وركض إلى خلف الدار ليطل من النافذة الخلفية، فوجد أباه هناك ينزوي بجانب الجدار وينحب كأنه ذئبة فقدت أبناءها، فتقدم منه ليسأله عما جرى، فاحتضنه الأب المسكين، وراح ينحب، ويبكي، ويشمه، ويقبله، ويعانقه. وهو لا يعلم ما دوافع ذلك، وهي المرة الأولى التي يحصل فيها من والده على مثل هذه الجرعة من الحب. اعتدل في وقوفه، ليسأل والده عن سبب الرائحة لكن الأب سبقه إلى ذلك وقال له:

- هي أمك يا ولدي، لقد أحرقت نفسها أثناء الطبخ خطأ، ووصلت متأخرا، ولم أستطع القيام بشيء لأجلها. وراح يحثو التراب على رأسه، ويلطم خديه، ويبكي ويولول.

وقف الصغير مذهولا بين أم وسط رائحة ودخان لا يمكنه التسلل عبرهما، وبين أب يتصرف كمجنون فقد إلى جانب جنونه أعصابه.

وعاد إلى الباب ليرى إن كان يمكنه العبور، وسد أنفه، بإصبعيه، ثم دخل، مبعدا الدخان عن ناظريه، ووجهه بيسراه، إلى أن لمح كتلة

سوداء أرعبته بشاعتها، وراح يتابع بنظره تسلق اللون الأسود لجدران المكان، يريعه ما يراه من فوضى وتبعثر، يفصحان عن ضيق صدر من كان بداخله قبل قليل، ثم ذهب إلى الغرفة التي اعتاد أن يجد أمه فيها، حتى أدرك ما قاله له أبوه، فخرج مرتعدا، مختنقا، يرغب بتمزيق أمعائه من الداخل، عله يتخلص من الشعور بما لا يمكنه وصفه، ثم ركض إلى خلف المنزل، وراح يدور حول البيت، حتى وجد نفسه يجري باتجاه مفحمة جده، وقد فقد من مخيلته، كل الصور الجميلة التي كانت لأمه، ولم يتبقى منها إلا صورة الكتلة السوداء والمكان الدائخ من الرائحة والدخان، وأحس أن الرائحة تجري خلفه، وتطارده في مسافات المنطقة المغطاة بأشجار الصنوبر.

لم يكن في ذهنه متسع لملاحظة ما يمر به أثناء طريقه، والذي لا زال يقطعه فرارا من الدخان، فلاقاه من بعيد دخان أكوام الفحم المحترقة، وراح يبحث ببصره عن جده، حتى لمحه، فناداه باكيا:

- جدي، جدي.

واستشعر الجد الخطر في نبرة صوت الصبي، وشعر بعجز قدميه عن حمل جسده، والسير به نحو حفيده، فبادره إلى السؤال:

- ولدي، ماذا حدث؟

وتوقف حنين لاهثا، يحاول استجماع ما يمكنه من الكلام، ما أثار هلع الجد، فألح عليه بالسؤال عما حصل؟ وراح الصغير يحكي له والدمع ينهمر من عينيه، بشكل جعل الجد يحتضنه ويبكي معه للمرة الأولى في حياته بمثل هذه الطريقة، ثم وقف راجعا يصرخ: أمي، أمي. وراح الجد يعمل جاهدا في حمل نفسه على السير، داعيا الله أن يمكنه منه، مجهشا في البكاء، يجر قدميه رغما عنهما بصعوبة ما ألفها من قبل.

كانت المسافة التي قطعها العجوز، كأنها عبور من الشيء إلى اللا شيء، لما فيها من كثافة ذهنية، من حيث الصور والمواقف التي تلاشى معها الترابط بين المكان والزمان والحركة.

عندما وصل، وجد ولده راجي في ضياع عنيف، يضرب رأسه بالجدار، ويصفع وجهه بكفيه، وينحب، ويعول، وإلى جانبه حنين يبكي بصوت ينم عن عمق خسارته. وحاول أبو سهيل الكلام، لكن صوته خانه، وحرمه فرصة التخفيف من وجعه المتنامي لدرجة احتقان عنقه، واختناقه بالدمع والكلام، وسقط أمام باب البيت، وظل يزحف، حتى أطل من الباب، ولمح تكور كتلة السواد، التي بدت في زاوية المكان كأنها تخشى نفسها، ثم واصل زحفه مظهرا رباطة جأشه حتى دنا منها، وهو يفتح عينيه في أشد اتساعهما، ثم يقلصهما حد الإغماض، حتى تبين له أنها سمية حين لمح بقايا شعرها، وأصابع قدميها.

تراجع ملتزما الصبر والصمت، يخفي ذعره الشديد، خشية أن يغيبه في الجنون إن أراد إظهاره، وبحث عن غطاء، ثم عاد وفرده فوقها، ولفها بطريقة محكمة، وسحبها إلى خارج المنزل، ثم رجع يجمع ما تبقى منها من نتف صغيرة، من بقايا شعرها، وما التصق منها على الجدران، وضمها إلى كتلة السواد، ثم ربطها جيدا، مجنبا الصغير النظر إليها. ثم عاد يحمل مكنسة ودلو ماء، وبدأ ينظف المكان استعدادا لقدوم الناس، الذين لا يود أن يروا آثار ما جرى. وعندما انتهى، حمل معولا ورفشا، وطلب من راجي أن يحضر النعش، ثم توجه إلى خلف المنزل، وخطا باتجاه بداية سفح الجبل على بعد أمتار من البيت، وبدأ يحفر لها قبرا هناك، وهو يذكر ما تحملته منه، وحسن رعايتها لهم جميعا.

كان النهار قد قارب على الانتهاء، عندما سير بالنعش الذي يحمل كتلة سمية، والتي اضطرت حامليها للتوقف أكثر من مرة أثناء ذلك، ليلتقطوا أنفاسهم من الرائحة النتنة، وصلوا ليجدوا أبا

سهيل قد هدّه التعب، فقاموا بمواراة الجثة ورائحتها تحت تراب، وانفضّوا من المكان واحدا تلو الآخر، ونظر أبو سهيل إلى القبر وقال:

- حنين هنا قبر أمك وهنا سر موتها.

ثم أجهش البكاء، وأنحب راجي، فيما استدار حنين يركض نحو البيت، ثم عادوا مخلفين الظلام ليخلط حدود الفصل بين ما يحتويه القبر وظلمته، وظلمة الليل في سوادهم مجتمعين. رحل الناس تاركين ثلاثة، توزعوا في زوايا الغرفة، ينظرون إلى زاوية خلت من صاحبها، وقد آثروا الصمت وتجنبوا الحديث في أسباب ما حصل، وما نفع ذلك، وقد حل ما حل.

بات مألوفا مشهد عثمان عند قبر سمية، ولم يعد ملفتا للانتباه، لكن هذا العاجز عن الكلام، كان يحمل كل يوم سره ويذهب إلى قبرها، ليبثه شكواه التي تمنى لو أنه يستطيع بوحها، ويجلس عند قبرها لساعات متأخرة من الليل، ما جعل الناس تستغرب رقة هذا المعتوه، الذي زرع عند قبرها الورود، ودأب على ريها. ولم يكن الناس يعلمون أنه يحفر لنفسه قبرا بجوارها، حتى كان ذاك اليوم الذي مر فيه بخليل بائع الأقمشة والأكفان، والذي عرف بأمانته، وذكره عثمان بما كان قد أوصاه به قبل أيام عن طريق الإشارة، والذي مفاده أن يدفن هناك بجانب قبرها. وردّ خليل ساخرا

- سيموت كل أهل هذه المدينة قبل أن تموت.

ثم قهقه عاليا، ومضى عثمان دامعا دافنا في أعماق إعاقته رغبة لا يعلم أحد فحواها، حتى قارب الوقت عصرا، فعلا صراخ في الساحة الضيقة، عند ملتقى الأزقة المؤدية لدكان خليل. فنفر الناس بحثا عن أسباب الصوت، ليروا عثمان يقف، والنار تلتهمه، ويهاجم كل من يحاول الاقتراب منه لإخماد النار، ويضغط على نفسه لتحمل آلام الاحتراق، برجولة تليق بوفائه لسمية، حتى سقط أرضا

وسط صراخ الناس وغوغائيتهم، فهذا يطلب غطاء، وذاك ماء، وما إلى ذلك أملا بإنقاذه. اقترب منه خليل، وقد كان لا يزال على قيد الحياة، فنظر إليه مبتسما، حزينا، والدمع يحتقن في عينيه، مؤكدا له فرحه بتنفيذ ما يرغب، وويذكره بالوصية. بكى خليل، وهز رأسه ليطمئنه، أنه سينفذ وصيته.

تجمع الناس حوله، وتداخلت حواراتهم، وأصواتهم، وضوضاؤهم، وكانت فوضى أشد إيلاما له من فوضى الحريق الذي ألهمه جسده بإرادته، ففارق الحياة وسط احتفالية من الضجيج والثرثرة، والتكهنات حول سر، عجز هو عن فضحه، وسيعجز الجميع عن كشفه.

حملت جثته فوق السواعد، وقصته فوق الألسن، ودفن في قبر حفره بنفسه لنفسه قرب قبرها، تاركا وراءه الألسن تحكي قصصا، تحيل عثمان يوما بعد يوم إلى عثمان آخر غير الأبله الذي عرفته المدينة، وظل يجوب أزقتها لسنوات.

* * *

انهارت أسرة أبي سهيل، وتآكلت فكرتها، وغدا كل واحد منهم سجينا داخل ذاته، يحكم عليه إغلاق سجنه يوما بعد يوم، فلكل منهم أسراره، وأحزانه، وصمته الذي يلجأ إليه، فصار أبو سهيل يقضي أيامه خلف الدار معلقا عينيه على الأنصاب التي ينقصها نصبه، هناك على بعد عدة أمتار خلف المنزل عند بداية السفح، ويقضي ليله يقظا، يتأكد من الغطاء فوق حفيده مرة، ويراقب صورة ابنه المقتول في سجن شرقي هذا الجبل أخرى، أو أنه يجلس أمام الباب منتحبا، ناظرا إلى الدرب التي سيعود منها راجي، بعد أن أدمن الأخير شرب الخمرة كل يوم، ولا يرجع إلا مع بزوغ خيوط الصباح، والحفيد الذي اشتد عوده، يفكر، لا بل يعمل بجد على فكرة السفر والرحيل عن هذه المدينة، فما الذي يربطه بها بعد كل ما حدث، فأمه تحت التراب، ولقد نزحت رجوة وأمها بعد موت أبيها، ولا يعرف دربا إليها، وتفرقت المجموعة بعد أن وجدت جثة ناصر مقتولة في حقل ملفوف، وعرف قاتلوها وما من محاسب، وأبوه يحثه، ويشجعه على السفر، حتى أن جده بات يتقبل الفكرة، ما دام الموت القادم من الشرق لن يستثنيه إن بقي.

* * *

كان عائدا من ساحة تتوسط مدينة إيمّوزار المغربية، في الدولة التي بات قادرا على التخاطب بلهجة أهلها، وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف ليل السبت ١-٦-١٩٩٢ حين أدخل يده في صندوق البريد الخاص بالمكتب الذي يعمل فيه منذ أن وصل إلى هذا البلد، فوجد رسالة عليها كتابات باللغة العربية، فطارت روحه من جسده، وحامت فوق تفاصيل الأمس المتجذر في أعماقه، والذي لا زال موثوقا إليه بحبل السرة. قلب الرسالة في كفيه، محاولة منه لمعرفة مصدرها، فتبين له أنها تحمل اسم مشفى أمراض السل في العازونية، ولفت انتباهه أن الرسالة سميكة، فتحها، بعد أن مزق بعناية طرفها، والقلق والشوق يمزق حشاشته، فوجد فيها عدة أوراق مطوية، فتح الورقة المميزة بخط ألفه بعد سفره، في رسائل كانت ترده بين الفترة والأخرى، فكانت رسالة من أبيه يخبره فيها وفاة جده أبي سهيل، الذي ظل يذكره حتى سكتت نبضات قلبه، ثم تناول الورقة الثانية والدمع يسابق مجراه فوق خده، فكانت من مشفى أمراض السل، تخبره نبأ موت المدعو راجي، والذي جيء به إلى المستشفى دون أية أوراق ثبوتية، سوى الرسالة التي تحمل عنوان المرسل إليه حنين، وإدارة المشفى تأسف لعدم قدرة المريض على مقاومة مرضه، رغم كل ما تلقاه من علاج. ويسأله المستشفى، إن كان بإمكانه تسديد الفاتورة المتبقية في ذمة المتوفى، والتي تشمل إلى جانب ثمن العلاج ثمن التابوت والزهور التي وضعت فوقه.

كذلك حوت الرسالة صورة كتب عليها صيف ١٩٧٣، قلبها فإذا بها صورته، وهو يجلس في حضن أمه سمية، بجانب كومة حطب أمام منزل جده. عض على فكيه شوقا، وتنفس بعمق السنوات الماضية، وصعد الدرجات التسع إلى غرفته، فتح الباب، ودخل، وهو يخرج بيده الأخرى محفظة النقود من جيبه، ووضع الرسالة فوق طاولة تحمل كتابا، ومسجلا صغيرا، وعدة أشرطة، وتوجه إلى المكان الذي يخبئ فيه نقوده، تحت نبتة صناعية. أخرج النقود، وبدأ عدها، وأضاف إليها ما في جيبه، فوجد أنها لن تكفي لتسديد

ثمن الفاتورة، إلا أنه قرر أن يكتب رسالة، يؤكد فيها تعهده لإرسال ما تبقى من نقود، بشكل شهري، ثم عاد وتناول رسالة والده، والصورة، وحمل كرسيا، وخرج إلى الشرفة، حيث جلس يقرأ الرسالة تارة، ويتأمل الصورة طورا، وقد أخذت مخيلته، تنشر له صور وذكريات، الواحدة تلو الأخرى فوق جبل امتد من شوقه إلى قلبه إلى بصره حتى وصل دمعه المتساقط حبات فمنها فوق الصورة، ومنها فوق الرسالة، ثم أطبق فمه مجهشا البكاء، رفع رأسه إلى الأعلى وهو يخرج تنهيدة عبأ صدره بها من نسيم تلك الليلة الصيفية الهادئة الصامتة إجلالا لمصابه. ثم فتح عينيه فإذا بهما تقعان على القمر وقد اكتمل بدره، وصفا ضياؤه، فتذكر ليلة رحيله، وقد كان القمر بدرا، حين ترك دار جده في مثل هذا الوقت، الثانية بعد منتصف الليل، ليلحق بالباخرة التي ستقلع فجرا، وقد ركب السيارة، وأخرج رأسه وجذعه من شباكها ملوحا لجده وأبيه، وليلقي النظرة الأخيرة على دار الطفولة الحزينة، وعلى ما خلفها هناك على بعد أمتار عند بداية السفح، وكان ليلتها قمر فوق القبور.